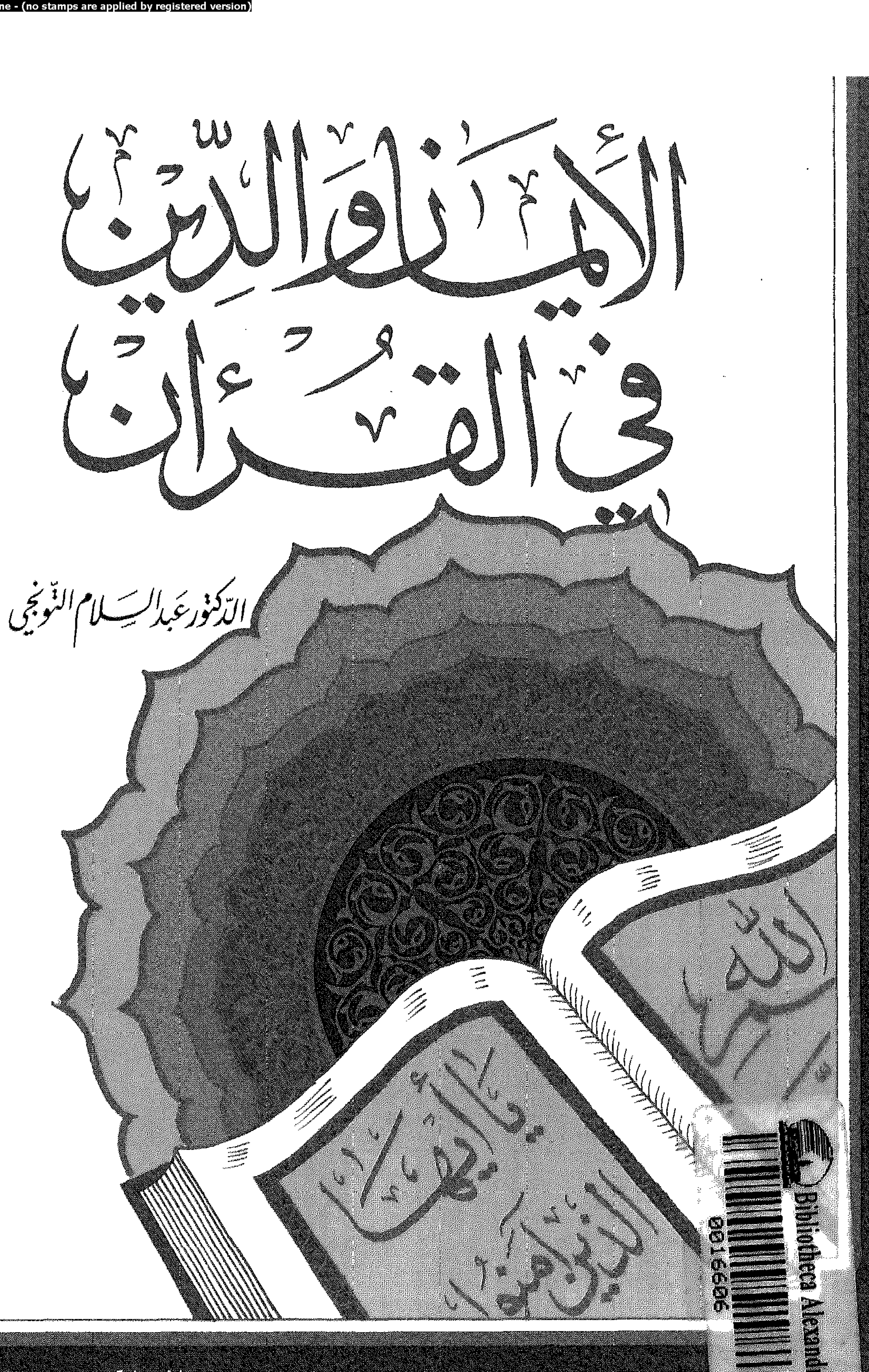


منشورات
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

الأيمان والدين
في القرآن



الأديان والدين في القرآن

توفيق

عبد السلام التونجي
دكتوراه في علم الشرائع والحقوق

منشورات
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

الطبعة الأولى

1423 من ميلاد الرسول ﷺ الموافق 1994 ميلادية

منشورات
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إنّي رأيت انه لا يكتب إنسان كتاباً
في يومِهِ إلّا قال في غَدِه : لو غُيّر
هذا لكان أحسَن . وَلو زيد كذا
لكان يُستحسن . وَلو قدّم هذا لكان
أفضل . وَلو ترك هذا لكان أجمَل .
وَهذا مِن أعظم العبر ، وهوَ دليل على
استيلاء النقص عَلى جملة البشر .

العماد الأصفهاني



بسم الله الرحمن الرحيم



المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه، المبعوث هدى ورحمة للعالمين. وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وبعد.

فإن الإيمان والدين، والعقائد، لها من وشائج القربى وسمات الاتصال، ما يجعلها وحدة جامعة للتصديق إيماناً بالله وملائكته. وكتبه السماوية، ورسله واليوم الآخر خيره وشره؛ ذلك أن الاعتقاد إذ ينبثق من الثقة المتولدة من الإيمان، فهو بتعبير آخر مقتضاه التسليم بوجود الله ووحدانيته. وربوبيته القائمة على الرضا والاطمئنان بآياته وأحكامه، ولذا كانت المعتقدات في هذا الشأن تستند إلى العقل كما وتستند إلى النقل الصحيح عن كتاب الله وسنة رسوله، بأحاديثه المتواترة عنه صلى الله عليه وسلم، كل ذلك بحثاً عن الحقيقة، وصولاً إلى اليقين المسلم به عند علماء المسلمين خاصة وعند المسلمين عامة.

هذا وإذا كان الإيمان بالنقل، يفوق اعتماد الخصائص المنطقية والفعلية، ذلك أن النص القاطع الوارد عن رسول الله ﷺ، قد قطع دابر الجدل والشك، فتقرر أن يكون الإيمان على إطلاقه، وهو: «أن

تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر». «وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1].

أما الدين والملّة. فهما متحدان في الذات، بيد أنهم مختلفان في الاعتبار، فإذا كان الدين منسوباً إلى الله. والملّة منسوبة إلى الرسول، فإنه من خلال فهمهما، ومنهجية البحث فيهما، ظهر المذهب المنسوب إلى المجتهد.

ولا شك أنه من خلال هذه الأمور كلها، كانت الشريعة الإسلامية الغراء، التي أنزلها الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله، على محمد رسول الله ﷺ، تكون رحمة للعالمين، ومنهاجاً في الدين والعمل، لتحقق السعادة في الدارين.

وإذ كان الأمر كذلك، فإن الإيمان إذن لم يكن مقتصراً على أركانه المعروفة، وهي الإيمان بالله،ورسوله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، بل يتعدى شمولاً إلى كل ما يتطلبه نظام السلوك الإنساني في الخير في هذه الحياة، من استقامة وصدق، وتطبيق لمفاهيم الإسلام ومقاصده، من طاعة، وصلاة، وزكاة، وصوم، وحج، وبمعنى أعم اتباع أوامر الله ونواهيه، وبهذا تكون الهداية شاملة يجد المرء بها طريقه واضحاً. وسلوكه سليماً ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[3] وقال أيضاً: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[4].

---

(1) أخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

(2) الزمر، الآية: 23

(3) الأنعام، 71.

(4) البقرة، الآية: 38

ولا شك أن مفهوم الهداية يرمي إلى الإيمان، إذ ﴿من آمن بالله فلا خوف عليه﴾. لهذا كان الإيمان زاد الحياة. يعطي ثمراته في الدنيا والآخرة، وهو باختصار، طاعة الله، بما أنزله، وطاعة رسوله بما دعا إليه.

هذه النظرة الشمولية لمفهوم الإيمان، قد أحاطها الله بالدين، منذ وجد آدم على ظهر الأرض، إذ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾(1).

هذا الدين، هو دين الإسلام، وقد اصطفاه الله للعالمين. فقال تعالى معلناً عموميته ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(2). وقال تأكيداً لهذا الاصطفاء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾(3).

هذا الدين يرمي إلى التوحيد بوحدانية الله وربوبيته وعبادته، بكل إيمان وإخلاص قال تعالى:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾(4). والمراد بالدين هنا. هو دبن الإسلام، وهو نعمة من الله ارتضاها لعباده فقال تعالى:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

هذا الدين الذي قضى على الشرك والكفر في بيئة جاهلية قاسية،

(1) التوبة، الآية: 33.
(2) آل عمران، الآية: 19.
(3) البقرة، الآية: 133.
(4) البينة، الآية: 5.
(5) آل عمران، الآية: 85.

ساد في المجتمع بفضل الله ورسوله ﷺ، بما بشر به، ودعا إليه بشجاعة ثابتة، وحكمة رائدة، حيث قضى على رموز الكفر وتوابعها، من الفساد والظلم، فساد العدل والنظام في المجتمع، وترسخت القيم الحضارية الإسلامية، فلا تعصب، ولا غلو، ولا كذب، ولا نفاق، بل حياة مطمئنة صادقة تجعل المرء بعيداً عن كل حرج.

هذا الدين، هو دين اليسر، دين الثقة، دين العفو والغفران، لمن تاب وأناب إلى الله، هو في حقيقته دين يدعو إلى وحدة الصفوف وإجماع الكلمة. فإذا كان كذلك فإنه لا بد من طاعة، وهذه الطاعة تقتضي البيعة وعلى هذا فلا بد للمسلمين إذن من إمام، يكون رمزاً عملياً لاجتماع الكلمة، وهذا ما يجعل الدعوة مستمرة إلى الدين، إلى يوم القيامة، بحيث يكون الداعي عالماً عاملاً يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، والإعراض عن الجاهلين قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ (1).

هذا وإذا كانت العقائد تشمل ما ينبغي أن يدين به المسلم. ويعتقده بقلبه إيماناً، صافياً، صادقاً. دون أن يشوبه أي شك أو ارتياب، فإن من مقتضياتها الإيمان بالغيبيات التي لا سبيل إلى الاعتقاد بها، إلا عن طريق الخبر اليقيني، الذي وصلنا عنها، في كتاب الله وأحاديث رسوله ﷺ. فهي في حقيقة الأمر تعبير عن مدى الإيمان والجنة. لا سيما وأنها محجوبة عن الرؤية الحسية. إذ لم يتحقق مضمونها في هذه الدنيا بل هي في علم الله جل جلاله، كالأخبار اليقينية فيما يتعرض إليه الإنسان فيما بعد الموت من عذاب القبر، أو نعيمه، وما يتعلق بيوم المعاد وهو البعث وما فيه من الحشر والحساب. والجنة والنار، والنعيم والعذاب. . .

(1) يوسف، الآية: 101.

هذه المغيبات على الرغم من الإيمان بها عن طريق الخبر اليقيني، فهي في الوقت ذاته، قد تخضع للنظر والعقل، كما هو الشأن في المعجزات، التي هي من الأمور الخارقة للعادة، ويظهرها الله على يد الأنبياء، عند تحدي المنكرين للدعوة التي يدعو إليها، فتكون بذلك وسيلة للتصديق بصدق دعواهم.

هذه المعجزات، وإن خالفت المألوف، والقوانين الحسية في الوجود، فهي لا تخالف العقل والإمكانية، إذ إنها متصلة بقوة خارقة، هي قدرة الله العجيبة، التي لا يعجزها شيء. إذ الله قادر على كل شيء.

قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ۝٤٤﴾ [1]. ولا شك أن أبلغ المعجزات هو القرآن الكريم، وهو المعجزة الخالدة التي تصبو إليها العقول، وتتطلع إليها النفوس والأنظار والذي أتى بشريعة سمحاء تقوم على العدل والانصاف والحرية والمساواة، تحقيقاً للإيمان والدين، ودفعاً للفساد. هذا والله سبحانه وتعالى إذ يبين لنا في محكم تنزيله في آياتها البينات، يرشدنا بالأدلة الفعلية والنقلية. إلى ما حصل للأمم السابقة، من جراء كفرها وطغيانها، واستفحال ذنوبها، وانتشار فسادها، حيث تحكمت فيها أهواءها الفعالة، مما أدى إلى تقويض دولها، واندثار أممها، نتجة لذلك، قال تعالى في شأنهم:

﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [2].

وبعد، فإن هذا البحث الذي تناولنا فيه الإيمان، والدين،

(1) فاطر، الآية: 44.
(2) الروم، 41.

والعقائد إنما هو صورة صادقة للسلوك الإنساني الواجب الاتباع إيماناً وديناً وعقيدة، وقد نبّه الله في محكم آياته عنها في جميع أركانها وأبعادها ومختلف صورها، لما يجب أن تكون عليه عقيدة المسلم الصالحة، إذ بفضلها وقيمها، ارتسمت أسس الإسلام، فكانت قواعده ومبادئه، قد شيدت أعظم حضارة عرفها التاريخ، وهي حضارة راسخة متمركزة، وقائمة على الدين والعلم النافع. والعمل الصالح، وهي لا تزال مشرقة على العالم، تعطي صورة صادقة، عن القيم الإنسانية الخلاقة، ولاغرابة في ذلك، فهي الشريعة الإسلامية التي تصلح لكل زمان ومكان: وهي الرائدة والخاتمة لكافة الشرائع وهي بحق شريعة السعادة في الدارين. ولله الحمد أولاً وآخراً وهو نعم المولى ونعم النصير وبه التوفيق والعصمة. والله من وراء القصد.

17 يوليو 1993 الدكتور عبد السلام التونجي.

- أ -

الإيمان



بابُ الهمزة

1 ـ ابتلاء المؤمنين

قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾.

سورة البقرة: 155 وانظر البقرة 214 وآل عمران: 152، 154، 197، 186، والمائدة: 48 والأنعام 165 وهود: 7 والأنبياء: 35 والعنكبوت: 2 ومحمد: 31.

اللغــة:

بلوت فلاناً، أو بلوت كذا أبلوه ـ من باب نصر ـ بَلْواً وبلاءً، وأبليته: كل ذلك بمعنى امتحنته واختبرته ويكون بالخير والشر والنعمة والنقمة(1).

فاختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسارّ ليشكروا وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المِحْنَة والمِنْحَة جميعاً بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر(2).

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 125.

(2) والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، قال عمر رضي الله تعالى عنه «بُلينا بالضراء فصبرنا وبُلينا بالسَّراء فلم نصبر وقال أمير المؤمنين مَنْ وسِّع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مُكِرَ به فهو مخدوع في عقله. انظر المفردات ص 61.

والبلاء يأتي على حسب دين العبد وشدة يقينه، فقد قال سعد بن أبي وقاص: سألت رسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ فقال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل فيبتلىٰ الرجل على حسب دينه، فإن كان رقيق الدين ابتُلي على حسب ذاك وإن كان صلب الدين ابتلي على حسب ذاك، فما تزال البلايا بالرجل حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة[1].

وللصابر الراضي أعلى أنواع الثواب ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [2] وفي صبر العبد المؤمن اكتساب معيَّة الله ومحبته: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [3] ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [4]. هذا ولا يحل لمؤمنٍ أن يذل نفسه فيتعرض من البلاء لما لا يقوم له[5].

التفسير:

تقدم في الأموال من الاجتماعيات. وفيما تقدم في اللغة إضاءة أخرى لنظرة الإسلام: إلى الابتلاء ومفهومه.

2 ـ الاستجابة

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

(1) أخرجه البخاري.
(2) الزمر، 10.
(3) الأنفال، 66.
(4) آل عمران، 146.
(5) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا يحل لمؤمن أن يَذِلّ نفسه» قالوا: يا رسول الله وما إذلاله نفسه؟ قال: «يتعرَّضُ من البلاء لما لا يقوم له». انظر القرطبي 4/ 48.

سورة البقرة: 186 وانظر آل عمران: 172 والأنعام: 36 والأنفال: 24 والرعد: 18 والقصص: 50 والشورى 26/ 47.

أسباب النزول:

تقدم في الدعاء والطلب من قسم العبادة.

اللغــــة:

الإجابة الرد على الكلام، يقال أجابه إجابةً، والاسم منه الجواب. والاستجابة كالإجابة في إفادة معنى التلبية والقبول. يقال دعاني فاستجبتُه واستجبتُ له. واستجاب اللهُ دعوتَهُ واستجاب له[1].

وحقيقة الاستجابة هي التحرّي للجواب والتهيُّؤ له، لكن عُبِّرَ به من الإجابة لقلة انفكاكها منها[2].

ولا تكون الاستجابة إلا لمن أخلص لله تعالى بقلبه وأطاع بدنه عن عباده المؤمنين فيعطيهم مسألتهم: إذا دعوه كما يجيب دعاء هؤلاء المؤمنين بعضهم لبعض. ويجيب دعوة المظلوم ودعوة المضطر لأنهما في حال انكسار وخشوع ورجاء ما بعده رجاء[3].

التفسير:

تقدم في (الدعاء والطلب) من قسم العبادة.

3 ـ أطيعوا الله والرسول

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

سورة آل عمران: 32 وانظر آل عمران أيضاً 132 والنساء: 59، 64، 69،

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 221 والتي تليها.
(2) المفردات ص 102.
(3) انظر الأدعية والدعاء والطلب وكيفية الدعاء والصلاة في قسم العبادة من معجمنا.

80، والمائدة: 92، والأنفال: 1، 20، 46، والتوبة: 71 والنور: 52، 54، 56، والأحزاب 36، 71 ومحمد: 33 والفتح: 17 والحجرات: 14 والمجادلة: 13 والحشر: 7 والممتحنة: 12 والتغابن: 12، 16.

اللغـــة:

من الحسي في مادة (ط و ع): فرس طوع العنان: سَلِسُهُ، وأطاع النبتُ وغيره: لم يمتنع على آكله، وأطاع المرعى أو المرتع، اتّسع ومنه يجيء المعنوي من الانقياد والاستجابة. والطوع ضد الكره فيقال: طاعه يطوعه وطاع له وطاعه وأطاعه وأطاع له طوعاً وطاعة وإطاعة، كلها بمعنى لان وانقاد، والاسم الطواعة والطواعية. وقد يُفرّق بين الصيغ المختلفة للأمثال، فطاع له إذا انقاد كقوله تعالى ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة/30]. وإذا مضى لأمره فقد طاوعه، فإذا وافقه فقد أطاعه. كقوله تعالى ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[النساء/ 80] و﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ [آل عمران/ 168][(1)].

وطاعة الله تقتضي معرفته وتقوم معرفته جل وعلا على وسيلتين: إحداهما العقل والنظر فيما خلق الله من أشياء. وثانيتهما معرفة أسماء الله وصفاته التي تعرّف تعالى بها إلى خلقه[(2)]. والطاعة بعد المعرفة تعني المحبة ولا تقسم الطاعة ولا المعرفة إلا بطاعة رسول الله ﷺ والإيمان بما أنزل عليه. ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء/ 80][(3)].

أسباب النزول:

نزلت هذه الآية والتي قبلها في وفد نصارى نجران جاؤوا

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 138 وانظر المفردات 310 والتي تليها.

(2) العقائد الإسلامية 19 و 24.

(3) انظر تفسير أبي السعود 2/ 24 وما بعدها.

يجادلون رسول الله ﷺ في أمر عيسى عليه السلام ويقولون إنا نعظم المسيح حباً للّه[1].

التفسير:

قل يا محمد لهؤلاء الذين يزعمون أنهم يحبون الله: إن كنتم تحبون الله كما تدعون فاظهروا دلالة صدقكم بطاعة الله وطاعة رسوله[*] في جميع الأوامر والنواهي، فذلك أمارة صدق الدعوى، فإن أعرضوا عن طاعة الله وطاعة رسوله. فإن الله يبغضهم ولا يريد ثوابهم بسبب كفرهم، فالتولي في الطاعة كفر ومحبته تعالى مخصوصة بالمؤمنين[2].

4 ـ الإيمان بالله والجهاد في سبيله أفضل من سقاية الحاج وسدانة البيت

قال الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

سورة التوبة: 19.

أسباب النزول:

روي أن العباس لما أُسِرَ مع أصحابه يوم بدر أقبل المسلمون عليهم يعيرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونفك العافي ونسقي الحاج فأنزل الله تعالى هذه الآية[3].

---

(1) انظر الواحدي 73 و 74 ومجمع البيان للطبرسي 3/ 60 وتفسير أبي السعود 2/ 25. ولا يمنع خصوص السبب من كونها عامة.

(*) إن الطاعة المأمور بها إطاعته عليه الصلاة والسلام من حيث إنه رسول الله لا من حيث ذاته. وكونه ﷺ يحمل الرسالة من موجبات الإطاعة ودواعيها. انظر ت. أبي السعود 2/ 25.

(2) مجمع البيان وت. أبي السعود، الصفحات المذكورة.

(3) الواحدي 182 وابن كثير 3/ 374 وانظر القرطبي 8/ 91 و92.

القراءات:

قرأ الجمهور (سقاية وعِمارة) وهما مصدران نحو الصيانة والوقاية وقوبلا بالذرات فاحتيج إلى حذف من الأول أي أهل السقاية أو حذف من الثاني أي كعمل من آمن. وقرأ ابن الزبير والباقر وأبو حيوة (سقاة) و(عَمَرة) جمع ساقٍ وجمع عامر كرام ورماة وصانع وصَنَعَة(*) وقرأ الضحاك (سُقاية) بضم السين وعَمَرَة[1].

اللغة:

1 ـ آمن يومن إيماناً: أذعن وصدّق، وحيثما وردت في القرآن الكريم بصيغة الماضي أو المضارع أو الأمر، فهي بهذا المعنى. ومعاني مادة (أمن) كلها ترجع إلى الاطمئنان[2]. فالإيمان بالله يعني التصديق بوجوده والخضوع له من غير ريبه. وحقيقته ما وقر في القلب وصدّقه العمل وقد اقترن في أكثر من موضع ذكر الإيمان والعمل الصالح كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[3].

(*) وعلى هذه القراءة لا يحتاج إلى تقدير محذوف. فتح القدير للشوكاني 2/ 344.

(1) البحر المحيط 5/ 20 وانظر قراءة أخرى في معجم القراءات القرآنية 3/ 12.

(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 55.

(3) وقد فسّر النبي ﷺ الإيمان في حديث أخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ومنه «قال فأخبرني عن الإيمان قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» فالإيمان منوط بالاعتقادات الباطنة بخلاف الإسلام المتعلق بأعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل.

هذا، ولم يكن من مضى من السلف يفرقون بين العمل والإيمان كما قال الأوزاعي، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار: أما بعد فإن الإيمان فرائض وشرائع فمن استكملها استكمل الإيمان. انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص 22، 24، 25.

وقيل: من شهد وعمل ولم يعتقد فهو منافق، ومن شهد ولم يعمل واعتقد فهو فاسق، ومن أخلّ بالشهادة فهو كافر والإيمان على خمسة أوجه: وإيمان مطبوع وهو إيمان الملائكة وإيمان معصوم وهو إيمان الأنبياء وإيمان مقبول وهو إيمان المؤمنين وإيمان موقوف هو إيمان المبتدعين وإيمان مردود هو إيمان المنافقين. التعريفات للجرجاني ص 60.

2 ـ جاهد يجاهد مجاهدة وجهاداً: بذل وسعه في المدافعة والمغالبة فهو مجاهد وهم مجاهدون وأكثر ما ورد الجهاد في القرآن ورد مراداً به بذل الوُسْع في نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها[1].

3 ـ قوله تعالى: ﴿ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ . وعمارة المسجد تكون بما يناسبه من إقامه الشعائر والعبادة[2]، وفي الجاهلية كانوا يعبدون الأصنام التي في الكعبة ويقومون بخدمة الكعبة والأصنام ويسمى صنيعهم هذا بالسِّدانة يقال سَدَنَ الكعبة فهو سادن والجمع سَدَنة[3].

4 ـ وسقاية الحاج: سقيهم الماء. يقال سقاه ماءً يسقيه سَقْياً وأسقاه إسقاءً: أعطاه ما يشرب. وقيل: سقاه: أعطاه ما يشرب. وأسقاه: جعل له ذلك حتى يتناوله متى شاء كقوله تعالى ﴿ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾. وسقى يتعدى لمفعولين نحو قوله تعالى ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ وقد يحذف المفعولان كقوله تعالى ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ وقد يحذف أحدهما كقوله تعالى ﴿ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾. والسقاية: الإناء الذي يُسقى به وقد يقال به[4] وهو الموضع الذي يتخذ لسقي الناس أيضاً[5].

التفسير:

أنكر تعالى على المشركين التسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الأعمال التي صورتها صورة الخير، وإن لم ينتفعوا بها وبين إيمان المؤمنين وجهادهم في سبيل الله فقال: أجعلتم(*) يا معشر المشركين

(1) المرجع السابق 1/ 216.
(2) المرجع السابق 2/ 331.
(3) انظر الصحاح والمصباح المنير (سدن).
(4) معجم ألفاظ القرآن 1/ 575 و577.
(5) المصباح المنير (سقى).
(*) الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟(*) لا يساوي تلك الطائفة المشركة الساقية للحجيج العامرة للمسجد الحرام هذه الطائفة المؤمنة بالله. اليوم الآخر المجاهدة في سبيله، ولا تتبدل أحوالهما ومنازلهما عند الله. ثم حكم عليهم تعالى بالظلم وأنهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك لا يستحقون الهداية من الله إلى صالح الأعمال وطريق الثواب[1].

5 ـ الإيمان بالغيب

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾.

سورة البقرة: 3 وانظر البقرة: 33 وآل عمران: 179 ومريم: 61 والأنبياء: 49 وفاطر: 18 ويس: 11 وقّ: 33 والملك: 12.

القراءات:

قرأ الجمهور (يؤمنون) بالهمز وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم وورش والأعمش وأبو شعيب والسوسي (يومنون) بترك الهمزة والهمز على الأصل وتركه للتخفيف[2].

اللغة:

الغَيْبُ مَصْدَرُ غابت الشمس وغيرُها إذا استترت عن العين. يقال: غاب عنّي كذا. واستعمل في كل غائب من الحاسّة وعما يغيب

(*) يجوز التقدير: أجعلتتم أهل سقاية الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله... وعلى هذا يكون مقابلة الشخص بالشخص. أما ما أخذنا به من تقدير في التفسير فهو مقابلة. انظر مجمع البيان 10/ 32

(1) المرجع السابق وم. الطبري 1/ 319 وفتح القدير 2/ 344 والتي تليها.

(2) معجم القراءات 1/ 18 ومجمع البيان 1/ 79.

عن علم الإنسان بمعنى الغائب ويقال للشيء غَيْبٌ وغائب باعتباره بالناس لا بالله تعالى فإنه لا يغيب عنه شيء كما ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾. وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي ما يغيب عنكم وما تشهدونه والغيب في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، ما لا يقع تحت الحواس(*) ولا تقتضيه بداية العقول وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام[1].

التفسير:

تقدم في (الإنفاق) من الأخلاق الحميدة.

6 ـ الإيمان بالله ورسله وما أنزل واليوم الآخر.

قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾.

سورة البقرة: 285 وانظر البقرة: 4، 177، 186، 256 وآل عمران: 84، 110، 179، 193 والنساء: 136، 162 والتوبة: 18، 19 والنحل: 3 والعنكبوت: 46 وسبأ: 21 والحديد: 7، 8، 19، 28 والصف: 10، 11 والتغابن: 8، 11 والملك: 29 والمعارج: 26 والجن: 13 والقيامة: 31.

(*) المقصود بالغيب في القرآن ما كان غائباً من الحواس كالإيمان بوجود الله تعالى والإجابة بالملائكة والجن ويوم القيامة وما إليه من الحساب فإما النعيم المقيم في الجنة وإما العذاب الشديد في جهنم. إلا أن بعض الغيبيات يحتاج إلى الخبر اليقين للإيمان به كالحقائق التي تتعلق بالموت. وأشراط الساعة ويوم القيامة... أما معرفة وجود الله وبنبوة الأنبياء والكونيات من نشوء الإنسان ووجود الملائكة والجان فهي ميسورة عن طريق النظر والعقل أكثر من أن تكون ميسورة عن طريق الخبر اليقيني.
انظر كبرى اليقينيات الكونية ص 301

(1) المفردات 366 وما بعدها. وانظر ما تقدم في عالم الغيب والشهادة من موضوع (الله تبارك وتعالى) أسماؤه وصفاته المركبة.

أسباب النزول:

سبب نزول هذه الآية هو الآية التي قبلها، فلما أنزلت على النبي ﷺ اشتد ذلك على أصحابه فأتوه ثم بركوا على الركَب فقالوا: أي رسول الله، كُلفنا من الأعمال ما نُطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نُطيقها. قال الرسول ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ..﴾[1].

القراءات:

قرأ علي وعبد الله بن مسعود وآمن المؤمنون كل آمن بالله. . . على أن (المؤمنون) عطف على الرسول و في قراءة الجمهور المتداولة، مبتدأ[2].

وقرأ نافع ويحيى بن يعمر (وكُتْبِهِ) للتخفيف وقرأ حمزة والكسائي وخلف والأعمش وابن عباس وعبد الله بن مسعود (وكتابه) أرادوا كل مكتوب، سمي المفعول بالمصدر كقولهم نسْجُ اليمن أي منسوجه.

وقرأ نافع وأبو عمرو والحسن ويحيى بن يعمر (رسْله) بإسكان السين للتخفيف وقرأ عبد الله بن مسعود (وكتابه ولقائه ورسله).

وقرأ أبو عمرو وسعيد بن جبير ويعقوب ويحيى بن يعمر وأبو زرعة بن عمرو بن جرير (لا يُفرّقُ) على لفظ كل أي كل لا يفرّق وقرأ

---

(1) القرطبي 3/ 427 وانظر الواحدي 66 وفتح القدير 1/ 305 وما بعدها. والبحر المحيط 2/ 363.

(2) انظر القرطبي 3/ 428 والبحر المحيط 2/ 364.

ابن مسعود وأُبي (لا يفرّقون). وقراءة الجمهور (لا تفرّق) على حذف القول أي يقولون لا نفرّق. وهو كثير كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ أي يقولون: سلام عليكم[1].

اللغـــة:

1 ـ الله: تقدم القول مستوفى في (الله تبارك وتعالى) القسم الثاني أسماؤه وصفاته المفردة.

2 ـ الرسول: أصل الرِّسْلِ الانبعاث على التؤده يقال: إبْل وإسبل منبعثة انبعاثاً سهلاً، ومنه الرسول المُنْبَعِثُ. والرسول يقال للواحد والجمع قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ و﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وجمع الرسول رُسُلٌ. ورسل الله تارة يراد بها الملائكة كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ وتارة يراد بها الأنبياء كقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ محمول على رسله من الملائكة والإنس[2].

3 ـ كتبه: جمع كتاب والكتاب الرسالة المكتوبة أو الصحيفة مع ما كتب عليها وقوله تعالى كتبه أي كتبه السماوية التي أنزلها على رسله[3].

4 ـ الآخِر، بكسر الخاء، مقابل الأول وجمعه آخِرون ومؤنثه آخِرة واليوم الآخِر: يوم القيامة وهو النشأة الثانية قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وكذلك الآخرة قال تعالى: ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ودار الآخرة ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا

(1) ما تقدم في المرجعين السابقين.
(2) المفردات ص 195.
(3) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 447 و451.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ والدار الآخرة ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾(1).

وهذا الموضوع يرشد إلى أركان الإيمان التي وردت في حديث أخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومنه «قال فأخبرني عن الإيمان؟ قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».

التفسير:

صدَّق الرسولُ محمدٌ ﷺ بما أوحاه إليه ربُّه من القرآن وصدَّق المؤمنون أيضاً مع نبيهم بالله وحده من غير شريك له في الألوهية والمعبودية، وملائكته من حيث إنهم عباد مكرمون له تعالى من شأنهم التوسط بينه تعالى وبين الرسل بإنزال الكتب وإلقاء الوحي، وكتبه ورسله من حيث مجيئهما من عنده تعالى كلٌّ في حينه لإرشاد الخلق إلى ما شرع لهم من الدين بالأوامر والنواهي(*)؟ يقولون لا نفرِّق بين أحد من رسل الله في الإيمان بأن نؤمن ببعض منهم ونكفر بآخرين كما فعل أهل الكتاب من اليهود والنصارى. وقالوا: سمعنا قول ربنا وأطعنا أمره، نسألك غفرانك ذنوبنا، إليك مرجعُنا ومعادُنا بالموت والنشور.

7 - الإيمان نور:

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

(1) المرجع السابق 1/ 29.

(*) لم يذكر هاهنا الإيمان باليوم الآخر كما ذكر في قوله تعالى ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾ لاندراجه في الإيمان بكتبه «ت. أبي السعود 1/ 274».

سورة البقرة: 257 وانظر المائدة: 15، 16 والرعد: 16 والنور: 40 والأحزاب: 43 والزمر: 22 والشورى: 52 والحديد: 9، 28 والصف: 8 والطلاق: 11.

أسباب النزول:

انظر (ولي المؤمنين) في أسمائه تعالى وصفاته المركبة.

اللغــة:

للنور في القرآن الكريم معان مختلفة حسيَّة ومعنوية[1].

والمقصود في هذا المقام أن التصديق بالله تعالى وبرسوله محمد ﷺ وبالكتاب الذي أنزل عليه هو النور الذي يبدد ظلمات الشكوك والشبهات ويتقي البلبلة والوسوسة وعقائد الضلال ويجلب اليقين بالحق والهدى ومعناه الحسي ضوء كل جرم مضيء يعين على الإبصار ويجمع على أنوار.

التفسير:

انظر (ولاؤه) في (الله تبارك وتعالى) القسم الثالث.

(1) م. الطبري 1/ 92 وت. أبي السعود 1/ 276،273.

باب التاء

8 ـ التوكل والإخلاص

قال الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

سورة آل عمران: 101 وانظر آل عمران: 103، 122، 159، 160، 173 والنساء: 81، 146، 171، 175 والمائدة: 11، 23، والأنعام: 102 والأعراف: 89 والأنفال: 2، 49، 61 والتوبة: 51، 129 ويونس: 84، 107، 115 وهود: 123 ويوسف: 67 والرعد: 30 وإبراهيم: 11، 12 والنحل: 42 والإسراء: 2، 65 والحج: 78 والفرقان: 58 والشعراء: 117 والنمل: 79 والعنكبوت: 59 والأحزاب: 3، 48 والزمر: 38 والشورى: 10، 36 والذاريات: 50 والمجادلة: 10 والممتحنة: 4 والتغابن: 13 والطلاق: 3 والملك: 29 والمزمل: 9.

أسباب النزول:

قال ابن عباس: كان بين الأوس والخزرج قتال وشرٌ في الجاهلية، فذكروا ما كان بينهم فثار بعضهم على بعض بالسيوف، فأُتي النبي ﷺ فذُكر ذلك له فذهب إليهم فنزلت هذه الآية[1].

(1) القرطبي 4/ 156 والواحدي 86.

اللغـــة:

1 ـ التوكل: انظر (التوكل) في الأخلاق الحميدة.

2 ـ الإخلاص: انظر الإخلاص في الأخلاق الحميدة.

التفسير:

مِنْ أين(*) يأتيكم الكفر ولديك ما يمنع منه ويقطع أثره، وهو تلاوة آيات الله عليكم، وكون رسول الله ﷺ بين أظهركم، يبين لكم ما أنزل إليكم ويعظكم وينير قلوبكم(**) ومن يستمسك بدين الله وكتابه ورسوله، فقد حصل له الهدى إلى الصراط المستقيم ولا محالة، لأن الاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية والعدة في مباعدة الغواية والوسيلة إلى الرشاد وطريق السداد.

(*) الاستفهام في قوله تعالى ﴿وكيف تكفرون﴾ استفهام إنكاري بمعنى إنكار الوقوع لا بمعنى إنكار الواقع، أي أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه.
انظر ت. أبي السعود 2/ 65 وابن كثير 2/ 82.
وقيل الاستفهام على جهة التعجب. انظر القرطبي 4/ 156 والأول أولى.

(**) قال قتادة: في هذه الآية علمان بينان: كتاب الله ونبي الله فأما النبي فقد مضى وأما كتاب الله فقد أبقاه الله بين أظهرهم رحمة منه ونعمة فيه جلاله وحرامه وطاعته ومعصيته. أهـ.
ويجوز أن يكون الخطاب في الآية لجميع الأمة لأن آثاره وعلاماته والقرآن الذي أوتي فينا مكان النبي ﷺ فينا وإن لم نشاهده. انظر المرجع السابق.

باب الحاء

9 ـ حب الله للمؤمنين ومحبتهم له

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾.

سورة المائدة: 54 وانظر البقرة: 186 وآل عمران: 31، 32، 91 والتوبة: 24 والمجادلة: 7.

أسباب النزول:

نزلت في حال المرتدين على الإطلاق، وفيها إخبار بالغيب قبل وقوعه ثم وقع فارتد في حياة رسول الله ﷺ بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب، وبنو مدلج قوم الأسود العنسي، وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد. وارتد بعد وفاته ﷺ سبع قبائل: بنو فزارة وغطفان وبنو سليم وبنو يربوع وكندة وبنو بكر بن وائل وبعض بني تميم ثم ارتدت غسان قوم جبلة بن الأيهم في عهد عمر رضي الله عنه(1).

وقوله تعالى ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ أصح ما

(1) التسهيل 1/180 وانظر ت. أبي السعود 3/51.

قيل فيه نزولها: أنها نزلت في أبي بكر وأصحابه، قاله الحسن وقتادة. وقال السدي: نزلت في الأنصار وقيل إنها نزلت في الأشعريين[1].

اللغـــة:

انظر (المحب) في (الله تبارك وتعالى) القسم الثاني.

التفسير:

لما نهى تعالى فيما سلف عن موالاة اليهود والنصارى وبين أن موالاتهم مستدعية للارتداد عن الدين وفصّل أمر من يواليهم من المنافقين شرع في بيان حال المرتدين على الإطلاق.

يا معشر المؤمنين من يرجع منكم عن دينه الحق إلى الكفر أو يبدل دينه بدين آخر فسوف يأتي الله مكانهم بعد إهلاكهم بقوم خير منهم يحبهم الله فيريد بهم خيري الدينا والآخرة ويحبونه فيقومون بطاعته ويتحرزون عن معاصيه. رحماء متواضعين للمؤمنين غلاظ شداد على الكافرين يقاتلون لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ولا يخافون فيما يأتون من الجهاد والطاعات أحداً. ذلك كله بفضل الله وتوفيق ولطفٍ منه ومِنَّةٍ من جهته يعطيه من يعلم أنه محل له، والله واسع الفضل والعطاء عليم بمن يستحق جوده وعطاءه ممن يحرمه إياه[2].

10 ـ حقيقة الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.

سورة الحجرات: 15. وانظر البقرة: 2، 20، 82، 108، 136، 154 وآل

(1) انظر المرجعين السابقين والقرطبي 6/ 220.

(2) المرجع السابق وم. الطبري 1/ 204 ومجمع البيان 6/ 124.

عمران: 193 والنساء: 57، 136، 173، 175 والمائدة: 5 والأنعام: 158، 159 ويونس: 65.63، 105، 106 وهود: 33، 24 والرعد: 28، 29 وإبراهيم: 18، 23 والنحل: 97 والكهف: 32، 44، 103 ـ 108 ومريم: 60، 96 وطه: 112 والأنبياء: 94 والروم: 15، 45.43 والسجدة: 15، 16، 19 والأحزاب: 72 وسبأ: 37 وفاطر: 7 والزمر: 10. 17، 18 وغافر: 84، 85 وفصلت: 8 ومحمد: 3.1 والجمعة: 4.1 والتغابن: 8 والبينة: 7.1.

اللغة:

انظر الإيمان ـ 4 ـ في هذا الجزء.

التفسير:

إنما المؤمنون ـ الكُمَّلُ ـ الذين صدَّقوا الله ورسوله ثم(*) لم يشكوا في وحدانية الله ولا في نبوة محمد ﷺ ولا في فرائض الله وحققوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة، فأنفقوا أموالهم وبذلوا مهجهم في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، هؤلاء هم الصادقون في قولهم: إنا مؤمنون، لا من دخل في الملّة خوف السيف ليحقن دمه وماله(1).

11 ـ حياة المؤمن الصالح في الدنيا والآخرة:

قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

سورة النحل 97 وانظر البقرة: 25، 82، 277، وآل عمران: 57 والنساء: 57، 122، 175.173 والمائدة: 9 ويونس: 2 والرعد: 29 وإبراهيم:

(*) قوله تعالى ﴿ثم لم يرتابوا﴾ فثم للإشعار بأن اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإيمان ليس في حال إنشائه فقط بل وفيما يستقبل. ت. أبي السعود 8/ 124.

(1) م. الطبري 2/ 380 والقرطبي 16/ 349.

23،27 والكهف: 30،31، 107،108 والحج: 14، 23، 50، 56 والنور: 55 والعنكبوت: 7، 9، 58 والروم: 15، 45 ولقمان: 8 والسجدة: 19 وسبأ: 37 وفاطر: 7 وغافر: 51 وفصلت: 8 والشورى: 26 والجاثية: 30 ومحمد: 12 والفتح: 29 والحديد: 12 والانشقاق: 25 والبروج: 11 والتين: 6 والبينة: 7 والعصر: 3.

أسباب النزول:

جاء في القرطبي: جلس ناس من أهل التوراة وناس من أهل الإنجيل وناس من أهل الأوثان فقال هؤلاء: نحن أفضل وقال هؤلاء نحن أفضل فنزلت[1].

التفسير:

تقدم في (الصالحات) من الأخلاق الحميدة.

(1) تفسير القرطبي 10/174. وليس لهذه الرواية ما يضدها في مرجع آخر.

باب الصاد

12 ـ صفات المؤمنين:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾.

سورة الأنفال 3.2. وانظر البقرة: 285 والأنفال: 74 والتوبة: 44، 71، 88، والمؤمنون: 9.1 والنور: 62 والفرقان: 68.63 والنمل: 3 والفتح: 19 والحجرات: 15 والمجادلة: 2 والبينة: 8، 9.

القراءات:

قرأ الجمهور (وجلَتْ) بكسر الجيم وقُرىء (وجَلَت) بفتح الجيم وهي لغة. وقرأ ابن مسعود (فرقت) وقرأ أبي (فزعت) وينبغي أن تُحمل هاتان القراءتان على التفسير(1).

التفسير:

إنما المؤمنون حقاً المخلصون في إيمانهم هم الذين اجتمعت فيهم خصال خمس:

ـ إذا ذكر الله فزعت قلوبهم لعظمته وسلطانه(*).

(1) البحر المحيط 4/ 457 وانظر الكشاف 2/ 113.

(*) إذا أراد الرجل أن يظلم مظلمة قيل له اتق الله، كَفَّ ووجِلَ قلبُه. انظر القرطبي 7/ 365 وت. أبي السعود 4/ 4.

- وإذا قرئت عليهم آياته المنزلة على خاتم أنبيائه ﷺ زادتهم يقيناً في الإيمان وقوة في الاطمئنان ونشاطاً في الأعمال.

- وهم يتوكلون على ربهم - مالكهم ومدبر أمورهم - وحده ولا يفوضون أمرهم إلى أحد سواه.

- ويؤدون الصلاة مقوّمة كاملة في صورتها وأركانها الظاهرة من قيام وركوع وسجود وقراءة وذكر وفي معناها وروحها الباطن من خشوع وخضوع في مناجاة الرحمن واتعاظ وتدبر في تلاوة القرآن.

- وينفقون بعض ما رزقناهم في وجوه البر من زكاة ونفقة واجبة ومندوبة للأقربين والمعوزين، وجهاد وحج وعمرة وفي مصالح الأمة[1].

(1) المراغي 9/ 164 والتي تليها. وت. أبي السعود 4/ 4 وم. الطبري 1/ 298.

باب الضاد

13 ـ ضمان السعادة للمؤمن الصالح:

قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

سورة النحل: 97، وانظر طه: 75 والحديد: 28.

أسباب النزول:

تقديم في الإيمان ـ 11 ـ.

الدلالة الخاصة للحياة الطيبة:

في الحياة الطيبة أقوال عرضها المفسرون ومنهم من قال في الدنيا ومنهم من قال في الآخرة[1]. والأرجح أنها في الدنيا لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾. قال أبو السعود: حياة طيبة في الدنيا يعيش عيشاً طيباً، أما إن كان موسراً فظاهر وأما إن كان معسراً فيطيب عيشه بالقناعة والرضى بالقسمة وتوقع الأجر العظيم كالصائم يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله بخلاف الفاجر فإنه إن كان معسراً فظاهر وإن كان موسراً فلا يدعه الحرصُ وخوفُ الفوات أن يتهنأ بعيشه[2].

التفسير:

تقدم في (الصالحات) من الأخلاق الحميدة.

(1) انظر القرطبي 10/ 174 ومجمع البيان 14/ 122.

(2) ت. أبي السعود 5/ 139.

باب الفاء

14 ـ الفرق بين الإيمان والإسلام

قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

سورة الحجرات: 14.

أسباب النزول:

نزلت في أعرابٍ من بني أسد بن خزيمة، قدموا على رسول الله ﷺ المدينة في سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السر وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ آتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة، وجعلوا يمنون عليه، فأنزل الله تعالى بينهم هذه الآية(1).

اللغـــة:

1 ـ الإيمان: تقدم القول فيه مستوفى في الإيمان في هذا الجزء.

2 ـ الإسلام: أسلم إسلاماً انقاد وأخلص ودخل في الإسلام

(1) الواحدي ص 296، وانظر ابن كثير 6/ 391 والقرطبي 16/ 348.

والإسلام هو الانقياد ظاهراً وباطناً، وقد يكون بمعنى الانقياد الظاهري(1). وهذا المعنى الأخير هو المستفاد من حديث أخرجه مسلم عن عمر رضي الله تعالى عنه، ومنه: «يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحُجَّ البيتَ إن استطعت إليه سبيلاً». فقد فسر النبي ﷺ الإسلام بأعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل، بخلاف الإيمان الذي فسّره عليه الصلاة والسلام بالاعتقادات الباطنة(2).

التفسير:

قالت الأعراب: صدّقنا بالله ورسوله فنحن مؤمنون. قل لهم يا محمد: إن الإيمان هو التصديق مع طمأنينة القلب والوثوق بالله، ولم يحصل لكم ذلك وإلا لما مننتم على الرسول بترك مقاتلته ولكن قولوا إنقذْنا لك واستسلمنا وأظهرنا الشهادة، فلا ندخل معك في حرب، ولا نكون عوناً لعدوّك عليك، ولما(*) يدخل العلم بشرائع الإيمان وحقائق معانيه في قلوبكم، إذ لم يوافق القلب ما جرى به اللسان، فالإسلام قول وانقياد بالظاهر والإيمان قول وعمل يدل على صحة الاعتقاد وعمق التصديق بالقلب. وإن تطيعوا الله ورسوله ـ أيها الأعراب ـ وتخلصوا له العمل وتتركوا النفاق، فتأتمروا بأمره وتنتهوا عما نهاكم عنه لا ينقص ـ سبحانه ـ من أجور أعمالكم شيئاً، إن الله غفّار لمن تاب

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 588 وانظر تفصيلاً لذلك في (حقيقة الإسلام) في قسم الدين. الجوارح الظاهرة من القول والعمل، بخلاف الإيمان الذي فسره عليه الصلاة والسلام بالاعتقادات الباطنة كما بيناه من قبل.

(2) إذا أُفرد كل من الإسلام والإيمان بالذكر فلا فرق بينهما حينئذ، وإن قرن بين الاسمين كان بينهما فرق على النحو الذي أوضحناه. انظر جامع العلوم والحكم ص 26 وانظر القرطبي 4/ 43 وما بعدها.

(*) في (لمّا) معنى التوقع وهو مشعر بأن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد. ت. أبي السعود 8/ 123.

وأناب وأخلص لربه، رحيم به أن يعذبهم بعد التوبة بل يزيد في إكرامه ويصفح عن آثامه[1].

(1) المراغي 26/ 146 وما بعدها. م. الطبري 2/ 280 وت. أبي السعود 8/ 123 والتي تليها.

باب الميم

15 ـ مثال الإيمان

قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾.

سورة التحريم: 11. وانظر التحريم: 12.

اللغة والتعريف:

المِثال، بالكسر اسم من ماثله مماثلة إذا شابهه، واستعمل المثال بمعنى الوصف والصورة فقالوا مثاله كذا أي وصفه وصورته[1].

والمَثَلُ ما يجري التشبيه به لبلوغه الغاية في معنى من المعاني[2] وهذا هو المراد من ضرب المثل بامرأة فرعون ـ أعدى أعداء الله في الدنيا ـ واسمها آسية بنت مزاحم، وقيل هي عمة موسى عليه السلام، آمنت به حين سمعت قصة إلقائه عصاه، فعذبها فرعون حين اطلع على إيمانها عذاباً شديداً، فلم تتراجع عن الإيمان، وصارت بإيمانها في جنات النعيم[3].

(1) المصباح المنير (مثل).

(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 580.

(3) ورد في بعض التفاسير صور من تعذيب امرأة فرعون وهي تقول يعوزها الدليل. انظرها في القرطبي 18/ 204 ومجمع البيان 28/ 129 وابن كثير 7/ 64.

التفسير:

بعد أن ضرب الله مثلاً يبين به أن صلة الكافرين بالمؤمنين لا تفيدهم شيئاً أرشد إلى عكس هذا، فأفاد أن اتصال المؤمنين بالكافرين لا تضرهم شيئاً. إذا كانت النفوس خالصة من الأكدار فلكل نفس مما كسبت وعليها ما اكتسبت.

ومثَّلَ الله مثلاً للذين صدَّقوا الله، امرأة فرعون التي آمنت بالله وصدقت رسول موسى وكانت تحت عدوٍ من أعداء الله كافر وهو فرعون فلم يضرها كفرُ زوجها إذ كانت مؤمنة حين قالت رب اجعلني قريباً من رحمتك وابن لي بيتاً في الجنة وخلصني من نفس فرعون الخبيثة وعمله السيّء وأنقذني من قومه الظالمين(1).

16 ـ مَنْ آمن بالله فلا خوف عليه

قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

سورة البقرة: 38 وانظر البقرة: 62، 112 262، 274، 277 والمائدة: 69 والأنعام: 48 والأعراف: 35 ويونس: 62.

القراءات:

قرأ الجمهور (فلا خوفٌ) بالرفع والتنوين، على أن لا نافية وخوف: مبتدأ وذلك مراعاة الرفع في (ولا هم يحزنون) فرفعوا للتعادل. وقيل: الرفع على إعمال (لا) عمل ليس وقد اختار أبو حيان الوجه الأول ورجحه.

وقرأ الزهري وعيسى الثقفي ويعقوب بالفتح (فلا خوف) على

(1) المراغي 28/ 169 و.م. الطبري 2/ 469 وت. أبي السعود 8/ 270.

أن (لا) نافية للجنس، وهذا ما دل عليه العموم في الآية.

وقرأ ابن محيصن (فلا خوفُ) بالرفع من غير تنوين. على أن لا نافية تعمل عمل ليس وحذف التنوين تخفيفاً لكثرة الاستعمال. وقد اختار أبو حيان أن يكون الرفع بلا تنوين مبتدأ وحذف التنوين، وحذف التنوين إما للتخفيف على نية الألف واللام فيكون التقدير (فلا الخوف عليهم)[1].

اللغـــة:

1 ـ آمن: انظر الإيمان 4 و14 في هذا الجزء.

2 ـ الخوف والحزن[2]: الخوف: الفزع لتوقُّع مكروه. يقال: خاف يخاف خوفاً وخيفة فهو خائف وهم خائفون. وهذا الخوف الأمني. والحُزْنُ والحَزَنُ: الهم والغَمُّ. يقال: حَزن يَحْزَنُ حَزَناً: اغْتَمّ[3] ونقيضه السرور[4]. والمراد بنفي الخوف عن المؤمنين نفيه فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا[5].

التفسير:

يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم(*) من الجنة في السماء، إلى الأرض، والمراد الذرية، إنه

(1) انظر البحر المحيط 1/ 169 والأشموني 2/ 274.

(2) ذكر أبو حيان في البحر 1/ 170 اثني عشر مدلولاً خاصاً للمراد من معنى الخوف والحزن في الآية وكلها متقاربة.

(3) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 367 و252.

(4) الخوف والجزع والفزع نظائر. والحزن والغم والهم نظائر. كذا في مجمع البيان للطبرسي 1/ 199. ولا يخفى أن بين هذه النظائر فروق جزئية.

(5) انظر المرجع السابق 1/ 211 وابن كثير 1/ 142 والقرطبي 1/ 329 والبحر المحيط 1/ 170.

(*) كرر تعالى الهبوط مرتين في الآية 36 و38 من سورة البقرة وذلك لاختلاف الحالين فقد بيّن في الآية الأولى إن الإهباط إنما كان في حال عداوة بعضهم لبعض وفي الثانية أن الإهباط إنما كان للابتلاء والتكليف. مجمع البيان 1/ 201 وانظر القرطبي 1/ 327 وابن كثير 1/ 143.

سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل فمن اتبع بياني الذي بعثته على لسان رسلي فلا خوف عليه من أهوال القيامة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا. فإن من سلك سبيل الهدى سهل عليه كل ما أصابه أو فقده، لأنه موقن بأن الصبر والتسليم مما يرضي ربه، ويوجب مثوبته، فيكون له من ذلك خير عوض عما فاته وأحسن عزاء عما فقده[1].

17 ـ المؤمن والكافر

قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

سورة آل عمران: 162 و163. وانظر الحج: 19ـ24. والقصص: 61 والروم: 14ـ16 والسجدة: 18ـ21 وفاطر: 8 وصٓ: 28 والزمر: 9، 22، 24، وغافر: 58 وفصلت: 40 والجاثية: 21 ومحمد: 14 والحشر: 20 والملك: 22 والقلم: 35، 36.

القراءات:

قُرِىء (رُضوان) بكسر الراء وضمها كالعُدوان والعِدوان[2]. والضم والكسر لغة قيس وتميم بمعنى الرضا وهو خلاف السخطَ[3].

وقرأ الجمهور (ومأواه) من غير إمالة وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وورش بالإمالة[4]. لأن أصل ألفه ياء[5]. وقرأ عامة القراء (ومأواه) بالهمز إلا السوسي فقرأ (وماواه) بالإبدال[6].

(1) التفاسير السابقة وم. الطبري 1/ 21. والمراغي 1/ 97.
(2) القرطبي 4/ 263.
(3) المصباح المنير (رضي).
(4) معجم القراءات 2/ 82.
(5) انظر الكشف عن وجوه القراءات ص 177.
(6) معجم القراءات 2/ 82 وانظر الكشف 1/ 102.

اللغـــة:

1 ـ المؤمن: اسم فاعل آمن يؤمن بمعنى أذعن وصدّق [بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره][*] وجمعه مؤمنون ومؤنثهُ مؤمنات[1].

2 ـ الكافر: وهو نقيض المؤمن يقال: كفر اللهَ وباللهِ: أنكر وجوده فلم يؤمن به وكفر بالرسول لم يصدقه وكفر بكتاب الله لم يصدق أنه من عند الله أو لم يؤمن بما جاء فيه وكفر بالإيمان: لم يعتدَّ به ولم يعمل بما يستلزمه من طاعة الله والعمل بشرائعه[2].

3 ـ والدرجة: المِرْقاةُ من مراقي السلم، والسلم يكوّن من درجات. ويقال الدرجة للمنزلة من منازل الرفعة فقوله تعالى ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ذوو منازل. والناس درجات أي ذوو درجات في الشرف[3].

التفسير:

أفمن عمل بطاعة الله فعمل بأمره واجتنب محارمه كمن رجع متحملاً سخط الله وعقتبه بسبب مخالفته لما أمر به ونهى عنه؟ ومسكنه جهنم، وبئس المرجع والمآب نار جهنم. هم يوم القيامة مختلفوا المنازل عند الله فإن الأولين في أرفع الدرجات ولهم الكرامة والثواب، والآخرين في أسفلها ولهم المهانة والعقاب. والله لا يخفى عليه شيء في السموات ولا في الأرض يحصي على الناس أعمالهم ويجازيهم بحسبها[4].

(*) [] انظر جامع العلوم والحكم 22 وانظر ما تقدم في هذا الجزء الإيمان 4.
(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 60.
(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 478.
(3) المرجع السابق 1/ 387.
(4) فتح القدير 1/ 394 والقرطبي 4/ 262 والتي تليها وم. الطبري 1/ 130.

باب الهاء

18 - الهداية والضلالة

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا اللَّهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَـٰطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

سورة الأنعام: 71 وانظر البقرة 7،5، 10، 120، 213، 272 وآل عمران: 73 والنساء: 175 والمائدة: 16، 67 والأنعام: 25، 35، 39، 88، 125، 149 والأعراف: 30، 43، 178، 186، والتوبة: 24، 28، 37، 115 ويونس: 25، 35، 57، 100، 108 ويوسف: 110 والرعد: 33 وإبراهيم: 4 والنحل: 9 والإسراء: 15، 19، 72، 97 والكهف: 13، 17، 57 ومريم: 76،74 وطه: 23 والحج: 16 والنور: 46 والنمل: 92، 63 والقصص: 56 والعنكبوت: 6، 62، 69 والروم: 29 وسبأ: 50 وفاطر: 8 والزمر: 18، 23، 36، 37 وغافر 33 والشورى: 13، 44، 46 والجاثية: 23 ومحمد: 17 والتغابن 11، والملك: 22 والقلم: 7 و الإنسان: 3 وعيسى: 20 والبلد: 10 والشمس: 8 والليل: 12.

أسباب النزول:

قيل: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق حين كان أبوه يدعوه إلى الإسلام، وقيل: إن الآية تمثيل لمن ضلّ في الدين عن الهدى وهو يدعى إلى الإسلام فلا يجيب. والقول الأول يبطل قول

عائشة رضي الله تعالى عنها: ما نزل في آل أبي بكر شيء من القرآن إلا براءتي[1].

اللغـــة:

1 ـ الهداية أحد مصادر العقل هَدَى يقال: هديته الطريق ونحوه أهديه هداية، هذه لغة الحجاز، ولغة غيرهم يتعدى بالحرف فيقال هديته إلى الطريقه وللطريق، أي عرّفه له وأزال حيرته فيما يسلك[2]. وهداه إلى الحق ونحوه وإليه وله: أرشده إليه ودله عليه بلطف ودلالة من شأنها أن توصّل إلى البغية ويكون ذلك في الخير، وهذا مجاز عن المعنى السابق فهذا في المعاني وذلك في الحسيّات. ومن هذا الهَدْيُ المنسوب إلى الأنبياء والكتب السماوية. ويقال هداه إلى الإيمان: دلّه عليه وأدخله فيه ووصّله إليه وهذا للهدى المضاف إلى الله سبحانه وأكثر ما يكون ذلك في مقابلة الإضلال[3].

2 ـ والضلال مصدر لضلَّ يَضِلُّ ـ كضرب ـ وكذا الضلالة. يقال ضل الشيء: خفي وغاب، وهذا لازم، والمتعدي ضل الرجلُ الطريق. خفي عليه، فأصل الضلال الغيبوبة، وضل الكافر إذا غاب عن الحجة بعدولهِ عن الطريق المستقيم والمنهج، والضلال: النسيان والضياع. فالأول كما في قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ أي تنسى والثاني كما في قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ أي حائراً. وإضلال الله وهدايته على معنى الجعل هو: وضع جبلة الإنسان على

(1) التسهيل لابن جزي 2/ 13. وانظر القرطبي 17/ 18 وذكر أبو السعود أنها نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمٰن إلى عبادة الأصنام. قال أبو السعود: فتوجيه الأمر إلى رسول الله ﷺ حينئذٍ للإيذان بما بينهما من الاتصال والاتحاد تنويهاً لشأن الصديق رضي الله تعالى عنه.

ولعل ما قاله ابن جزي من أن الآية تمثيل لمن ضل في الدين عن الهدى. هو الصحيح والله تعالى أعلم.

(2) المصباح المنير (هدى) ومعجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 751.

(3) المرجع الأخير، الصفحة نفسها.

أنه إذا راعى طريقاً محموداً كان أو مذموماً أَلِفَهُ ولزِمه وتعذر صرفه وانصرافه عنه ويصير ذلك كالطبع، والعادة طبيعة ثانية وكل شيء يكون سبباً في وقوع فعل تصح نسبة ذلك الفعل إليه فصحّ لذلك نسبة الضلال الناجم عن إلْف الإنسان لعادته السيئة إلى الله الذي جعل فيه تلك الفطرة كما صحَّ نسبة الهداية الناجمة عن إلف الإنسان لعاداته الحميدة إلى الله[1].

التفسير:

قل[*] يا محمد لهؤلاء الكفار الذين يدعون إلى عبادة الأصنام: أنعبد من دون الله حجراً أو خشباً لا يقدر على نفعنا إن عبدناه ولا يقدر على ضرِّنا إن تركنا عبادته أو ندع عبادة الله الذي بيده النفع والضر والحياة والموت؟ أنرجع القهقرى في حياتنا فنُرَد من الإسلام إلى الكفر بعد أن وفقنا الله له؟ فيكون مثلنا مثل الرجل الذي أغوته الشياطين وأضلته حتى لم يهتد للمحجة وجعلته حيران في الأرض له أصحاب يدعونه إلى طريق الهدى، يقولون له: أئتنا فكن معنا على الدين الحق، وهو يأبى ذلك ويتبع داعي الشيطان. قل لهم: إن الهدى هو طريق الله الذي بيّنه وأوضحه لنا في قرآنه المجيد الذي يؤدي المستدل به إلى الصلاح والرشاد في دينه، وهو الذي يجب أن نعمل عليه ونستدل له، فلا نترك ذلك إلى ما تدعون إليه من عبادة الأوثان والأصنام وأمرنا ربُّنا أن نسلم ونخلص له العبادة ونخضع له بالذلة والطاعة فأسلمنا[2].

(1) المرجع السابق 2/ 109 بتصرف يسير، والعادات الحميدة ما كانت حميدة في عرف الشرع لا في حساب المجتمعات وأعرافها. والله بصير بأصالة كل منها وزيفها كما قال تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾.

(*) ويجوز قل أيها الإنسان أو أيها السامع كما في مجمع البيان 7/ 100 وانظر ما تقدم في أسباب النزول.

(2) مجمع البيان 7/ 100 والقرطبي 7/ 17 و19 وم. الطبري 1/ 235.

باب الواو

19 ـ وعد الله للمؤمنين والمؤمنات

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)﴾.

سورة البقرة: 25 وانظر البقرة: 82، 112 218، 277 وآل عمران: 57، 107، 179 والنساء: 57، 122، 146، 152، 162، 173، 175 والمائدة: 9 والأنعام: 42، 43 والأنفال: 4ـ2 والتوبة: 71، 72، 99، ويونس: 2،4،9، 103 وهود: 23، 109 والرعد: 24ـ19، 27ـ 29 وإبراهيم: 23، 27 والإسراء: 9 والكهف: 2،3،30،31، 107 ومريم: 60، 96 وطه: 75، 76، 112 والأنبياء: 94، 103ـ101 والحج: 14، 23، 24، 50، 56، والمؤمنون: 11ـ1، 61ـ57 والنور: 37،51 والفرقان: 24، 76ـ63 والنحل: 2 والقصص: 67 والعنكبوت: 7، 58 والروم: 15، 44، 45 ولقمان: 8 والسجدة: 19ـ15 والأحزاب 23، 24، 35، 43، 47 وسبأ: 4،37 وفاطر: 7، 35ـ32 ويس: 11 والصافات: 49ـ40 والزمر: 17، 18 وغافر: 9ـ7 وفصلت: 8 والشورى: 22،23، 26، 39ـ36 والزخرف: 73ـ68 والجاثية: 30 والأحقاف: 13، 14 ومحمد: 2، 12 والفتح: 4،5،29 والحجرات: 7،15 والطور: 28ـ21 والنجم: 31،32 والرحمن: 76ـ46 والواقعة: 40ـ10، 91ـ88 والحديد: 12، 21 والمجادلة: 22 والتغابن: 9 والطلاق: 10،11 والملك: 8 والحاقة: 24ـ19 والمعارج: 35ـ32 والمدثر: 39 والقيامة: 22،23 والإنسان: 5 وعبس: 38، 39

والمطففين: 34، 35 والانشقاق: 7-9، 25 والبروج: 11 والأعلى: 8-16 والبلد: 17، 18 والشمس: 9 والليل: 5-7 والتين: 6 والبينة: 7، 8 والقارعة: 6، 7 والعصر: 2، 3.

القراءات:

1 ـ قرأ زيد بن علي: وبُشِّرَ مبنياً للمجهول عطفاً على أعدت[1].

2 ـ وقرأ الجماعة (وأُتُوا) بضم الهمزة والتاء وقرأ هارون الأعور والعتكي (أَتَوا) بفتح الهمزة والتاء، فالضمير في القراءة الأولى لأهل الجنة وفي الثانية للخدام[2].

3 ـ قرأ الجمهور: (مُطهَّرة) وقرأ زيد بن علي (مُطهَّرات) وكلاها صفة إلا أن الأولى مبينة على طهُرت كالواحدة المؤنثة، والثانية مبنة على طهرن، قال الزمخشري: وهما لغتان فصيحتان يقال النساء فعلن وهن فاعلات والنساء فعلت وهي فاعلة. والمعنى وجماعة أزواج مطهرة. وقرأ عبيد بن عمير: (مُطَّهِّرَة) وأصله متطهرة فأدغم، وهذه القراءة مناسبة لقراءة الجمهور لأن الفعل مما يحتمل أن يكون مطاوعاً نحو طهرته فتطهر، أي أن الله تعالى طهَّرهن فتطهّرْنَ[3].

التفسير:

تقدم في (العمل الصالح) من الأخلاق الحميدة.

20 ـ وعد المرسلين والمؤمنين بالنصرة ووراثه الأرض

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ

(1) انظر البحر المحيط 1/ 111 والكشاف 1/ 51 وت. أبي السعود 1/ 68.
(2) القرطبي 1/ 240 وانظر البحر المحيط 1/ 115 والكشاف 1/ 53.
(3) البحر المحيط 1/ 117 والكشاف الصفحة السابقة.

ٱلَّذِى ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًاۚ يَعۡبُدُونَنِى لَا يُشۡرِكُونَ بِى شَيۡـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

سورة النور: 55 وانظر آل عمران: 139 والأنعام: 135 والأنبياء: 105، 106 والصافات: 173.171 والقصص: 5 وغافر: 51 ومحمد: 35.

أسباب النزول:

روى الربيع بن أنس عن أبي العالية، قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين بعدما أوحى الله إليه، خائفاً هو وأصحابه يدعون إلى الله سراً وعلانية، ثم أُمر بالهجرة إلى المدينة، وكانوا بها خائفين يصبحون في السلاح ويمسون في السلاح فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: لن تلبثوا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست فيه حديدة وأنزل الله تعالى هذه الآية، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فوضعوا السلاح وأمِنُوا[1].

اللغة:

1 ـ استخلفهم الله في الأرض: جعلهم خلفاء مُتَصَرِّفين فيها بأمره، أو جعلهم خلَفاً من الذين لم يكونوا على حالهم فهم مُسْتَخْلفون[2].

2 ـ مكّنه تمكيناً: ثبته ووطده ويقال مكّن فلاناً في الشيء: جعله متسلطاً عليه يتصرّف فيه وتنطلق يده فيه. تقول: هو ممكّن في الدولة وفي المال. ويقال في هذا أيضاً: مكّن له في الأمر بهذا المعنى. وقوله تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ .....﴾ أي يوطده بإعزاز أهله ونشره وسعة سلطانه[3].

(1) الواحدي ص 247 وانظر ابن كثير 5/ 120 والقرطبي 12/ 297.

(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 354.

(3) المرجع السابق 2/ 616 والتي تليها.

وقد أنجز الله ذلك الوعد وفي ذلك دلالة على نبوة رسول الله ﷺ(1).

القراءات:

1 ـ قراءة العامة (اسْتَخْلَفَ) بفتح التاء واللام، لقوله ﴿وَعَدَ﴾، وقوله ﴿لَيَسْتَخلِفَنَّهم﴾. وقرأ عاصم وشعبة وعيسى بن عمر والمفضل (استُخْلِفَ) بضم التاء وكسر اللام على الفعل المجهول(2). والفاعل الحقيقي هو الله تعالى كالقراءة بالبناء للمعلوم لتقدم ذكره في (وعد الله)(3).

2 ـ وقرأ ابن كثير وعاصم وشعبة ويعقوب والحسن وابن محيصن وسهل (وليُبْدِلنَّهم) بالتخفيف، جعلوه من أبدل وقرأ الباقون بالتشديد جعلوه من (بدّل) وهما لغتان أبدل وبدّل، وفي التشديد معنى التكثير(4).

التفسير:

وعد الله المؤمنين بالله ورسوله، المطيعين لأمره ونهيه ليورثنهم أرض المشركين من العرب والعجم وليجعلنهم ملوكها وساستها كما استخلف بني إسرائيل بالشام حين أهلك الجبابرة وجعلهم ملوكها وسكانها(*)، وليجعلنَّ دين الإسلام الذي ارتضاه لهم راسخاً قوياً

(1) القرطبي 12/ 297 وما بعدها.

(2) المرجع السابق ص 299 وانظر معجم القراءات 4/ 266 والبحر المحيط 6/ 469.

(3) انظر الكشف 2/ 142.

(4) المرجع السابق، الصفحة نفسها وانظر القرطبي 12/ 300 والبحر ومعجم القراءات الصفحة السابقة.

(*) وقد وفى سبحانه بوعده، فإنه لم يمت عليه الصلاة والسلام حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم والمتوقس في مصر والنجاشي في الحبشة: ولما قُبض الرسولُ ﷺ إلى الرفيق الأعلى قام بالأمر من بعده الخلفاء الراشدون فنهجوا بنهجه، وافتتحوا =

ثابت القدم، ويعظم أهله في نفوس أعدائه. وليُغَيِّرَنَّ حالهم من الخوف الذي هم فيه إلى الأمن(*) وذلك في حال(**) عبادتهم لي، غير خائفين أحداً غيري ومن جحد هذه النعم فأولئك هم الفاسقون، الذين خرجوا عن أمر ربهم بإنكارهم فضل المنعم بها، وبتناسبهم جليل خطرها(1).

= كثيراً من المشرق والمغرب، ومزّقوا مُلْكَ الأكاسرة، وملكوا خزائنهم، واستعبدوا أبناء القياصرة. وصف قول رسوله «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ من أمتي ما زوى لي منها». انظر ابن كثير 5/ 120.119 والمراغي 18/ 126.

(*) وقد أنجز الله وعده فأظهر نبيه على جزيرة العرب فأمِنوا ووضعوا السلاح ثم إن الله تعالى قبض نبيه ﷺ، فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا فيه، فأدخل عليهم الخوف فاتخذوا الحجزة والشرط وغيروا فغيّربهم. ابن كثير 5/ 121.

وجاء في تفسير القرطبي 12/ 298: فإن قيل هذا الأمر [يعني الأمن] لا يصح إلا في أبي بكر وحده، فأما عمر وعثمان فقُتلا غيلة، وعليٌّ نُوزع في الخلافة. قلنا: ليس في ضمن الأمن السلامة من الموت بأي وجه كان، وأما عليٌّ فلم يكن نزاله في الحرب مذهباً للأمن، وليس من شرط الأمن رفع الحرب إنما شرطه مِلْك الإنسان لنفسه باختياره، لا كما كان أصحاب النبي ﷺ بمكة.

(**) جملة (يعبدونني) في موضع الحال من مفعول وعد أو من مفعول ليستخلفنهم ويجوز أن تكون استئنافاً على طريق الثناء عليهم. انظر القرطبي 12/ 300 وت. أبي السعود 6/ 191.

(1) م. الطبري 2/ 103 والمراغي 18/ 126 وما بعدها. والقرطبي 12/ 300.297.

باب الياء

21 ـ اليقين والموقنون

قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾.

سورة الذاريات: 20، 21 وانظر البقرة: 4، 118 والمائدة: 50 والأنعام: 75 والرعد: 2 والحجر: 99 والنمل: 3 والسجدة: 24 والدخان: 7 والجاثية: 4/ 20 والحجرات: 15 والواقعة: 95 والتكاثر: 5، 7.

اللغـة:

يَقِنَ الأمرُ يَيْقَنُ يَقَناً: ثبت ووضح والوصف يقين. ويقال اليقين للعلم الذي انتفت عنه الشكوك والشُبَهُ. ويقال: خبرٌ يقين: لا شك فيه. ويقال اليقين للموت لأنه لا يمتري فيه أحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝٩٩﴾. وأيقنُ الأمرَ، وأيقن به: علمه علماً لا شك فيه، والوصف موقن. والإيقان عند الإطلاق هو الإيقان بما يجب الإيمان به في الدين: واستيقن مثل أيقن، والوصف منه مُسْتَيْقِن[1].

وإذا كان العلم نقيض الجهل، فاليقين نقيض الشك، تقول: علمته يقيناً، وفي التنزيل العزيز: «وإنه لحق اليقين» أضاف الحق إلى

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 868 وما بعدها.

اليقين وليس هو من إضافة الشيء إلى نفسه، لأن الحق هو غير اليقين، إنما هو خالصه وأصحه، فجرى مجرى إضافة البعض إلى الكل[1].

القراءات:

قراءة العامة (آيات للموقنين) أي دلائل وحجج على وجود الخالق العظيم وقرأ قتادة (آية للموقنين) على الإفراد[2].

التفسير:

وفي الأرض دلالات بينات وحجج نيرات تدل على وجود الخالق العظيم مقدرته وتدبيره، استبانت لمن فكر وتدبر في هذا الكون وبديع صنعه، مما يشاهد من صفوف النبات والحيوانات والمهاد والجبال، والقفار والبحار إلى نحو ذلك مما بهر المخلوقات، وأداهم ذلك التفكير والتدبر إلى إيقان ما جاءت به الرسل ولم يدخلهم ريب. فالموقنون كلما رأوا آية عرفوا وجه تأويلها فازدادوا إيقاناً، وخصهم بالذكر لأنهم هم الذين يعترفون بذلك، ويتدبرونه فينتفعون به. وفي أنفسكم أيضاً آيات دالات على وحدانيته تعالى، أفلا ترون أنها مصرّفة من حال إلى حال ومنتقلة من صفة إلى أخرى؟ إذ كنتم نطفاً فصرتم أحياء ثم كنتم أطفالاً فصرتم شباباً ثم كهولاً؟ أولا تنظرون في اختلاف ألسنتكم وألوانكم والتفاوت في عقولكم وأفهامكم واختلاف أعضائكم وتعدد وظائف كل منها على وجه يحار فيه اللب ويدهَش منه العقل؟ فهلا دلكم ذلك على أن لها صانعاً صنعها ومدبراً دبرها ومصرّفاً صرّفها على مقتضى الحكمة؟[3].

(1) لسان العرب (يقن).

(2) البحر المحيط 8/ 136.

(3) المرجع السابق، الصفحة نفسها ومجمع البيان 26/ 13 والمراغي 26/ 179 والتي تليها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ب -
الدّينِ

باب الهمزة

1 ـ الإخلاص في الدين

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾.

سورة الزمر: 2، 3 وانظر يونس: 22، 105 والعنكبوت: 65 ولقمان: 32 والزمر: 11، 14 غافر: 14، 65 والبينة: 5.

القراءات:

قرأ الجمهور (الدين) بالنصب، على أنه مفعول به لاسم الفاعل وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع (الدينُ) على أنه فاعل بـ (مخلصاً). وقال الزمخشري: وحق من رفعه أن يقرأ (مخلصاً) بفتح اللام كقوله تعالى ﴿ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ حتى يطابق قوله ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [1].

اللغة:

الإخلاص في الدين أن يقصد العبد بنيته وعمله إلى خالقه لا يجعل ذلك لغرض الدنيا[2].

وانظر (اللغة) في (الإخلاص) من الأخلاق الحميدة.

(1) انظر البحر المحيط 7/ 414 والكشاف 3/ 337. وإذا قرىء (الدين) بالرفع ولم تفتح اللام في (مخلصاً) فيكون (الدين) مبتدأ خبره شبه الجملة المتقدم. انظر ت. أبي السعود 7/ 240.

(2) مجمع البيان 23/ 137 وانظر معاني الدين المختلفة في (إن الدين عند الله الإسلام).

التفسير:

إنا أنزلنا إليك القرآن أيها الرسول أمراً بالحق والعدل، ويجب العمل بما يأمر به. فتوجه بعبادتك إلى الله وحده ممحضاً له العبادة من شوائب الشرك والرياء أو أي غرض من أغراض الدنيا، ألا لله وحده العبادة والطاعة خالصة لا شريك لأحد معه فيها، فكل ما دونه تعالى، ملكه، على المملوك طاعة مالكه. ورأس العبادة أو الطاعة الإخلاص لله العلي القدير[1].

2 ـ إن الدين عند الله الإسلام

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾.

سورة آل عمران: 19 وانظر آل عمران: 83، 85، 102 والنساء: 125 والمائدة: 3 والأنعام: 14، 125، 161، 162 والنمل: 91 والروم: 30 والأحزاب: 35، 48 والزمر: 11، 12، 22 وغافر: 66 وفصلت: 33 والشورى: 13 والجاثية 18، 19 والصف: 9 والجن: 14 والبينة: 5 والنصر: 3.1.

القراءات:

قرأ الجمهور (إن الدين) بكسر الهمزة (إن)، وذلك على الابتداء والاستئناف وقرأ الكسائي وابن عباس ومحمد بن عيسى الأصبهاني والشنيوذي وعبد الله بن مسعود (أن الدين) بفتح الهمزة (أن) على أن الكلام متصل بما قبله، فأبدل أنَّ مما قبلها[2].

---

(1) المراغي 23/ 142 وت. أبي السعود 7/ 240 وم. الطبري 2/ 272 ومجمع البيان الصفحة السابقة.

(2) الكشف عن وجوه القراءات 1/ 338 والبحر المحيط 2/ 47 وما بعدها. وت. أبي السعود 2/ 18 والكشاف 1/ 179 وما بعدها.

وقرأ عامة القراء (الإسلامُ) وقرأ أُبيّ (للإسلام) وهي مقوية لقراءة الجمهور بكسر الهمزة، (إن الدين)[1]. والمعنى أن الدين للتوحيد والتدرع بالشريعة[2].

اللغـــة:

1 ـ تقدّم القول في معنى الإسلام والإيمان انظر الإيمان ـ 14 ـ ونشير هنا إلى أن الإسلام في هذه الآية بمعنى الإيمان والطاعات. وانظر (اللغة والدلالة الخاصة) في حقيقة الإسلام من قسم الدين.

2 ـ والدين بكسر الدال ـ يأتي لمعانٍ: (أ) ـ الطاعة والانقياد لله وعبادته كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البقرة/132]. (ب) ـ الجزاء: كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ [النور/25]. (ج) ـ الشريعة كما في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾ [آل عمران/83]. والمقصود بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ الشريعة والطاعة مع الانقياد لله وعبادته[3]. حسب ما بينه الله لعباده في القرآن الكريم. وفصّله خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام.

التفسير:

إن الدين الذي شرعه الله، وبعث به رسله، والذي لا يقبل هو الإسلام الذي يعني التوحيد والإقرار بما جاء من عند الله تعالى والعمل به. وما اختلف أهل الكتاب من اليهود والنصارى[*] وخرجوا من الإسلام الذي جاء به أنبياؤهم إلا من بعد ما علموا الحق عن يقين

(1) المرجع الأخير ص 180.

(2) ت. أبي السعود 2/ 18.

(3) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 413.

(*) قيل المراد بهذه الآية نصارى نجران وقيل: اليهود واللفظ يعم اليهود والنصارى.

تعدياً من بعضهم على بعض وطلباً للرئاسة والملك والسلطان بنصرهم مذهباً على مذهب وبتضليلهم من خالفهم بتفسيرهم الدين بالرأي والهوى وتأويل بعضه أو تحريفه(*). ولولا ذلك منهم لما حدث هذا الاختلاف ومن يكفر بآيات الله الدالة على وجوب الاعتصام بالدين الذي هو عند الله الإسلام، ووحدته وحرمة الاختلاف والتفرق منه ولا يعمل بمقتضاها فإن الله تعالى يجازيه ويعاقبه على ما اجترح من السيّئات فإنه تعالى سريع الحساب[1].

(*) وقد اختلف أهل الكتاب في نبوة محمد ﷺ، وفي كتبهم بيان صفته ونبوّته. واختلف النصارى في أمر عيسى عليه السلام من كونه عبد الله ورسوله وأن الله إله واحد. انظر القرطبي 4/ 44.

(1) ت. أبي السعود 2/ 18 وم. الطبري 1/ 98 والمراغي 3/ 119 وما بعدها.

باب الباء

3 ـ البيعة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

سورة التوبة: 111 وانظر الفتح: 10، 18 والممتحنة: 12.

أسباب النزول:

تقدم في (الوفي) من أسماء الله تعالى وصفاته المفردة.

اللغـــة:

البيع: مبادلة مال بمال، فيقال: باعه يبيعه بيْعاً، من باب ضرب. وتأتي منه المُفاعَلَة فيقال بايعته أبايعه وقد تبايعنا. ويستعمل ذلك أيضاً في المعاهدة لما فيها من مبادلة الحقوق[1]، وقد ورد ذلك في أربع آيات. يقال بايع السلطان إذا تضمَّن بذل الطاعة له بما رضخ له ويقال لذلك بَيْعة ومُبايَعة[2].

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 139.

(2) المفردات ص 67.

فالمبايعة تكون لمن استقرت له الإمامة وتقلدها إما بعهد أو اختيار وعقد الإمامة لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع[1]. واتفق العلماء على أنه لا يشترط لصحة البيعة مبايعة كل الناس ولا كل أهل الحل والعقد[*]. إنما يشترط مبايعة من تيسّر اجتماعهم من العلماء والرؤساء ووجوه الناس[2].

التفسير:

تقدم في (الوفي) من أسماء الله تعالى وصفاته المفردة.

(1) الأحكام السلطانية للماوردي ص 5 و15.

(*) الإجماع على أن انعقاد الخلافة بعقد أهل الحل والعقد لإنسان حيث لا يكون هناك استخلاف لأحد. انظر موسوعة الإجماع 1/372.

(2) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

باب التاء

4 ـ التعصّب

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

سورة آل عمران: 73 وانظر البقرة: 111 والمائدة: 18، 104 والأعراف: 28 والتوبة: 114 ويونس: 78 وإبراهيم: 10 ولقمان: 21 والزخرف: 22 والفتح: 26.

أسباب النزول:

في هذه الآية عطف على الآية السابقة يتمم المعنى، وقد ورد في أسباب نزول الآية السابقة عن الحسن والسدي: تواطأ اثنا عشر جداً من يهود خيبر وقال بعضهم لبعض ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد واكفروا به في آخر النهار، وقولوا إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذلك وظهر لنا كذبه وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك شكَّ أصحابُه في دينهم وقالوا: إنهم أهل كتاب وهم أعلم به منّا فيرجعون عن دينهم إلى دينكم فأنزل الله تعالى الآية 72 سورة آل عمران. وأخبر نبيه محمداً ﷺ والمؤمنين. وقال مجاهد ومقاتل والكلبي: هذا في شأن القبلة لما صرفت إلى الكعبة شقّ ذلك على اليهود لمخالفتهم، فقال كعب الأشرف

لأصحابه: آمنوا بالله وبما أنزل على محمد ﷺ، من أمر الكعبة وصلوا إليها أول النهار وارجعوا إلى قبلتكم آخره لعلهم يشكون.

اللغــة:

التَّعصُّبُ من العَصَبِيَّة. والعصبية: أن يدعو الرجل إلى نصرة عَصَبته والتألب معهم على مَن يناويهم، ظالمين كانوا أو مظلومين.

وفي الحديث العصبيُّ من يعين قومه على الظلم. فالعصبيُّ هو الذي يغضب لعصبته ويحامي عنهم. والعصبة: الأقارب من جهته الأب لأنهم يُعَصِّبونه ويعتصب بهم أي يحيطون به ويشتدّ بهم[1].

والتعصب العنصري الذميم دحضه القرآن الكريم والسنة الشريفة كما دحض التعصب في المعتقدات الموروثة. لأن الأول مبني على الظنون والأوهام والبعد عن الحق والإغراق في مسار الظلم والثاني يدل على ضيق الأفق ومجانبة الحقيقة والصواب، وجحود الفكر والعقل.

ويذكر تعالى صوراً من ادعاء أحد الأديان الأخرى الذي ينمُّ عن تعصُّب عنصري بغيض - إنهم أبناء الله وشعبه المختار وأن الجنة خاصة بهم فيقول تعالى مفنداً ما ادعوه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [سورة المائدة/ 18] ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة/ 111].

وفي الحديث الشريف: «ليس منا من دعا إلى عصبيّة أو قاتل عصبية»[2].

---

(1) الواحدي 79 ومجمع البيان 3/ 115. وانظر القرطبي 4/ 111 وت. أبي السعود 2/ 49 وروح المعاني 3/ 199 وما بعدها.

(2) لسان العرب (عصب) وانظر النهاية لابن الأثير 3/ 245.

ومما ذكره تعالى من التعصب في المعتقدات الموروثة قوله جل شأنه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة/ 104].

التفسير:

ولا تطمئنوا - يا معشر اليهود - فتظهروا سرّكم وما عندكم من اعتقاد بأنه يجوز أن يبعث نبيٌّ من غير بني إسرائيل، إلا لمن تبع دينكم، فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم - قل لهم يا محمد إن التوفيق توفيق الله والبيان بيانه، فهو تعالى الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتمّ الإيمان بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ؛ من الآيات البينات والدلائل القاطعات والحجج الواضحات، وإن كتمتم أيها اليهود ما بأيديكم من صفة محمد النبي الأمي في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين فكيدكم لا يضر من أراد به الخير بل يحبط تدبيركم له - وبعد هذا الاعتراض يذكر تعالى تتمة ما أوصى اليهود به بعضهم بعضاً تكبراً وعناداً يدلان على مكرهم وخداعهم، فلا تظهروا يا معشر اليهود إيمانكم بأن أحداً يؤتى مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم، بل أسرّوا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين، لئلا يزيدهم بذلك ثباتاً، أو يتخذوه حجة عليكم فتقوم به عليكم الدلالة وترتكب الحجة في الدنيا والآخرة، ودون المشركين لئلا يدعوهم ذلك إلى الإسلام. قل لهم يا محمد إن الرسالة فضل من الله ومِنّةٌ والله واسع العطاء وهو العليم بالمستحق فيعطيه من هو له أهل، وفضله الواسع ورحمته العامة يعطيها بحسب مشيئته، لا كما يزعم أهل الكتاب من قصرها على الشعب المختار من بني إسرائيل، فهو يبعث من يشاء نبياً ويبعثه رسولاً، ومن اختصه بهذا فإنما يختصه

بمزيد فضله وعظيم إحسانه، لا بعمل قومه ولا لنسب شرّفه، فالله لا يحابي أحداً، لا فرداً ولا شعباً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً(1).

5 ـ التوبة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾

سورة النساء: 17 و18 وانظر البقرة: 37، 54، 160، 222، وآل عمران: 89 والنساء: 16، 26، 92، 146 والمائدة: 34، 39، 40، 74 والأنعام: 54 والأعراف: 153 والتوبة: 3، 5، 11، 15، 27، 102، 103، 104، 106، 112، 118 وهود: 3، 90 والنحل: 119 والإسراء: 25 ومريم: 60 وطه: 82، 122 والنور: 5، 31 والفرقان: 70، 71 والقصص: 67 والزمر: 54 وغافر: 3 والشورى: 25 والتحريم: 4، 8، والبروج: 10 والنصر: 110.

اللغة:

تاب وتاب إلى الله يتوب، من باب (قال) تُوباً وتَوْبَةً ومتاباً: رجع عن المعصية، فهو تائب وهي تائبة وهم تائبون وهن تائبات(2).

والتوبة في الشرع ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه والعزيمة على ترك المعاودة وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال

(1) انظر المرجعين السابقين، الصفحة ذاتها.

(2) ابن كثير 2/ 57 والكشاف 1/ 195 وم. الطبري 1/ 110 والمراغي 3/ 186. وهذه الآية أشكل ما في سورة البقرة كما ذكر كثير من المفسرين وقد أوردوا أوجهاً لتفسيرها. . . انظر القرطبي 4/ 112 وما بعدها ومجمع البيان 3/ 116 والتي تليها والتسهيل 1/ 110 والكشاف 1/ 195 والبحر المحيط 2/ 494 وما بعدهما وت. أبي السعود 2/ 49 وروح المعاني 3/ 200 وفتح القدير 2/ 351.

بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كَمُلَ شرائطُ التوبة[1].

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: التوبة النصوح أن يندم العبد على الذنب الذي أصابه، فيعتذر إلى الله ثم لا يعود أبداً كما لا يعود اللبن إلى الضرع، وهكذا روي عن عمر وابن مسعود وأبيّ بن كعب والحسن وغيرهم[2].

وتاب الله عليه: عاد بالمغفرة عليه أو رجع عليه بفضله وقَبِلَ تَوبَتَهُ وغفر له، فالله توّاب، وفي التوبة معنى الرجوع: العبد يرجع عن ذنبه والله يرجع برحمته وغفرانه[3].

التفسير:

إن التوبة التي أوجب الله على نفسه قبولها بوعده الذي هو أثر كرمه وفضله ليست إلا لمن يجترح السيئة(*) بجهالة تلابس نفسه من سورة غضب أو تغلب شهوة، وهو مؤمن بالله، ثم لا يلبث أن يندم على ما فرط منه وينيب إلى ربه ويتوب ويقلع عن ذنبه. فأولئك الذين فعلوا الذنوب بجهالة وتابوا بعد قريب(**) من الزمن، يتقبل الله

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 162.

(2) المفردات ص 76. ويُنظر إن كانت المعصية في خالص حق الله كفى فيها الندم كما في الفرار من الزحف وترك الأمر بالمعروف، وإن تعلقت بحقوق العباد لزم من الندم العزم على إيصال حق العبد أو بدله إليه إن كان الذنب ظلماً كما في النصب والقتل العمد، والاعتذار إليه إن كان إيذاء كما في الغيبة إذا بلغته، ولا يلزم تفصيل ما اغتابه به إلا إذا بلغه على وجه أفحش. المراغي 28/ 162 وانظر القرطبي 18/ 199 و4/ 13، وما بعدها.

(3) انظر المرجعين السابقين ومجمع البيان 28/ 127.

(*) قوله تعالى ﴿يعملون السوء بجهالة﴾ فالسوء هي المعصية صغيرة كانت أو كبيرة فالسوء يعم الكفر والمعاصي فكل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته انظر ت. أبي السعود 2/ 156 و القرطبي 2/ 92.

(**) روي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر» وقد أخذ الحسن البصري بحرفيه هذا الحديث وقال الضحاك ما كان دون الموت فهو قريب وقال قتادة والسدي ما دام في صحته، وهو مروي عن ابن عباس وقال عكرمة: الدنيا كلها =

توبتهم لأن الذنوب لم ترسخ في نفوسهم ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون. وكان الله عليماً بمصالح العباد حكيماً فيما يعاملهم به، فهو جل شأنه يعلم ضعف عبادة وأنهم لا يسلمون من عمل السوء، فلو لم يشرع لهم التوبة لهلكوا باسترسالهم في المعاصي والسيئات، أما وقد شرع لهم بحكمته قبول التوبة فقد فتح لهم باب الفضيلة وهداهم إلى محو السيئة بالحسنة الخالصة. وليست التوبة المقبولة عند الله للذين يعملون السيئات منهمكين فيها. . . حتى إذا خرج أحدهم بنفسه وعاين ملائكة ربه أقبلت لقبض روحه تاب وأناب، فليس لهذا عند الله توبة، لأن التوبة في ذلك الوقت لا تنفع لأنها جرت في حال زوال التكليف. فالتوبة لا تقبل لهؤلاء ولا إلى الذين يموتون على الكفر كما كان فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق فلم ينفعه ما أظهر من الإيمان. وقد سوّى الله بين الذين سوّفوا توبتهم إلى أن حضر الموت وبين الذين ماتوا على الكفر مع أنه لا توبة لهؤلاء الكفار رأساً مبالغة في بيان عدم قبول توبة المسوّفين وإيذاناً بأن وجودها لعدمها فكما أن المائت على الكفر قد فاتته التوبة على اليقين، كذلك المسوّف إلى حضرة الموت، فكل منهما قد جاوز الحد المضروب

= قريب ونرى أن ما يوافق هدي الدين الحنيف ما ذكره القرطبي من أن المعنى يتوبون على قرب عن من الذنب من غير إصرار. وإلى هذا المعنى أشار قوله تعالى «وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى» وقوله «فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك» فالمراد من الحديث النبوي السالف الذكر أنه لا ينبغي لأحد أن يقنط من رحمة الله وييئس من قبول التوبة ما دام حياً، وليس معناه أنه لا خوف على العبد من التمادي من الذنوب إذا هو تاب قبل الموت بساعة بل الخوف كل الخوف عليه من ذلك التأوي والتسويف قال تعالى: ﴿فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ أي حافظ على الإسلام لله ولا تفارقوه لحظة فربما تأتي المنية وأنتم على غير الدين الذي ارتضاه الله واصطفاه لعباده، فعلى المرء أن يبادر بالرجوع إلى الله ويعتصم بحبل الله، خيفة أن تعاجله المنية وهو على غير هدى. فالمرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه. هذا والتوبة فرض على المؤمنين لقوله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون﴾ وكفى بهذا بياناً.
وانظر: ابن كثير 223 والقرطبي 5/ 90 و92 و93 والمراغي 4/ 218.

للتوبة إذ هي لا تكون إلا عند التكليف والاختيار. فهذان الفريقان اللذان استبعدهما سلطان الشهوة وخرجا على سنة الفطرة وهداية الشريعة أعددنا لهم العذاب الموجع في الدار الآخرة جزاء وفاقاً لما اكتسبت أيديهم من السيئات مع إصرارهم عليها حتى الممات[1].

(1) المراغي 4/ 207 ـ 211 وت. أبي السعود 2/ 157.155 وم. الطبري 1/ 145.144. والقرطبي 5/ 93.90.

باب الجيم

6 ـ الجاهلية

قال الله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

سورة المائدة: 50 وانظر آل عمران: 154 والأنعام: 28، 140،136 والأحزاب: 33 والفتح: 6.

أسباب النزول:

أسباب نزول هذه الآية والتي قبلها واحدة فقد رُوي عن ابن عباس أن جماعة من اليهود منهم كعب بن أسيد(*) وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد، عليه الصلاة والسلام، لعلنا نفتنه عن دينه فأتوه فقالوا يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم وأنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود ولن يخالفونا، وإن بيننا وبين قوم خصومة ونحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدقك فأبى ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ إلى قوله ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(1). وقال الزمخشري «أفحكم الله يبغون» فيه وجهان:

(*) في القرطبي وابن كثير، أسد.

(1) الواحدي ص 147 وابن كثير 2/ 589 والقرطبي 6/ 213 والكشاف 1/ 343.

أحدهما أن قريظة والنضير طلبوا إلى الرسول ﷺ أن يحكم بينهما بما كان يحكم به أهل الجاهلية من التفاضل بين القتلى فقال لهم: القتلى سواء (سواء). فقال بنو النضير نحن لا نرضى بذلك فنزلت. والثاني أن يكون تعبيراً لليهود بأنهم أهل كتاب وعلم وهم يبغون حكم الملة الجاهلية التي هي هوى وجهل لا تصدر عن كتاب ولا ترجع إلى وحي من الله تعالى[1].

القراءات:

قرأ الجماعة (أفحكمَ) بفتح الميم على أنه مفعول به مقدم ليبنون وقرأ ابن وثاب والنخعيّ (أفحكمُ) بالرفع على معنى ينعونه. فهو مبتدأ وخبره يبغون فحذف الهاء. ويجوز أن يكون التقدير: أفحكمُ الجاهلية حكم يبغونه، فحذف الموصوف. وقرأ الحسن وقتادة والأعرج والأعمش «أفحكُمَ» بنصب الحاء والكاف وفتح الميم، وهي راجعة إلى معنى قراءة الجماعة إذ ليس المراد نفس الحكم وإنما المراد الحُكم؛ فكأنه قال أفحُكم حَكَمَ الجاهلية يبغون. وقد يكون الحَكَمُ والحاكم في اللغة واحداً وكأنهم يريدون الكاهن وما أشبهه من حكام الجاهلية، فيكون المراد بالحكم الشيوع والجنس إذا لا يراد به حاكم بعينه وجاز وقوع المضاف جنساً[2].

وقرأ قتادة (أبحكم)[3]. وقرأ الجماعة (يبغون) بالياء وقرأ ابن عامر (تبغون) بالتاء. فالأول مردود على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝٤٩﴾ وعلى قوله: ﴿أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ

(1) الكشاف الصفحة السابقة.

(2) القرطبي 6/ 215 والتي تليها وأضاف في البحر المحيط 3/ 505 إلى القراء بالرفع السلمي وأبا رجاء والأعرج. وانظر الكشاف 1/ 343.

(3) معجم القراءات 2/ 216.

﴿ذُنُوبِهِمْ﴾ والثانية على الخطاب على معنى قل لهم يا محمد أفحكم الجاهلية تبغون[1].

اللغـــة:

جَهِلَ يَجْهَل جُهْلاً وجَهالةً فهو جاهل وجهول. والجَهْلُ: الخلوُّ من المعرفة، والطيش والسَّفه. والجاهلية هي الحالة التي تكون عليها الأمة قبل أن يجيئها الهدى والنبوة[2] ولعل أكثر ما امتازت به الجاهلية من معنى الجهل هو الطيش والسفه، وهذا ما أدى بالعرب إلى إظهار التعصب أو حمية الجاهلية كما قال تعالى وهي حميّة في غير موضعها لا يؤيدها دليل ولا برهان في كل منحى تدخله من مناحي الحياة، مما يعود على المجتمع بأسوأ العواقب الوخيمة. فتصده عن الحق والتقدم وتشيع فيه الظلم والهرج فلا يجد بعدها إلى النهوض سبيلاً.

التفسير:

ينكرُ الله تعالى على اليهود وأشياعهم من العرب ما يفعلونه من العدول عمّا أنزل الله إلى حكم عبده الأوثنان المبني على الهوى والجهلِ ويوبخهم على ذلك فيقول جل شأنه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي أيتولون عن حكمك بما أنزل الله فيبغونه حكم الجاهلية المبني على التحيز والهوى لجانب دون آخر وترجيح القوي على الضعيف؟! وينكر تعالى أن يكون أحد حكمه أحسن من حكمه عز وجل أو مساوٍ له فيقول ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ أي لا أحد أحسن حكماً من حكم الله لقوم يوقنون بدينه ويذعنون لشرعه، فإنهم الذين يتدبرون الأمور بأنظارهم فيعلمون يقيناً أن حكم الله عز وجل أحسن الأحكام وأعدلها، لأنه حكم جامع بين منتهى العدل والحق من

(1) الكشف عن وجوه القراءات وانظر القرطبي والبحر المحيط والكشاف الصفحات السابقة.

(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 219 و220.

الحاكم والقبول والإذعان من المحكوم له والمحكوم عليه، وبذلك يستقيم أمر الخلق[1].

7 ـ الجدال في الدين

قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

سورة النحل: 125 والإسراء: 54 والعنكبوت: 46 والزخرف: 57، 58، 59.

اللغـــة:

جَادَلَ مُجادلةً وجِدالاً: خاصَمَ[2]، فالجدال المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة. وأصلُه من جَدَلْتُ الحبل أي أحكمت فَتْلَهُ، ومنه الجدال، فكأن المتجادِلَيْن يفتل كل واحد الآخر عن رأيه. وقيل الأصل في الجدال الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة وهي الأرض الصلبة[3].

وقد يكون الجدال (بالباطل ليصرف من الحق، وقد يكون بالحق ليدحض الباطل. فمن الأول قوله تعالى: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾. [الأعراف/ 71]. ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل/ 125][4].

التفسير:

ادع أيها الرسول من أرسلك إليهم ربك إلى الإسلام، شريعة الله

(1) ت. أبي السعود 3/ 47 والمراغي 6/ 133.
(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 185.
(3) المفردات 89 والتي تليها.
(4) معجم ألفاظ القرآن الكريم، الصفحة السابقة.

التي شرعها لخلقه، بالمقالة المحكمة الصحيحة وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة وبالخطابات المقنعة والعبر النافعة التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها. فالدعوة بالحكمة لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق والدعوة بالموعظة الحسنة لدعوة عوامهم. ويجوز أن يكون المراد بهما القرآن المجيد فإنه جامع لكلا الوصفين. وناظر معانيهم بالطريقة التي هي أحسن من غيرها بأن تصفح عمّن آذاك، وترفَّق بهم بحسن الخطاب لتلين عريكتهم وتزول شكيمتهم وذلك كما أمر تعالى موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون ﴿فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾. فاسلك في الدعوة والمناظرة الطريقة المثلى وهي الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالرفق واللين، وليس عليك غيرها. أما الهداية والضلال والمجازاة عليهما فإلى الله سبحانه لا إلى غيره، إذ هو أعلم بحال من لا يرعوي عن الضلال لسوء اختياره وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء، لما ينطوي بين جنبيه من الخير، فما شرعه الله لك في الدعوة هو الذي تقتضيه الحكمة، وهو كاف في هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين[1].

قال أبو السعود: وإيراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث لما أنه تغيير لفطرة الله التي فطر الناس عليها وإعراض عن الدعوة، وذلك أمر عارض بخلاف الاهتداء الذي هو عبارة عن الثبات على الفطرة والجريان على موجب الدعوة ولذلك جيء به على صيغة الاسم المنبىء عن الثبات[2].

(1) الكشاف 2/ 349 وت. أبي السعود 5/ 151 وروح المعاني 14/ 254 والمراغي 14/ 1601.

(2) تفسير أبي السعود الصفحة السابقة.

باب الحاء

8 - حقيقة الإسلام

قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

سورة البقرة: 112 وانظر البقرة: 128، 131، 135، 208، 221 وآل عمران: 20، 67، 85، 118 والنساء: 125 والمائدة: 44 والتوبة: 74 والنحل: 81 والأنبياء: 92، 93 والحج: 78 والمؤمنون: 52 ولقمان: 22 والأحزاب 56 والزمر: 54 وفصلت: 33 والفتح: 16 والحجرات: 14، 17 والصف: 7، 9، والجن: 14 والبينة: 5 والنصر: 1-3.

اللغة والدلالة الخاصة:

الإسلام في اللغة من مادة (سلم) وإذا تتبعنا هذه المادة رأيناها تأتي بهذه المعاني:

أولاً: معنى الخلوص والتعرّي من الآفات الظاهرة والباطنة.

ثانياً: معنى الصلح والأمان.

ثالثاً: معنى الطاعة والإذعان.

وأما المعنى الشرعي للإسلام(*) فهو توحيد الله والانقياد

(*) لم تكن تسمية الدين الذي جاء به محمد ﷺ بالإسلام عن اجتهاد من الرسول محمد وإنما كانت من الله تعالى ﴿ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ [المائدة: / 3] روح الدين الإسلامي ص 13.

والخضوع وإخلاص الضمير له، والإيمان بالأصول الدينية التي جاءت من عند الله. ولفظ (أسلم) بمعنى خضع وانقاد لله أطلقه القرآن أحياناً على المؤمنين والكافرين جميعاً لأنهم خاضعون لله ومنقادون له بحكم خلقتهم رضوا أم كرهوا تسري عليهم قوانين العالم. قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران: 83]. ثم قصرت في الاستعمال على من أسلم وجهه لله طوعاً، فكأن المسلم هو الذي رضي بإطاعة الله فاجتمعت فيه الطاعة الطبيعية والطاعة بالإرداة. ولهذا تطلق كلمة مسلم في القرآن الكريم على كل من خضع لله وأطاع أي نبي من الأنبياء(*)

ومما لا ريب فيه أن حقيقة الإسلام تتجلى بالدعوة إلى وحدانية الله تعالى الذي لم يرسل رسولاً إلا بهذه الدعوة قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: 25]. ولهذا أمر سبحانه وتعالى رسوله محمداً بدعوة النصارى واليهود إلى الوحدانية الخالصة: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: 64].

فهذه هي حقيقة الإسلام التي تنص على أن الدين واحد في أصوله ولكن الأديان تختلف في تشريعاتها لاختلاف أحوال الأمم الاجتماعية ودرجة استعدادها العقلي. ولقد اختتم الله الأديان بالدين الإسلامي. وأعطى محمداً شريعة تنسخ ما قبلها من الشرائع مظهراً فيها كنه الدين الحق. وهي الشريعة المقبولة عند الله ولا يقبل غيرها

(*) كما في قوله تعالى: ﴿قال الحواريون: نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾ [آل عمران: 52]. وكما في قوله تعالى يخبرنا عن مخاطبة موسى لقومه: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ [يونس/ 84].

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران: 85][1].

التفسير:

تقدم في (الإحسان وجزاء المحسنين) من موضوع الأخلاق الحميدة.

(1) المرجع السابق ص 17.13 باختصار وتصرف يسير وانظر التفسير في أن الدين عند الله الإسلام في هذا القسم وانظر اللغة في قسم الإيمان ـ 14 ..

بابُ الدّال

9 ـ الدعوة إلى الدين

قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

سورة النحل: 125.

اللغة والمعنى الخاص:

دعاه إلى الشيء وللشيء: حثّه عليه. ودعاه إلى الله: أي إلى عبادته[1]. كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: 108].

وأساس الدعوة العلم والعمل. قال ابن كثير: «وليس هو (أي الداعي إلى الله) من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى، فهو نفسه ممتد بما يقوله فنفعه لنفسه ولغيره. ورسول الله ﷺ هو المثل الكامل في ذلك[2].

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 392 وتقدم المراد بالدين في أن الدين عند الله الإسلام. الدين ـ 2 ـ.

(2) انظر ابن كثير 6/ 176.

وسبيل الدعوة الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالرفق واللين وحسن الخطاب. وذلك حسب مقتضى الحال، فالحكمة لمن يطلب الحقائق والموعظة الحسنة لعوام الأمة. المجادلة بالتي هي أحسن للمعاندين[1] وليس على الداعي غير ذلك، فالنتيجة من الهداية والضلال بعد الدعوة علمها عند الله ومردّها إليه، فهو أعلم بأحوال عباده[1].

التفسير:

تقدم في (الجدال في الدين). الدين - 7 -.

10 - دين الحق

قال الله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

سورة البقرة: 132 وانظر الأنعام: 161 والأعراف: 29 والتوبة: 29، 33، 36 ويوسف: 40 والروم: 30، 43 والفتح: 28 والصف: 9 والبينة: 5.

القراءات:

1 - قرأ نافع وابن عامر (وأوصى) والباقون (ووصّى) وهي لغتان لقريش وغيرهم بمعنىً، إلا أن في (وصّى) معنى التكثير. وفي مصحف عثمان (وأوصى) وهي قراءة أهل الشام والمدينة وفي مصحف عبد الله بن مسعود (ووصى).

2 - وقرأ الجمهور (يعقوبُ) بالرفع، وقرأ اسماعيل بن عبد الله المكي والضرير وعمرو بن فائد الأسواري (يعقوب) بالنصب. وقراءة

(1) انظر ت. أبي السعود 5/ 151 وروح المعاني 14/ 254. وقد تقدم تفصيل ذلك في تفسير الآية 125 من سورة النحل في (الجدال في الدين) في هذا القسم - 7 -.

الرفع تحتمل وجهين أحدهما أن يكون معطوفاً على إبراهيم ويكون داخلاً في حكم توصية بنيه أي ووصى يعقوب بنيه. وثانيهما أن يكون مرفوعاً على الابتداء وخبره محذوف تقديره قال يا بني إن الله اصطفى. والأول أظهر. وأما قراءة النصب فيكون معطوفاً على (بنيه) ومعناه ووصى بها إبراهيم نبيه ونافلته يعقوب وهو ابن ابنه اسحاق.

3 ـ يا بني. من قرأ (ويعقوب) بالنصب كان يا بني من مقولات إبراهيم ومن رفع على العطف فالنداء من مقولات إبراهيم أيضاً ومن قرأ بالرفع على الابتداء فالنداء من كلام يعقوب. وإذا جعلنا من كلام إبراهيم فعند البصريين هو على إضمار القول. وعند الكوفيين لا يحتاج إلى ذلك لأن الوصية في معنى القول فكأنه قال: قال إبراهيم لبنيه يا بني. وقرأ أبيّ وعبد الله والضحاك أن يا بني) فأن تفسيرية وليست مصدرية لأنه لا يمكن انسباك مصدر منها ومما بعدها. وعدها الكوفيون زائدة. قال الفراء: ألغيت (أنْ) لأنَّ التوصية كالقول، وكل كلام يرجع إلى القول جاز فيه دخول أن وجاز فيه إلغاؤها.

4 ـ إن الله. كسرت همزة (إن) لأن أوصى وقال واحد. وقيل على إضمار القول[1].

اللغة والدلالة:

دين الحق: إن المعنى العام للحق لا يخلو من معنى الثبوت والمطابقة للواقع. فالحق: هو الله لأنه هو الموجود الثابت لذاته. والحق كتب الله وما فيها من العقائد والشرائع والحقائق. والحق هو البيِّن الواضح والتام الكامل[2]. فدين[3] الحق. هو الدين الذي

(1) انظر ما تقدم من وجوه القراءات في البحر 1/ 398 و399 والقرطبي 2/ 135 وما بعدها والكشاف 1/ 95.

(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 277.

(3) تقدم معنى الدين انظر (اللغة) في (إن الدين عند الله الإسلام).

ارتضاه الله تعالى لعباده وهو الدين الإسلامي الذي اختتم الله به الأديان التي تدعو جميعها إلى توحيد الله والانقياد والخضوع له ظاهراً وباطناً وإنما تختلف في تشريعاتها، فكانت شريعة الدين الإسلامي ناسخة لما قبلها من الشرائع، فهو دين الحق لأنّ شريعته على أكمل وجه وهي المقبولة وحدها عند الله، ارتضاها لعباده ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]. ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 85][1].

التفسير:

ووصّى بهذه الملّة التي ذكرت في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ وهي الإسلام بمعنى إخلاص العبادة والتوحيد لله وخضوع القلب والجوارح له، وصى بها إبراهيم أبناءه وكذلك وصّى بها يعقوب من بعده أبناءه أيضاً، قائلين لهم: إن الله اختار لكم دين الإسلام الذي لا يتقبل سبحانه وتعالى من عباده سواه. فحافظوا على الإسلام لله ولا تفارقوه برحمة واحدة، ليرزقكم الله الوفاة عليه، فربما تأتيكم مناياكم وأنتم على غير الدين الذي اصطفاه لكم ربكم، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وفق له ويسّر عليه(*)، ومن نوى صالحاً ثبت عليه. فاستمسكوا بالإسلام ولا تفارقوا هذه

(1) انظر ما تقدم في (حقيقة الإسلام).

(*) هذا القول لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ويعمل أهل النار فيما يبدو للناس. وقد قال تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾. فعلى هذا أجرى تعالى عادته كما ذكرنا. انظر ابن كثير 1/326 وما بعدها.

الملة أيام حياتكم حتى تموتوا عليه، فالمرء مهدد في كل آن بالموت ولا يدري متى تأتيه منيته[1].

11 ـ الدين لله

قال الله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾.

سورة البقرة: 193 وانظر آل عمران: 19، 83 والأنعام: 162 والأنفال: 39 والتوبة: 122 والنور: 2 والروم: 30 والزمر: 3 والنصر: 2.

التفسير:

يبين تعالى الغاية من القتال فيقول جل شأنه: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أي وقاتلوا المشركين حتى لا تكون لهم قوّة يفتنونكم بها في دينكم، ويؤذونكم في سبيله، ويمنعونكم من إظهاره والدعوة إليه، وبذلك لا يبقى شرك. وهذا أمر بالقتال لكل مشرك في كل موضع، وهو أمر بقتالٍ مطلق لا بشرط أن يبدأ الكفار ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿**ويكون الدين لله**﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام: «أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» فسبب القتال هو الكفر والغاية عدم الكفر. ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي يخلص التوحيد لله، فتكون العبادة والطاعة لله وحده لا أثر لخشية أحد غير الله تعالى فيه، فلا يُفتن المرء بصدّه عن دين الله ولا يؤذى فيه، ولا يحتاج فيه إلى مداهنة ومحاباة أو استخفاء ومداراة. فإن انتهوا عمّا كانوا عليه من الشرك وقتال المؤمنين ـ وذلك بالإسلام(*) أو بأداء الجزية في حق

(1) المراغي 1/ 320 وم. الطبري 1/ 45 وابن كثير 1/ 326 وفتح القدير 1/ 144 والتي تليها.

(*) هذا الحكم كان خاصاً بمشركي العرب في عهد الرسول ﷺ وأما غيرهم من مشركي الأمم الأخرى فيدعون إلى الإسلام فإن أبوا وخلوا الدعوة تسير في سبيل التبليغ فلا قتال ولا إكراه وإن حالوا بين الناس ودعوتهم إلى دين الله فيقاتلون.

أهل الكتاب. فكفوا عنهم ولا تعتدوا(*) عليهم، لأن العقوبة والعدوان إنما تكون على الظالمين المشركين بالله تأديباً لهم ليرجعوا عن ظلمهم وغيّهم[1].

(*) تسمية الجزاء بالعدوان للمشاكلة كما في قوله تعالى: ﴿فإن اعتدوا عليكم فاعتدوا عليهم﴾ وكقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ انظر الكشاف 1/ 119 وت. أبي السعود 1/ 204 والقرطبي 2/ 354.

(1) المراغي 2/ 90 و91 والقرطبي 2/ 353 وما بعدها. وفتح القدير 1/ 192 وابن كثير 1/ 402 وم. الطبري 1/ 61.

بابُ الشّين

12 ـ الشفاعـة

قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

سورة البقرة: 48 وانظر البقرة: 123 ،254، 255 والنساء: 85 والأنعام: 51، 70، 94 والأعراف: 53 ويونس: 3، 18 ومريم: 87 وطه: 109 والأنبياء: والشعراء: 100، والسجدة: 4، وسبأ: 23، ويس: 23، والزمر: 43، 44 وغافر: 18 والزخرف: 86 والنجم: 26 والمدثر: 48 والنبأ: 38 والانفطار: 19 والفجر: 3.

القراءات:

1 ـ قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ولا تقبل) بالتاء وهو القياس والأكثر لأن الشفاعة مؤنثة. وقرأ الباقون بالياء على التذكير لأنها بمعنى الشفيع. وهذا الوجه جائز فصيح لمجاز التأنيث وحَسَّنَهُ أيضاً الفصل بين الفعل ومرفوعه[1].

2 ـ وقرأ سفيان (ولا يَقبَل) بفتح الياء ونصب (شفاعةً) على البناء للفاعل، وفي ذلك التفات وخروج من ضمير المتكلم إلى ضمير

(1) القرطبي 1/ 380 والبحر المحيط 1/ 190.

الغائب وبناؤه للمفعول أبلغ لأنه في اللفظ أعم، وإن كان يعلم أن الذي لا يقبل هو الله تعالى[1].

اللغة:

تقدم الحديث عن الشفاعة في (له الشفاعة) في القسم الثالث من (الله تبارك وتعالى).

التفسير:

لما ذكر تعالى بني إسرائيل بنعمه عطف على ذلك التحذير من طول نقمه يوم القيامة، فقال «اتقوا يوماً» أي وأخشوا يوماً شديد الهول هو يوم الحساب الذي لا تغني فيه نفسٌ عن نفسٍ، ولا تَقْضي عنها شيئاً لزمها لغيرها، لأن القضاء هناك من الحسنات والسيئات لما ورد في الحديث الذي أخرجه الترمذي «رحم الله عبداً كانت عنده لأخيه مظلمة في عرض أو مال أو جاه، فاستحله قبل أن يؤخذ منه وليس له ثمّ دينار ولا درهم، فإن كانت له حسنات أخذوا من حسناته، وإن لم تكن له حسنات حملوا عليه من سيئاتهم. ولا يقبلُ الله منها شفاعة شافع إذا جاءت بها وهذا لمن لم يتب ومات على كفره بالله ورسوله، لقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ ولقوله جل شأنه عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾. ولحديث رسول الله ﷺ الذي ورد في الصحيحين: «لكل نبي دعوة مستجابة، وقد تعجل كل نبي دعوته وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وهي نائلة إن شاء الله منهم من لا يشرك بالله شيئاً». ولا يقبل منها فداء ولو بملء الأرض ذهباً، ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، فلا ناصر لهم من أنفسهم ولا من غيرهم، فقد بطلت في ذلك اليوم

(1) المرجع الأخير، الصفحة نفسها وانظر مجمع البيان 1/ 227.

المحاباة واضمحلت الشفاعات وارتفع التناصر وصار الحكم إلى العدل الجبار الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء[1].

(1) ابن كثير 1/ 155 وما بعدها. وم. الطبري 1/ 23.

بابُ الصَّاد

13 ـ الصراط المستقيم

قال الله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝ ﴾

سورة الفاتحة: 6، 7 وانظر البقرة: 142، 213 وآل عمران: 51، 101 والنساء: 68، 175 والمائدة: 16 والأنعام: 39، 87، 126، 153 161 والأعراف: 16 ويونس: 25 وهود: 56 والحجر: 41 والنحل: 76، 121 ومريم: 36 والحج: 54 والمؤمنون: 73 والنور: 46 ويس: 4، 61 والصافات: 118 والشورى: 52 والزخرف: 43، 61، 63 والفتح: 2، 20 والملك: 22.

القراءات:

الصراط تقدمت القراءات وحججها في (الأدعية) من موضوع (العبادة).

اللغـة:

الصراط لغة في السراط، قلبت السين مع الطاء صاداً لقرب مخارجها وفي الصحاح الصراط والسراط والزراط: الطريق[1]. ولعلها معربة كما قال القدماء عن الرومية مباشرة أو بواسطة انتقال بين عدة

(1) لسان العرب والصحاح (صرط).

لغات انتهت منها إلى العربية[1]. قال ابن عطية: وهذا ضعيف جداً أي إن الصراط هو الطريق بلغة الروم[2].

والصراط من السبيل ولا التواء فيه ولا اعوجاج، وقد يقال إنه لا يكاد يراد به الخيرإلا مقترناً بوصف أو إضافة تخلصه لذلك كما في القرآن ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾. ولقد يرجح هذا ما في القرآن: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾. فهو للخير والشر جميعاً وتخصصه الصفةُ أو الإضافةُ وعلى ما في القرآن الكريم حيث ورد بضعاً وأربعين مرة كان موصوفاً أو مضافاً في جمهرتها ولم يرد بغير وصف أو إضافة إلا مرتين فقط في سورة المؤمنين/ 74 والأعراف/ 86[3].

ولا ريب أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ويكون بالمتابعة لله تعالى ولرسوله الكريم صلوات الله تعالى عليه وسلامه وهذا ما يتحقق بالإسلام الكامل ظاهراً وباطناً. وقد بين تعالى هذا الطريق ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ....﴾ أي طريق من أنعم تعالى عليهم بطاعته وعبادته من الملائكة والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين فمن وفق لما وفق إليه هؤلاء البررة فقد وُفق للإسلام وتصديق الرسل والتمسك بالكتاب والعمل بما أمره الله والانزجار عما زجر عنه واتباع منهاج النبي ﷺ ومنهاج الخلفاء الأربعة وكل عبد صالح. وهذا كله من الصراط المستقيم[4] الذي يوصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة. وقد سمي هذا صراطاً مستقيماً تشبيهاً له بالطريق الحسي إذ كل منهما موصل إلى غاية، فهذا سير معنوي يوصل إلى غاية يقصدها الإنسان، وهي مرضاة الله تعالى،

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 63.
(2) القرطبي 1/ 148.
(3) معجم ألفاظ القرآن الكريم، الصفحة السابقة.
(4) ابن كثير 1/ 49 و51.

وذاك سير حسّي يصل به إلى غاية أخرى[1].

التفسير:

تقدم في (الأدعية) من موضوع (العبادة)

(1) المراغي 1/36.

باب الغين

14 ـ الغلو في الدين

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾﴾.

سورة النساء: 171 وانظر المائدة: 77.

اللغـــة:

الغُلُوُّ تجاوزُ الحدِّ، يقال ذلك إذا كان في السعر غَلاءً. غلا السعرُ يغلو غَلاءً. وإذا كان في القدر والمنزلة غُلُوٌّ، فهو من باب سما وفي السهم غَلْوٌ، يقال غلا بالسهم رمى به أبعد ما يقدر عليه. وبابه عدا. وفي كلٍ تجاوز الحد، كما تجاوز أهل الكتاب من المسيحيين الحد في تعظيم عيسى عليها السلام وتقديسه فقالوا هو ابن الله! تعالى الله عما يقوله هؤلاء علواً كبيراً وبرىء المسيح عليه السلام مما قالوا فيه[1]. والغلو في الدين حرام[2].

(1) المفردات 364 وما بعدها ومختار الصحاح (غ ل ي).

(2) تفسير البغوي 1/502.

التفسير:

يا معشر النصارى لا تتجاوزوا الحدود التي حدّها الله فإن الزيادة في الدين كالنقص فيه، ولا تعتقدوا إلا القول الحق الثابت بنص ديني متواتر أو برهان عقلي قاطع، وليس لكم على ما زعمتم من دعوى الاتحاد والحلول واتخاذ الصاحبة والولد شيء منها. ما المسيح ابن مريم إلا رسول الله إلى بني إسرائيل وقد أمرهم أن يعبدوا الله وحده لا شريك له وحثهم على التقوى وليس ابن الله كما تزعمون. وهو مكوّن بكلمته تعالى وأمره الذي هو (كن) من غير وساطة أب ولا نطفة، أعلم بها وأخبر مريم، وروح من الله ألقاها إليها بواسطة جبريل(*). فآمنوا بالله إيماناً يليق به وهو أنه واحد أحد تنزه عن صفات الحوادث، وأن كل ما في الكون مخلوق له وهو الخالق له وآمنوا برسله كلهم إيماناً يليق بشأنهم وهو أنهم عبيد له خصّهم بضروب من التكريم والتعظيم وألهمهم بضرب من والهداية بالوحي ليعلموا الناس كيف يوحدون ربهم ويعبدونه ويشكرونه، ولا تقولوا: الآلهة ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، أو الله ثلاثة أقانيم كل منها عين الآخرة، وكل منها إله كامل، ومجموعها إله واحد. فإن هذا تركاً للتوحيد الذي هو ملّة إبراهيم وسائر الأنبياء واتباعاً لعقيدة الوثنيين، والجمع بين التثليث والتوحيد تناقض ترفضه العقول، ولا يقبله أولو الألباب

(*) قيل لعيسى كلمة منه لأنه وجد بكلمته تعالى وأمره من غير واسطة أب ولا نطفة وقيل له روح منه لذلك الكشاف 1/ 315. والحق أن قوله تعالى (وروح منه) قد أوقع النصارى في الإضلال فقالوا: عيسى جزء منه فجهلوا وضلوا. وقد ذكر المفسرون أجوبة على معنى (وروح منه) انظرها في القرطبي 6/ 22 ومجمع البيان 6/ 301 والبغوي 1/ 502 وت. أبي السعود 2/ 259 وفي الأخير خبر جرى في عهد الرشيد يبطل مزاعم النصارى. يحكى أن طبيباً حاذقاً نصرانياً للرشيد ناظر علي بن حسين الواقدي المروزي ذات يوم فقال له إن في كتابكم ما يدل على أنه عيسى عليه السلام جزء منه تعالى وتلا هذه الآية فقرأ الواقدي «وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه» فقال يلزم أن يكون جميع تلك الأشياء جزءاً منه تعالى علواً كبيراً فانقطع النصرانيّ وأسلم.

انتهوا عما تقولون من الزور والشرك بالله يكن الانتهاء خيراً لكم وقولوا بتوحيد الله وتنزيهه كما قال جميع الأنبياء والمرسلين إنما الإله المعبود إله واحد، لا ولد(*) له ولا والد، فنزه عن التعدد فليس له أجزاء ولا أقانيم ولا هو مركب ولا متحد بشيء من المخلوقات. تنزَّهُ الله وتعظَّم عن أن يكون له ولد فليس له تبارك وتعالى مماثل فيكون له منه زوج يتزوجها فتلد له ولداً، فله - جل وعلا - جميع ما في السموات ملكاً وخلقاً، وجميع الخلق عبيده يحتاجون إلى فضله وكرمه وجوده وهو يتصرف فيهم كما يشاء. فكيف يكون المسيح ابناً لله وهو من جملة مخلوقاته؟!.

وحسب العباد أن يكون الله حافظاً ومدبراً ورازقاً لهم. وهو غني عنهم فكيف يتصور في حقه تعالى اتخاذ الولد الذي هو شأن العجزة المحتاجين في تدبير أمورهم إلى من يخلفهم ويقوم مقامهم؟[1].

(*) التعبير في قوله تعالى (سبحانه أن يكون له ولد) بالولد دون الابن الذي يعبر به المسيحيون في كلامهم، لبيان أنهم إذ كانوا يريدون الابن الحقيقي الذي يفهم من هذا اللفظ فلا بد أن يكون ولداً أي مولوداً من تلقيح أبيه لأمه، وهذا محال على الله تعالى، وإن أرادوا الابن المجازي لا الحقيقي فلا خصوصية لعيسى في ذلك، لأنه قد أطلق في كتب العهد العتيق والعهد الجديد على إسرائيل وداوود وغيرهما من الأخيار. المراغي 6/ 31.

(1) المرجع السابق 31.29. وم. الطبري 1/ 183 وما بعدها. وت. أبي السعود 2/ 259 وما بعدها. والبغوي 1/ 502.

باب اللام

15 ـ لا إكراه في الدين

قال الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾.

سورة البقرة: 256 وانظر يونس: 99 والكهف: 29 والحج: 78.

أسباب النزول:

عن ابن عباس قال: كانت المرأة مغلاة [التي لا يعيش لها ولد] فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّده، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية(1).

وعن ابن عباس أيضاً قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف، يقال له الحصيني، كان له ابنان نصرانيان وكان هو رجلاً مسلماً فقال للنبي ﷺ: ألا استكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله فيه ذلك. وزاد السدي في روايته: وكان قد تنصرا على أيدي تجار قدموا من الشام يحملون زبيباً فلما عزما على

(1) ابن كثير 1/ 551 والقرطبي 3/ 280 ومجمع البيان 3/ 306.

الذهاب معهم أراد أبوهما أن يستكرههما وطلب من رسول الله ﷺ أن يبعث في آثارهما، فنزلت هذه الآية[1].

اللغـــة:

أكره فلانٌ فلاناً على الأمر يُكْرِهُهُ: قَسَره عليه، أو جعله يفعله كارهاً. والمصدر: الإكْراه أي الإجبار أو الإرغام وهو حمل الشخص على أن يعمل عملاً وهو كاره له[2].

وقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ فقد قيل كان ذلك في ابتداء الإسلام فإنه كان يعرض على الإنسان الإسلام فإن أجاب وإلا تُرِك والثاني: أن ذلك في أهل الكتاب فإنهم إن أرادوا الجزية والتزموا الشرائط تُركوا. والثالث: أن لا حُكم لمن أُكْره على دين باطل فاعترف به ودخل فيه كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ والرابع إلا اعتداد في الآخرة بما يفعل الإنسان في الدنيا من الطاعة كرهاً فإن الله تعالى يعتبر السرائر ولا يرضى إلا الإخلاص[3]. فمن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً[4].

التفسير:

لا إكراه في الدخول في دين الإسلام، لأن الإيمان إذعان وخضوع في القلب، ولا يكون ذلك بالإلزام والإكراه، وإنما يكون بالحجة والبرهان. فقد ظهر أن في الدين الإسلامي الرشد والفلاح وأن ما خالفه من الملل الأخرى غيٌ وضلال، فمن هداه الله للإسلام

(1) ابن كثير 1/ 252 ومجمع البيان 3/ 305 وانظر القرطبي الصفحة السابقة وما بعدها.
(2) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 469 والتي تليها.
(3) المفردات 429 والتي تليها.
(4) ابن كثير 1/ 551.

وشرح صدره ونوّر بصيرته دخل فيه على بينة؛ ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً.

فمن يكفر بما تكون عبادته والإيمان به سبباً في الطغيان والخروج عن الحق من عبادة مخلوق، إنساناً كان أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو تقليد رئيس ضال أو طاعة هوى، ويؤمن بالله فلا يعبد إلا إياه ولا يرجو من شيئاً من أحد سواه، ويعترف بأن له رسلاً أرسلهم للناس مبشرين ومنذرين بأوامره ونواهيه التي فيها مصلحة للناس كافة، فقد تحرى باعتقاده وعمله أن يكون ممسكاً بأوثق عرا النجاة وأمتن وسائل الحق، وإنما يكون ذلك بالاستقامة على الصراط المستقيم الذي لا يضل سالكه، كما هو مُبيَّن في كتابه تعالى وسنة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام. فمثل من فعل ذلك مثل الممسك بعروة الحبل المحكم المأمون الانقطاع لدى حمل ما هو كبير وثقيل.

والله سميع لأقوال من يدعي الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، عليم بما يكنه قلبه مما يصدق هذا الادعاء أو يكذّبه. ولا يخفى ما في ذلك من الوعد الحامل على الإيمان والوعيد الرادع عن الكفر والنفاق[1].

(1) المراغي 3/ 16 وما بعدها. وابن كثير 1/ 554،551. وتفسير أبي السعود 1/ 249 والتي تليها وفتح القدير 1/ 275 وما بعدها.

باب الميم

16 ـ المسلمون

قال الله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

سورة البقرة: 136 وانظر البقرة: 128، 132، وآل عمران: 52، 64، 84، 102 والمائدة: 111 والأنعام: 163 والأعراف 126 ويونس: 72 والنحل: 89، 102 والأنبياء: 108 والحج: 78 والمؤمنون: 52 والنمل: 42. 81، 91 والقصص: 53 والعنكبوت: 46 والروم: 53 والأحزاب: 35 والزمر: 12 وفصلت: 33 والزخرف: 69 والأحقاف: 15 والفتح: 29.

أسباب النزول:

قال ابن عباس: جاء نفر من اليهود إلى النبي ﷺ فسألوه عمّن يؤمن به من الأنبياء، فنزلت الآية. فلما جاء ذكر عيسى قالوا: لا نؤمن بعيسى ولا من آمن به(1).

اللغة والدلالة الخاصة:

لما كان الإسلام ـ كما تقدم(*) ـ بمعناه الشرعي هو توحيد الله

(1) القرطبي 2/ 140.

(*) انظر (حقيقة الإسلام) في الدين ـ 8 ـ.

والانقياد والخضوع وإخلاص الضمير له، والإيمان بالأصول الدينية التي جاءت من عند الله، فإن المسلم هو المنقاد لله ولما جاء من الشرائع. وهي مُسْلِمَةٌ وهما مسلِمان وهم مسلِمُون وهنَّ مُسْلِماتٌ[1] وقوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: «إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين» وهذا يعني مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل واستسلام لله في جميع ما قضى وقدر. وقوله تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾[النمل: 81] أي منقادون للحق مذعنون له.

وما تقدم يعم الأنبياء والصالحين في سائر الأديان السماوية. أما المسلمون منذ بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ وحتى يرث الله الأرض ومن عليها فلهم ما يخصهم إلى جانب ما ذكر. فهم يؤمنون بالله وحده لا شريك له وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، فهم يعظمون جميع الرسل والأنبياء إلا أن شريعة الإسلام التي أعطاها تعالى نبيه محمداً ﷺ وأمره أن يبلغها الناس جميعاً هي شريعة ناسخة ما قبلها من الشرائع وهي الشريعة المقبولة عند الله ولا يقبل غيرها كما أعلمهم بذلك العلي القدير في كتابه العزيز ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[آل عمران: 85]. وهي شريعة ناظمة لشؤون حياة المسلمين كلها، في عباداتهم ومعاملاتهم وأحوالهم الشخصية، جاءت على أكمل وجه وقد ارتضاها تعالى لعباده الذي خلقهم وهو العليم وحده بأحوالهم ربما يصلح شأنهم ويكسبهم سعادة الدارين إن تمسكوا بما أمرهم به وانتهوا عما نهاهم عنه.

التفسير:

قولوا أيها المؤمنون: صدَّقنا بالله وأطعناه وصدَّقنا بالكتاب الذي

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 590.

أنزل على نبينا محمد ﷺ، وصدّقنا أيضاً بما أنزل على الأنبياء إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وهم الأنبياء من وَلَدِ يعقوب، وآمنا أيضاً بالتوراة التي نزلت على موسى وبالإنجيل الذي نزل على عيسى وبالكتب التي نزلت على النبيين كلهم، وأقررنا وصدقنا أن ذلك كله حق وهدي ونور من عند الله، وأن جميع رسل الله على حق وهدى، يُصدِّق بعضهم بعضاً على منهاج واحد من توحيد الله، فلا نكذب أحداً منهم فيما دعا إليه في عصره، بل نصدق بذلك تصديقاً جُملياً ولا يضيرنا تحريف بعضٍ وضياع بعض، فإن التصديق التفصيلي إنما يكون لما أنزل إلينا فحسب(*)! ولا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض كما تبرأت اليهود من عيسى ومحمد عليهما السلام وأقرت بغيرهما من الأنبياء، وتبرأت النصارى من محمد ﷺ وأقرت بغيره بل نشهد أن الجميع رسل الله بُعثوا بالحق والهدى ونحن خاضعون لله بالطاعة مذعنون له بالعبودية وهذا هو الإيمان الصحيح[1].

(*) روى البخاري عن أبي هريرة أن أهل الكتاب كانوا يقرؤون التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية للمسلمين فقال النبي ﷺ: لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله. . الآية.

وروى ابن أبي حاتم من مَعْقِل مرفوعاً «آمنوا بالتوراة والإنجيل وّليسعْكم القرآن». انظر المراغي 1/ 225 وابن كثير 1/ 329 وما بعدها. وذكر الأول في القرطبي 2/ 140.

(1) المراغي 1/ 225 وم. الطبري 1/ 46. والقرطبي 2/ 140 و141.

باب الياء

17 ـ يسر الشريعة الإسلامية

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾.

سورة البقرة: 173 وانظر البقرة: 178، 185، 196، 233، 282 والنساء: 98-101 والمائدة: 6 والأنعام: 145 والتوبة: 91، 92 والنحل: 115 والحج: 78 والنور: 60، 61 والفتح: 17 والطلاق: 4، 7 والمزمل: 20 الشرح: 5، 6.

اللغة:

يَسُرَ الشيءُ يَيْسرُ يُسْراً: سَهُلَ وهان. فاليُسر مصدر ضد العُسْر. والوصف يُسيرٌ. وقد يستعمل اليُسر في موضع اليسير(*). فيقال أمر يُسْر. واسم التفضيل من هذا الأيسر في المذكر واليسرى في المؤنث كما في قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ أي للطريقة التي هي أكثر رفقاً وليناً وهي طريق الحق.

والميسور: اليُسْر كما في قوله تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي قولاً يسيراً سهلاً: وهو من الوصف بالمصدر.

(*) وقد يقال اليسير في الشيء القليل. فبمعنى السهل قوله تعالى: ﴿إن ذلك على الله يسير﴾. وبمعنى القليل قوله تعالى: ﴿وما تلبثوا بها إلا يسيرا﴾ المفردات 552.

ويسرّه تيسيراً سهّله وهيّأه وأكثر ما يستعمل التسيير في الخير قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ و ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾.

وتيسر الشيء تسهّل وهان، كقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ واستيسر الشيء: تسهّل وتهيأ. قال تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾[1].

واليسر في الشريعة الإسلامية مبني على قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[2] وعلى قول الرسول ﷺ: «وبعثت بالحنيفية السمحة». وقوله ﷺ: «إن خير دينكم أيسره إن خير دينكم أيسره» وفي الصحيحين قال عليه الصلاة والسلام: «يسّروا ولا تعسّروا واسكنوا ولا تنفروا»[3]. فأحكام الشريعة الإسلامية ملأى بالرخص الملائمة التي تنقذ المؤمن من المآزق التي تعترضه في حياته، وتحمله على شكر الله وحمده على ما يسّر وأعان ومن ذلك إباحة التيمم والصلاة للمريض قاعداً أو مضطجعاً وصلاة الخوف وإباحة الإفطار لمن له عذر... وإباحة تناول بعض ما حرمه تعالى للمضطر، وغير ذلك مما فاض به القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، واستفاضت به مباحث الفقه الإسلامي. أضف إلى ذلك ما عمد إليه القرآن الكريم والسنة المطهرة من إغلاق باب اليأس والقنوط وفتح باب الأمل بالتوبة ورحمة الله الواسعة التي اقتضت أن السيئة بمثلها والحسنة بعشرة أمثالها، والله يضاعف لمن يشاء.

التفسير:

تقدم في (الاضطرار) من قسم الاجتماعيات.

---

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 866 والتي تليها.

(2) سورة البقرة: 185.

(3) انظر ما ورد من أحاديث في تفسير ابن كثير 1/ 383.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ج -
العقائد



باب الهمزة

1 ـ الأجر عند الله

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾.

سورة البقرة: 62 وانظر البقرة: 112، 262، 274، 277 وآل عمران: 57، 171، 172، 179، 199 والنساء: 40، 67، 74، 95، 100، 114، 146، 162، 173 والمائدة: 9 والأنعام: 90 والأعراف: 170 والأنفال: 28 والتوبة: 22، 120 ويونس: 72 وهود: 11، 29، 51، 115 ويوسف: 56، 57، 90 والنحل: 41، 96، 97، والإسراء: 9 والكهف: 2، 30 والشعراء: 109 127، 145، 164، 180 والعنكبوت: 8، والأحزاب: 29، 35، 44 وسبأ: 47 وفاطر: 7، 30 ويس: 11 والزمر: 10 وفصلت 8 والشورى: 40 والفتح: 10، 16، 29 والحجرات: 3، والحديد: 7، 11، 18، 19، 27 والتغابن: 15 والطلاق: 5 والملك: 12 والانشقاق: 25 والحشر: 6.

أسباب النزول:

عن مجاهد قال: قال سلمان رضي الله عنه: سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت منهم، فذكرت من صلاتهم وعبادتهم فنزلت هذه

الآية. وروى السدي نحوه وأضاف أنه رضي الله عنه أخبر رسول الله ﷺ أنهم كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون أنك ستبعث نبياً فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له ﷺ: يا سلمان هم من أهل النار. فاشتد ذلك على سلمان فأنزل الله هذه الآية[1].

القراءات:

1 ـ هادوا: قرأ الجمهور (هادُوا) بضم الدال وقرأ أبو السمال العدوي بفتحها (هادَوا)، من المهاداة، أي مال بعضهم إلى بعض والمعنى في القراءة الأولى تابوا أو دخلوا في اليهودية[2].

2 ـ والصابئين: قرأ الجمهور (والصابئين) مهموزاً وقرأ نافع بغير همز فمن همزه جعله من (صبأ الرجل في دينه إذا خرج منه وتركه) ومنه قولهم (صبأ نابُ الصبي) إذا طلع. فلام الفعل همزة فكذلك يجب أن تكون في الصابئين[3].

فأما من لم يهمز فهو على أحد وجهين إما أن يكون خفف الهمز على البدل فأبدل منها ياء مكسورة ثم حذف الكسرة لاجتماع ياءين الأولى مكسورة، فاجتمع له ياءان ساكنتان، فحذف إحداهما لالتقاء الساكنين فقال (الصابين). وهذا مذهب الأخفش وأبي زيد، ولا يجيز سيبويه ذلك إلا في الشعر، أما إذا كانت الهمزة مفتوحة وقبلها ضمة أو كسرة فإن سيبويه يجيز فيها البدل. والثاني أن يكون من (صبا يصبو) إذا فعل ما لا يجب له فعله كما يفعل الصبي فيكون في الاعتلال قد حذف لامه في الجمع وهي واو مكسورة، فجرى

(1) انظر تفسير ابن كثير 1/ 179 والتي تليها، والواحدي ص 15 والبحر المحيط 1/ 240 وما بعدها.

(2) المرجع السابق 1/ 241 والقرطبي 1/ 433 وانظر الكشاف 1/ 73.

(3) البحر المحيط الصفحة السابقة والكشف عن وجوه القراءات 1/ 246 والقرطبي 1/ 434.

الاعتلال على إلقاء حركة الواو على الياء وحذف الواو الأولى لسكونها وسكون ياء الجمع[1].

اللغة:

أَجَرَ فلانٌ فلاناً ـ من بابي ضرب ونصر ـ يأجُره أجْراً: أثابه على عمل[2].

فالأجر والأجرة ما يعود من ثواب العمل دنيوياً أو أخروياً. والأجر في الثواب الأخروي كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ و﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ و ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾. والأجرة في الثواب الدنيوي. والأجرة والأجرة يقال فيما كان عن عقد وما يجري مجرى العقد ولا يقال إلا في النفع دون الضر نحو قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ والجزاء يقال فيما كان عن عقد وغير عقد ويقال في النافع والضار نحو قوله تعالى: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ وقوله: ﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

التفسير:

إن المصدّقين رسول الله ﷺ فيما أتاهم به من الحق من عند الله[*]. (والذين هادوا) أي والذين دخلوا في اليهودية، يقال هاد يهود هُوْداً: دان باليهودية، والوصف هائد، ويجمع على هد٠. ويهود من

(1) الكشف 1/ 246 و247 وانظر البحر المحيط والقرطبي، الصفحة السابقة.

(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 16.

(*) ذهب بعض المفسرين إلى أن الذين آمنوا هم الذين آمنوا بألسنتهم فقط وهم المنافقون بقرينة انتظامهم في سلك الكفرة الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ إلا أن بعضهم أجاز أن يكون المقصود بالذين آمنوا المتدينون بدين الإسلام المخلصون منهم والمنافقون على أن يفسّر قوله تعالى في الآية (من آمن) بمن اتصف منهم بالإيمان الخالص: ت. أبي السعود 1/ 108.

الفعل هاد إذا تاب سمُوا بذلك حين تابوا من عبادة العجل وخُصّوا به لما كانت توبتهم هائلة، (والنصارى) واحدهم نصران كندامى وندمان يقال رجل نصران، امرأة نصرانة والياء في نصراني للمبالغة كما في أحمري، سموا بذلك لأنهم كانوا مع المسيح عليه السلام في قرية يقال لها نصران أو [الناصرة] فسموا باسمها أو من اسمها، أو نُسبوا إليها، والياء للنسبة. أو لأنهم نصَروا المسيح عليه السلام. (والصابئين) وهم قوم لا دين لهم مقرر يتبعونه ويقتفونه أثر عن بعضهم قراءة الزبور وعن بعضهم عبادة الكواكب والملائكة. فقد مالوا عن سائر الأديان إلى ما هم فيه. من تحلى من هؤلاء المذكورين(*) جميعاً بالإيمان الخالص بالله والبعث والنشور وعمل صالح الأعمال فلهم ثواب عملهم الصالح عند ربهم ولا خوف عليهم فيما قدِموا عليه من أهوال يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا وزينتها، إذا عاينوا ما أعد الله لهم من نعيم مقيم[1].

2 ـ الاحتضار

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

(*) ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى ﴿من آمن...﴾ من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ مصدقاً بقلبه بالمبدأ والمعاد عاملاً بمقتضى شرعه وعلى ذلك فهي محكمة وذهب بعضهم إلى أن معناها أن هؤلاء الطوائف من آمن منهم إيماناً صحيحاً فله أجره فيكون في حق المؤمنين الثبات إلى الموت وفي حق غيرهم الدخول في الإسلام. وهي بذلك محكمة أيضاً وما روي عن ابن عباس من أنها منسوخة بقوله تعالى ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ فقد أوّله ابن كثير بأن ما قال ابن عباس إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقه ولا عملاً إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل نجاة. انظر التسهيل 1/ 49 وابن كثير 1/ 180.

(1) ت. أبي السعود 1/ 108 وما بعدها. والكشاف 1/ 73 والبيضاوي 1/ 158. والمراغي 1/ 134.

سورة ق: 19 وانظر الواقعة: 87.83 والقيامة: 30.26.

القراءات:

1 ـ سَكْرَةُ: قرأ الجمهور (سكرة الموت) وقرأ ابن مسعود: «سكرات الموت» جمع سكْرة[1].

2 ـ وقرأ الجمهور (سكرة الموتِ) وقرأ أبو بكر وابن مسعود رضي الله عنهما (سكرة الحق بالموت) على إضافة السكرة إلى الحق على أن السكرة هي الحق فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين. والدلالة على أنها السكرة التي كتبت على الإنسان وأوجبت له وأنها حكمة والباء للتعدية لأنها سبب زهوق الروح لشدتها أو لأن الموت يعقبها فكأنها جاءت به، ويجوز أن يكون المعنى: جاءت ومعها الموت. وقيل: ويجوز أن يكون الحق على هذه القراءة هو الله تعالى أي جاءت سكرة أمر الله بالموت، والإضافة إليه تعالى تفظيعاً لشأنها وتهويلاً. وقيل الحق هو الموت، والمعنى: وجاءت سكرة الموت بالموت[2].

اللغة والدلالة الخاصة:

1 ـ الاحتضار: حضرهُ الموتُ واحتضره أشرف عليه فهو في النزع، وهو محضور ومحتضر[3]. ولم يرد احتضر ولا الاحتضار في القرآن الكريم وإنما ورد حضره الموت أي جاءه وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة:133][4]. وقد عبر البيان الإلهي عن الاحتضار بسكرة الموت....

2 ـ السَّكْرَةُ: الغشية و(سكرة الموت) غشيتُه وشدّتُه[5]. وهي

(1) البحر المحيط 1/124 والكشاف 1/21 وت. أبي السعود 8/130.
(2) القرطبي 17/12 والكشاف الصفحة السابقة وانظر تفسير أبي السعود 8/129.
(3) المصباح المنير (حضر).
(4) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/269.
(5) المرجع السابق 1/578.

التي تدل الإنسان على أنّه ميت. والسكرة هي: الغضبة وغلبة اللذة على الشباب[1].

3 ـ الموت: ضد الحياة، وقد مات يموت ويمات أيضاً ـ ويقال في الإسناد إلى الضمائر من الأول مُتُّ ومُتْنا ومن الثاني مِتُّ ومِتْنا ـ فهو مَيِّت ومَيْتٌ وقوم موتى وأموات وميّتون ومَيْتونَ. واسم المرة: الموتة. والممات مصدر ميمي بمعنى الموت. يقال: مات ثلاث: عدم الحياة وانقطع نفسه، وإذا اجتمع الموت والقتل في الذكر فالموت ما كان بغير القتل، ويقال في هذا مات حتف أنفه. وأماته الله جعله ميتاً بسلب الحياة منه[2].

وإسناد الموت إلى الإنسان في قولهم مات فلان إنما هو مما وقع على سعة الكلام وما تكثر العرب استعماله[3]. ولا ريب أن المحيي والمميت هو الله ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ ولكنه اقتضت حكمة الله عز وجل أن يكل قبض الأرواح إلى واحد من ملائكته المقربين، الذي خلقه وخلق على يديه قبض الأرواح واستلالها من الأجسام وإخراجها منها وخلق تعالى جنداً يكونون معه يعملون عمله بأمره، والفاعل حقيقة هو الله ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ ﴿ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ فملك الموت يقبض والأعوان يعالجون والله تعالى يزهق الروح[4].

وقد دلت متفرقات الأحاديث والآثار على أن الإنسان كلما كان أصلح حالاً في أثناء حياته، كان ملك الموت به أرفق وكان الموت عليه أهون، وكلما كان الإنسان أوغل في السوء والعصيان في أثناء

(1) لسان العرب (سكر).
(2) الصحاح (موت) ومعجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 632 و633 و635.
(3) لسان العرب (موت).
(4) القرطبي 14/ 93 و94.

حياته كان الملك في معالجته أغلظ وكان الموت عليه أشد، على أن هذا ليس قانوناً دائماً[1].

التفسير:

بعد أن ذكر تعالى استبعاد الإنسان البعث للجزاء، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه، أعلمهم بأنهم يلاقون صدق ذلك حين الموت وحين قيام الساعة. فقال: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي وكشفت لك غمرةُ الموت وشُدتُه عن اليقين الذي كنت تمتري فيه، مما كان الله تعالى وعده وأوعده ونطقت به كتبه ورسله من أن البعث وما يقتضيه من حساب وجزاء حق لا شك فيه، ذلك الحق الذي كنت تفرّ منه وتميل عنه قد جاءك فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص.

ولما ثَقُل أبو بكر رضي الله عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بقول حاتم:

لعمرك ما يغني الثراءُ عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ

فكشف رضي الله تعالى عن وجهه وقال: ليس كذلك ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾.

وفي صحيح البخاري عن عائشة أن رسول الله ﷺ كانت بين يديه عُلبة فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: «لا إله إلا الله إن للموت لسكرات» ثم نصب يده فجعل يقول «في الرفيق الأعلى» حتى قُبض ومالت يده[2].

(1) كبرى اليقينيات الكونية ص،308.

(2) ابن كثير 6/ 401 والتي تليها والقرطبي 17/ 12 وما بعدها. وت. أبي السعود 8/ 129 والتي تليها. والمراغي 26/ 161 و162. يستحب قراءة (يس) وقت الاحتضار لقوله عليه السلام «اقرؤوا يس على موتاكم» أخرجه أبو داوود ومن حديث أم الدرداء وأحمد عن النبي ﷺ قال: «ما من ميت يُقرأ عنده سورة يس إلا هوّن عليه الموت». انظر القرطبي 4/ 298.

3 ـ الاستغفار

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

سورة آل عمران: 135 وانظر النساء: 64، 106، 110 والمائدة: 74 والتوبة: 80، 113 وهود: 52، 90 ومريم: 47 وغافر: 55 والشورى: 5 ومحمد: 19 والذاريات: 18 والممتحنة: 4 والمنافقون: 5، 6 ونوح: 10 والمزمل: 20 والنصر: 3.

أسباب النزول:

قال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت الآية في نبهان التمار ـ وكنيته ـ أبو مُقْبِل ـ أتته امرأة حسناء باع منها تمراً، فضمها إلى نفسه وقبّلها ثم ندم على ذلك، فأتى النبيَّ ﷺ وذكر ذلك له فنزلت هذه الآية[1].

وقال في رواية الكلبي أن رجلين أنصارياً وثقفياً آخى رسول الله ﷺ بينهما فكانا لا يفترقان فخرج رسول الله ﷺ في بعض مغازيه وخرج معه الثقفي، وخلف الأنصاريَّ في أهله وحاجته، فأقبل ذات يوم فأبصر امرأة صاحبه قد اغتسلت وهي ناشرة شعرها فوقعت في نفسه فدخل ولم يستأذن حتى انتهى إليها فذهب ليقبلها فوضعت كفها على وجهها فقبّل ظاهر كفها ثم ندم واستحيا فأدبر راجعاً فقال: سبحان الله خنت أمانتك وعصيت ربك ولم تصب حاجتك. قال: فندم على صنيعه فخرج يسبح في الجبال ويتوب إلى الله تعالى من ذنبه حتى وافى الثقفي فأخبرته أهله بفعله فخرج يطلبه حتى دُلّ عليه فوافقه ساجداً وهو يقول رب ذنبي قد خنت أخي، فقال له يا فلان قم فانطلق إلى رسول الله ﷺ فسله عن ذنبك لعل الله أن يجعل لك فرجاً

(1) الواحدي ص 90. والقرطبي 4/ 209.

وتوبة فأقبل معه حتى رجع إلى المدينة وكان ذات يوم عند صلاة العصر، نزل جبريل عليه السلام بتوبته، فتلا على رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً . .﴾ إلى قوله ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ فقال عمر: يا رسول الله أخاص لهذا الرجل أم للناس عامة؟ قال: بل للناس عامة[1].

اللغة والدلالة الخاصة:

الغَفْرُ: الستر وإلباس ما يصون عن الدنس، فقالوا: اغفِر ثوبك في الدعاء واصبغ ثوبك فإنه أغفر للوسخ، ومنه يجيء صون العبد من العذاب يقال غفر ـ كضرب ـ غُفْراناً ومَغْفِرَةً. والاستغفار طلب الغَفْرِ بالمقال والفعال فالاستغفار باللسان من دون ذلك بالفعال فعلُ الكذّابين[2]. فإن المستغفر من الذنب وهو مصرٌّ عليه كالمستهزىء بربه ومن هذا نفهم ما روي عن الحسن البصري: «إن استغفارنا يحتاج إلى استغفار»[3].

فالاستغفار المطلوب ما يقرن بالتوبة النصوح والعمل وفق حدود الدين، جاء في التعريفات للجرجاني: الاستغفار طلب المغفرة بعد رؤية قبح المعصية، والإعراض عنها. والاستغفار: استقلال الصالحات والإقبال عليها، واستكبار الفاسدات والإعراض عنها[4].

والاستغفار مندوب إليه وقد أثنى تعالى على المستغفرين فقال:

(1) الواحدي ص 91. وانظر القرطبي، الصفحة السابقة والرواية فيه مختصرة والآية عامة شاملة والدليل قوله ﷺ: «ما من عبد يذنب ذنباً ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له ثم تلا هذه الآية، والآية الأخرى: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله تواباً رحيماً﴾. وانظر القرطبي 4/ 209.

(2) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 265 والمفردات 362.

(3) انظر القرطبي 4/ 210.

(4) التعريفات ص 36.

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ ﴾ [الذاريات/ 18]. والاستغفار سيد الدعاء والدعاء مخ العبادة ولذلك وجب أن يكون باللسان مع حضور القلب وهو جائز في كل وقت وعقب كل صلاة إلا أن له فضيلة خاصة وقت الأسحار. عن أنس بن مالك قال: كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر في آخر السحر سبعين مرة. وثبت في الصحيحين وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال «ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟»[1].

والمختار من لفظ الاستغفار ما رواه البخاري عن شدّاد بن أوس عن النبي ﷺ «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ـ قال ـ ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات من ليله قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة». وروي أن رسول الله ﷺ آخذ بيد علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ثم قال: «ألا أعلمك كلمات تقولهن لو كانت ذنوبك كمدبّ النحل. أو كمدب الذر لغفرها الله لك على أنه مغفور لك: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[2].

التفسير:

وصف تعالى المتقين بجملة أوصاف كلها مناقب ومفاخر ومن

(1) انظر ابن كثير 2/ 20 والقرطبي 4/ 39 والتي تليها.

(2) المرجع الأخير ص، 40.

هؤلاء المتقين: الذين إذا فعلوا من القبيح[*] ما يتعدى أثره إلى غيره كالغيبة ونحوها أو فعلوا ذنباً يكون مقصوراً عليهم كشرب الخمر ونحوه ذكروا عند ذلك بالخوف وعد الله ووعيده وعظمته وجلالته فرجعوا إليه تعالى طالبين مغفرته بالتوبة والندم، راجين رحمته وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جملة جاءت معترضة بين المعطوفين والاستفهام فيها إنكاري والمراد بالذنوب جنسها والمعنى لا يغفر جنس الذنوب أحد ولا يزيل عقوبتها إلا الله. وفي ذلك تصويب لفعل التائبين وتطييب لقلوبهم، وبشارة لهم بسعة الرحمة وقرب المغفرة، فمن كرمه تعالى أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. كما أن فيه تحريضاً للعباد على التوبة وحثاً لهم عليها، وتحذيراً من اليأس والقنوط.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ أي ولم يقيموا على القبيح من غير استغفار ورجوع بالتوبة. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار» وروي عنه أيضاً: «لا توبة مع إصرار» فالصغيرة مع الإصرار كبيرة. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي بقبح ما فعلوا وبالنهي عنه والوعيد عليه. والفائدة من ذكر هذا أنه إذا لم يعلم بقبحه يعذر في فعله ما لم يكن عدم العلم عن تقصير في تحصيل العلم به[1].

4 ـ الأعـراف

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن

(*) قيل الفاحشة الزنا، وظلم النفس سائر المعاصي. وقيل الفاحشة الكبائر وظلم النفس الصغائر وقيل الفاحشة اسم لكل معصية ظاهرة وباطنة إلا أنها لا تكاد تقع إلا على الكبيرة. انظر مجمع البيان 4/ 203 وت. أبي السعود 2/ 86. أقول وإذا كانت الفاحشة أي ذنب فقد ظلم المذنبون أنفسهم بذلك لتعريضها لسخط الله وعقابه.

(1) ت. أبي السعود 2/ 86 والتي تليها والمراغي 4/ 72 وما بعدها والقرطبي 4/ 209.215.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ۝٤٦ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا
لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٧ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ
عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٤٨ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ
ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٤٩﴾.

سورة الأعراف: 46 ـ 49 وانظر الحديد: 13.

القراءات:

1 ـ قرأ الجمهور (وإذا صُرِفَت) أي حُوِّلت وفيه إشعار بأن تعلّق أبصارهم بأهل النار من غير رغبة بخلاف تعلقها بأهل الجنة فهو بطريق الرغبة(1). وقرأ الأعمش (وإذا قلبت أبصارهم) وعن ابن مسعود وسالم مثله(2).

2 ـ قرأ الجمهور (تستكبرون) أي عن قبول الحق أو على الخلق وهو الأنسب بما بعده، وقرىء (تستكثرون) من الكثرة أي من الأموال والجنود(3). و(ما) على هذه القراءة تحتمل أن تكون اسم موصول على معنى ما أغنى عنكم أتباعكم والذين كنتم تستكثرونه من الأموال ويحتمل أن تكون (ما) كذلك في قراءة (تستكبرون) والمراد بها الأصنام والمعنى ما أغنى عنكم جمعكم وأصنامكم التي كنتم تعتقدون كبرها وعظمها(4).

3 ـ وقرأ الجمهور (ادْخُلُوا) وقرىء (أَدْخِلُوا) بأمر المزيد للملائكة(5) وقرىء (أُدْخِلوا ودَخَلُوا) بالمزيد المجهول وبالمجرد

(1) ت. أبي السعود 3/ 230.
(2) الكشاف 2/ 64 وروح المعاني 8/ 125.
(3) انظر المرجعين السابقين وت. أبي السعود الصفحة السابقة.
(4) روح المعاني الصفحة السابقة.
(5) روح المعاني 8/ 126 والكشاف/ 64 وقد نسب القرطبي هذه القراءة إلى طلحة بن مُصَرِّف. 7/ 214.

المعلوم وعليهما فلا بد أن يكون (لا خوف عليكم. . .) مقولاً لقول محذوف وقع حالاً ليتجه الخطاب ويرتبط الكلام أي ادخلوا أو دخلوا الجنة مقولاً لهم لا خوف عليكم. . .)[1].

وقرىء في الشاذ «وأُدْخُلوا» على الاستئناف[2].

اللغة والدلالة الخاصة:

الأعراف: واحدها عُرْف، وهو أعلى الشيء وكل مرتفع من الأرض وغيرها، ومنه عرف الديك والفرس والسحاب. وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ معناه أعالي سور بين أهل الجنة وأهل النار[3]. واختلف في أصحاب الأعراف وأرجح الأقوال ما ذُكر في ابن كثير والقرطبي وغيرهما وهو أن رجال الأعراف طائفة من الموحّدين قصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار جُعلوا هناك حتى يقضي بين الناس، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربهم فقال لهم: قوموا ادخلوا الجنة فإني غفرت لكم. وفي رواية أخرى عن حذيفة «يجمع الله تعالى الناس ثم يقول لأصحاب الأعراف ما تنتظرون؟ قالوا: ننتظر أمرك. فيقال: إن حسناتكم تجاوزت لكم النار أن تدخلوها وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم فادخلوها بمغفرتي ورحمتي. وإلى هذا ذهب جمع من الصحابة والتابعين[4].

التفسير:

وبين الفريقين؛ فريقَيْ أهل الجنة وأهل النار حجاب يفصل كلاً

(1) روح المعاني في الصفحة السابقة وانظر ت. أبي السعود 3/ 231 ونسب القرطبي قراءة (دخلوا) إلى عكرمة.

(2) إعلاء ما من به الرحمن 1/ 175.

(3) انظر لسان العرب (عرف).

(4) ابن كثير 3/ 171 والقرطبي 7/ 211 وما بعدها وروح المعاني 8/ 123 والتي تليها. وانظر الكشاف 2/ 64.

منهما من الآخر ويمنعه من الاستطراق إليه، وهذا الحجاب هو السور الذي ذكره تعالى في سورة الحديد ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ وعلى أعالي ذلك السور رجالٌ يرون أهل الجنة وأهل النار جميعاً قبل الدخول فيها فيعرفون كلاً منهما بسيماهم التي وصفهم الله بها في نحو قوله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾.

وهؤلاء الرجال في أصح الأقوال ـ هم رجال من الموحدين قصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، جعلوا هناك حتى يقضى بين الناس، فبينما هم كذلك يطلع عليهم ربهم فيقول قوموا ادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم. وفي رواية أخرى عن حذيفة «يجمع الله الناس ثم يقول لأصحاب الأعراف ما ينتظرون؟ قالوا ننتظر أمرك. فيُقال: إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها، وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم فادخلوها بمغفرتي ورحمتي.

ونادى أصحابُ الأعراف أصحابَ الجنةِ حين رأوهم وعرفوهم قائلين لهم: سلام عليكم، وهذا السلام إما تحية ودعاء وإما إخبار بالسلامة من المكررة والنجاة من العذاب. نادوهم مسلّمين عليهم حال كونهم لم يدخلوها بعد وهم طامعون في دخولها. وقد جاء في الآثار أن الناس يكونون في الموقف بين الخوف والرجاء(*)، لا تطمئن قلوب أهل الجنة حتى يدخلوها.

وإذا حوّلت أبصارهم إليهم عن غير قصد ولا رغبة(**) بصارفٍ

(*) روى أبو نعيم عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال: لو نادى منادٍ يا أهل الموقف ادخلوا النار إلا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون ذلك الرجل، ولو نادى: ادخلوا الجنة إلا رجلاً واحداً لخشيت أن أكون ذلك الرجل.

(**) في التعبير بصرف الأبصار وتحويلها إيماء إلى أن أصحاب الأعراف يوجهون أبصارهم إلى أصحاب الجنة بالقصد والرغبة، وتحوّل أبصارهم إلى أهل النار بصارف يصرفها إليهم =

يصرفهم إليها قالوا متضرّعين إلى الله متعوذين به تعالى من سوء حالهم ربنا لا تجعلنا معهم حيث يكونون(*).

ونادى أصحاب الأعراف أيضاً رجالاً من رؤساء الكفار رأوهم بين أصحاب النار يعرفونهم بسيماهم الخاصة التي كانوا عليها في الدنيا والدالة على سوء حالهم يومئذٍ، نادوهم قائلين: ما أغنى عنكم جمع مالكم ولا استكباركم على المستضعفين والفقراء من أهل الإيمان، إذ لم يمنع عنكم العقاب ولا أفادكم شيئاً من الثواب. والمستضعفون من المؤمنين هم أمثال بلال وسليمان وخبّاب وغيرهم. والمستكبرون هم أمثال زعماء قريش وطغاتها الذين قاوموا الإسلام في مكة واضطهدوا أهله كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل.

ثم وُجِّه إلى هؤلاء المستكبرين سؤال توبيخ وتأنيب مع الإشارة إلى أولئك المستضعفين الذين كانوا يضطهدونهم في الدنيا، والتهكّم

= يدل على عدم الرغبة والميل. انظر ت. أبي السعود 3/ 230.

(*) عن سعيد بن جبير أن أبن مسعود رضي الله عنه قال: «يحاسب الله الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة. ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فمن ثقلت موازينه...﴾ الآيتين، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح. ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على الصراط، ثم عُرِض أهل الجنة وأهل النار فإذا نظروا إلى أهل الجنة قالوا: سلام عليكم، وإذا صرفت أبصارهم إلى يسارهم رأوا أهل النار فقالوا: «ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين» تعوّذوا بالله من منازلهم. قال: «فأما أصحاب الحسنات فإنهم يُعطوْنَ نوراً يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطي كل عبد يومئذ نوراً وكل أمة نوراً، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة. فلما رأى أهل الجاهلية ما لقي المنافقون «قالوا ربنا أتمم لنا نورنا» وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان في أيديهم فلم ينزع من أيديهم، فهنالك يقول الله تعالى: ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ فكان الطمع دخولاً.

قال سعيد: فقال ابن مسعود: على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة، ثم يقول: هلك من غلبت آحاده عشراته. انظر ابن كثير 3/ 172.

من خزيهم وفوز من كانوا يحتقرونهم: أهؤلاء الذين حلفتم في الدنيا إن رحمة الله لن تنالهم؟ إذ لم يُعْطَوا في الدنيا مثل ما أعطيتم من الأتباع والأشياع وكثرة المال. قال الله تعالى أو الملائكة بأمره لأصحاب الأعراف بعد أن يحبسوا على الأعراف وينظروا إلى الفريقين ويعرفوهم بسيماهم ويقولوا ما يقولون: ادخلوا الجنة لا خوف عليكم مما يكون في مستقبل أمركم، ولا أنتم تحزنون مما ينغّصُ عليكم حاضركم.

قال الزمخشري: وفائدة هذه المقالة بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن أحداً لا يسبق عند الله إلا بسبقه في العمل، ولا يتخلف عنه إلا بتخلفه فيه، وليرغب السامعون في حال السابقين، وليعرفوا أن كل أحد يعرف في ذلك اليوم بسيماه التي يوسم بها، سواء أكان من أهل الخير أم من أهل الشر، فيزيد المحسن في إحسانه ويرتدع المسيء عن إساءته وليعلموا أن العصاة يوبّخهم كلُّ أحدٍ حتى أقل الناس عملاً[1].

(1) انظر التفاسير التالية: القرطبي 7/ 213.211 وت. أبي السعود 3/ 230 و231. والكشاف 2/ 64 وابن كثير 3/ 174.171 وروح المعاني 8/ 126.123 والمراغي 8/ 161 والتي تليها.

باب الباء

5 - برزخ

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

سورة المؤمنون: 99 و 100.

اللغة والمدلول الخاص:

البَرْزَخُ: الحاجز بين الشيئين. والبرزخ: ما بين الدنيا والآخرة قبل الحشر من وقت الموت إلى البعث، فمن مات فقد دخل البرزخ وجمعه: برازخ[1].

والحياة البرزخية تبدأ من سؤال الميّت في القبر(*) حتى يوم البعث والحساب. والأدلة كثيرة متواترة ومنها ما رواه الشيخان أن

(1) لسان العرب (برزخ).

(*) يقال سؤال القبر وعذاب القبر ونعيمه، فإسناد السؤال إلى القبر تغليباً وإلا فلا ريب في أنه شيء ثابت بالنسبة إلى كل من مات سواء دفن في القبر أم غرق في البحر أم أكلته السباع أم التهمته النيران أم صُلب، فلا بُعد في أن تعاد الحياة إلى الأجزاء أو بعضها وإن كان خلاف العادة، فإن خوارق العادة غير ممتنعة في مقدور الله تعالى. كما في رؤية النبي ﷺ جبريل عليه السلام، وهو بين أظهر أصحابه مع ستره عنهم. انظر كبرى اليقينيات الكونيه ص، 310 والمواقف للإيجي ص 382 والتي تليها وشرح جوهرة التوحيد 365.

النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، فسيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، قال: فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك به مقعداً من الجنة. قال النبي ﷺ: فيراهما جميعاً، وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيقال: لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه من الثقليلين» ويقول تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ . ف (يوم تقوم الساعة) معطوف على (غدوا وعشيا) وهذا يدل على أن النار التي يعرضون عليها غدوا وعشياً هي ما بين الموت والنشور. ويوم البعث والحساب يدخلون النار التي أعدها الله دار بقاء وعذاب مقيم للكافرين من أمثال فرعون وأبي جهل. . . . فإذا قيل إن الكلام قد تمَّ عند قوله تعالى وعشيا، ثم تبتدىء (ويوم يقوم الساعة) فتبقى الدلالة كما هي أي يعرضون على النار غدواً وعشياً في الحياة البرزخية، ويوم تقوم الساعة يقال للملائكة ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾أي عذاب جهنم، فإنه أشد مما كانوا فيه أو أشد عذاب جهنم فإن عذابها ألوان بعضها أشد من بعض[1].

---

(1) انظر القرطبي 15/ 320 وت. أبي السعود 7/ 278 والتي تليها: وإنكار عذاب القبر من أصله مزلق إلى الكفر لما ثبت من الدليل القاطع فيه كما تقدم. أما إقراره من حيث الأصل مع الارتياب في أنه يكون للروح فقط أو للروح مع الجسم أو بعض أجزاء الجسم فلا ينتهي بالباحث إلى الكفر إن قال بهذا الاتجاه أو ذاك لأنه ليس فيه أدلة قاطعة كأدلة أصل التعذيب والتنعيم. غير أن أهل السنة والجماعة وجمهور المسلمين قالوا بأن ذلك يكون للروح والجسم معاً إذ هو من قبيل الممكن ولأن ظاهر النصوص الواردة تقتضي ذلك ولا حاجة إلى التأويل. فقد ثبت في الصحيح مخاطبتُه ﷺ لجثث المشركين في القليب يوم بدر. وقولُه لعمر لـمّا تعجّب من مخاطبته لتلك الأجساد: «والذي نفس محمد بيده =

وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة. وكفى بهذا بياناً.

التفسير:

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى، الذي لا يزال يجترح السيئات ولا يبالي بما يأتي من الآثام والأوزار، حتى إذا جاء الموت وعاين ما هو قادم عليه من عذاب الله ندم على ما فات، وأسف على ما فرّط في جنب الله وقال: رب أرجعني إلى الدنيا لأعمل صالحاً فيما قصرت فيه من عبادتك وحقوق خلقك. وهؤلاء الكافرون أو المفرّطون في أمر الله يطلبون الرجعة حين الاحتضار وحين النشور وحين العرض على الملك الجبار وحين يعرضون على النار وهم في غمرات جهنم فلا يجابون إليها. يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ و ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ و ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾ و ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

وقوله تعالى «كلّا» كلمة رد عن طلب الرجعة فيها ردع وزجر،

= ما أنتم بأسمع لما أقول منهم». وذهبت طائفة قليلة أخرى إلى أن ذلك كله إنما يكون للروح فقط قال الجمهور: وليس لهم دليل على التخصيص والتأويل فالقول بهما قول بما لا دليل عليه. انظر كبرى اليقينيات الكونية ص 313 والتي تليها والمواقف للإيجي 382.

أي إنا لا نجيب إلى ما طلب لأن طلبه الرد ليعمل صالحاً هو قول فحسب يطيح في أدراج الرياح، ولا عهد معه وهو كاذب فيه، فلو أجيب إلى ما يطلب لما وفّى بما يقول، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ . ومن أمامهم وبين أيديهم حاجز يحول بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا يستمر به العذاب إلى يوم القيامة. وفي هذا تيئيس كلي عن الرجعة إلى الدنيا لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلى الدنيا وإنما الرجعة يومئذ إلى الحياة الأخروية[1].

6 ـ البعـث

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

سورة التغابن: 7 وانظر البقرة: 28، 56، 243، 259، 260 والأنعام: 36 والأعراف: 14، 57، 167 وهود: 7 والرعد: 5 والحجر: 36 والنحل: 21، 38 والإسراء: 49 ـ 51، 98 والكهف: 19 ومريم: 15، 33، 36 وطه: 55 والحج: 5، 7 والمؤمنون: 16، 37، 82، 100 والشعراء: 87 والنمل: 65 والروم: 56 ولقمان: 28 وفاطر: 9 ويس: 33 79 ـ 83 والصافات: 16، 144 وص: 79 وفصلت: 39 والشورى: 9، 29 وق: 15 والواقعة: 47 ـ 72 والمجادلة 6، 18 والقيامة: 3، 4، 36 ـ 40 والمطففين: 4.

اللغة والمدلول الخاص:

البَعْثُ مصدر جاء من بعثه يبعثه بعثا ـ من باب فتح ـ بمعنى أحياه؛ ويوم البعث: هو يوم القيامة[2].

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: 87] ويقول تعالى:

(1) ابن كثير 5/ 3937 والقرطبي 12/ 149 والتي تليها والمراغي 18/ 55 وما بعدها. وت. أبي السعود 6/ 150.

(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 108 و109 ومن معاني بعث أرسل وليس هو المقصود هنا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾.

سورة الحج: 4 ـ 7.

ففي ما تقدم من كلام رب العالمين دليل قاطع على البعث وحشر الأجساد. ولكن كيف يتم ذلك؟ هل المعاد يكون بعد انعدام الأجساد من الوجود أصلاً أم بعد تفتت أجزائها وأجزاء أجزائها في طوايا الأرض أو بطون الحيتان أو أعماق البحار؟ لم يرد أي خبر قطعي عن الله جل جلاله في ذلك ولذلك ذهب بعض العلماء إلى أن الجسم ينعدم بالكلية إلا عجب الذنب ثم يعيده تعالى كما أوجده أولاً قال تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأعراف: 29]. وذهب آخرون إلى أن الجسم لا تنعدم عينه بل يفرق الله أجزاءه بحيث لا يبقى فيها جوهران فردان على الاتصال، والحشر يكون عن طريق تجميع الذرّات من التفرق والشّتات لا عن طريق إيجادها من العدم المطلق ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾ [القيامة: 4،3](*) وما ورد في قوله عز وجل من الهلاك والفناء ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾ ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ ﴾ لا

(*) ومما يدل على ذلك أيضاً ما رواه البخاري ومسلم: «إن رجلاً كان قبلكم رَغَسَهُ الله مالاً [أي أكثر له منه وبارك له فيه] فقال لبنيه لما حُضِرَ: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب. فقال: فإني لم أعمل خيراً قط فإذا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم ذرُّوني في ريح عاصف ففعلوا فجمعه الله فقال: ما حملك على هذا؟ فقال: مخافتك، فتلقاه الله برحمته.

يعني الانعدام الكلّي تقول فَنِيَ الثوبُ والعظمُ أصبح كل منهما أنكاثاً وأجزاء متفرقة لا يستفاد منها، وهلكت الدار إذا تقوضّت ولم تَعُد صالحة للسكن. والذي يعود من الإنسان إلى التجمع عين أجزائه الأصلية التي بها استقبل الحياة، أما ما زيد عليها بعد ذلك فلا يشترط أن يعاد بذاته(١).

التفسير:

يخبر تعالى عن الكفار والمشركين والملحدين أن يدعون أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء. ونظيره ما أخبر تعالى عنكم إذ يقولون ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ و ﴿ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ استبعاداً منهم للبعث والحساب. فأمر تعالى رسوله بالرد عليهم وإبطال زعمهم، قل لهم يا رسولنا محمد: بلى، إن البعث كائن لا محالة وإنكم وربي الذي برأ الخلقَ وأنشأهم من العدم ستُحاسبنَّ على أعمالكم وتجزَوْنَّ على الكثير والقليل، والصغير والكبير وذلك هيّن على الله تعالى ويسير(2).

وهذه هي المرة الثالثة التي أمر تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه عز وجل على وقوع المعاد ووجوده لما له من الشأن الجليل في حياة الناس في الدنيا والآخرة فالأولى في سورة يونس: ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ والثانية في سورة سبأ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾(3).

(1) انظر شرح جوهرة التوحيد ص 371 وكبرى اليقينيات الكونية 345 وما بعدها.
(2) ابن كثير 7/ 28 والمراغي 28/ 123 والتي تليها وت. أبي السعود 8/ 256 وما بعدها.
(3) ابن كثير الصفحة السابقة.

باب الثاء

7 - ثواب الدنيا والآخرة

قال الله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾.

سورة النساء: 134 وانظر آل عمران: 145، 148، 195 والكهف: 46 ومريم: 76 والقصص: 80 والشورى: 20.

اللغـــة:

الثَّواب والـمَثُوبَة: ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله. يقال: أثابه الله ثواباً. وثوَّبه مثوبة. ويستعمل الثواب والمثوبة في الخير والشر إلا أنهما بالخير أخص وأكثر استعمالاً. ومن هنا حُمِل استعمالها في الشر على الاستعارة التي يراد بها التهكم[1].

ومن الاستعمال في الخير قوله تعالى: ﴿ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ ومن الاستعمال في الشر قوله تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فإن ذلك استعارة في الشر كاستعارة البشارة في قوله تعالى ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾. والإثابة تستعمل في المحبوب كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 176.

جَنَّٰتٍ...﴾ وفي المكروه على الاستعارة كما تقدم. قال تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾[1].

وثَوَّبَهُ الله تثويباً: جازاه. والتثويب في القرآن لم يجيء إلا في المكروه، نحو قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾[2].

التفسير:

من يرد منكم بسعيه وجهاده في حياته نعيم الدنيا بالمال والجاه ونحوهما، فعند الله ثواب الدارين معاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فما له يطلب أخسَّهما وهو ما يفنى من حطام الدنيا ويترك أعلاهما وهو ما يبقى مع أن الجمع بينهما ميسور، فلا يقتصرنّ قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، فإن مرجع ذلك كله: إلى الذي بيده الضر والنفع، وهو الله العلي القدير. فليطلبهما كمن يقول «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار». وكانَ الله سميعاً لأقوال عباده حين مخاطباتهم ومناجاتهم، بصيراً بجميع أمورهم في جميع حالاتهم، فعليهم أن يراقبوه في الأقوال والأفعال، وبذا تزكو نفوسهم وتقف عند حدود الفضيلة التي بها تستقيم أمورهم في دنياهم ويستعدون لحياة أبدية في آخرتهم يكون فيها نعيمهم وثوابهم[3].

(1) المفردات ص 83 والتي تليها.
(2) المرجع السابق ص 84.
(3) ابن كثير 2/ 412 وت. أبي السعود 2/ 241 والمراغي 5/ 177. وقد ذهب الطبري إلى أن الآية في المنافقين، ومعناها أن الله يجازيه في الدنيا من الدنيا وفي الآخرة من الآخرة بالعقاب والنكال والآية أعم وأشمل كما ذهب ابن كثير وغيره.

باب الجيم

8 ـ جزاء حسن العمل

قال الله تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

سورة النحل: 96 وانظر آل عمران: 136، 144، 145 والمائدة: 85 والأنعام: 84، 85 والتوبة: 121 ويونس: 4 والرعد: 88 والنحل: 30، 31، 97 والكهف: 88 وطه: 76 والمؤمنون: 111 والنور: 38 والفرقان: 15 والعنكبوت: 7 والروم: 45 والأحزاب: 24 وسبأ: 4، 37 والصافات: 80، 105، 110، 121، 131 والزمر: 34، 35 والأحقاف: 14 والإنسان: 12، 22 والمرسلات: 44 والنبأ: 36 والبينة: 8.

القراءات:

قرأ عاصم وابن كثير (ولنجزينهم) بالنون على الإخبار عن الله جل ذكره عن نفسه بالجزاء الذي أكده بالقسم، وهو خروج من غيبة إلى إخبار. وقرأ قنبل وابن عامر ونافع وحمزة والكسائي وأبو عمرو وابن ذكوان وهشام «وليجزين» بالياء ردوه على لفظ الغيبة في قوله: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[1].

(1) الكشف عن وجوه القراءات 2/ 40 ومعجم القراءات 3/ 295 وانظر القرطبي 10/ 133 والبحر المحيط 5/ 533.

أسباب النزول:

قال ابن عباس: إن رجلاً من حضرموت يقال له عبدان الأشرع قال: يا رسول الله إن امرأ القيس الكندي جاورني في أرضي فاقتطع من أرضي فذهب بها مني والقوم يعلمون إني لصادق ولكنه أكرم عليهم مني، فسأل رسول الله ﷺ امرأ القيس عنه فقال: لا أدري ما يقول فأمره أن يحلف، فقال عبدان: إنه فاجر لا يبالي أن يحلف فقال: إن لم يكن لك شهود فخذ بيمينه، فلما قام ليحلف انظَرَهُ فانصرف، فنزل قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، فلما قرأهما رسول الله ﷺ قال امرؤ القيس: أما ما عندي فينفد وهو صادق فيما يقول لقد اقتطعت أرضه فليأخذ من أرضي ما شاء ومثلها معها... فنزل فيه ومن عمل صالحاً...[1].

التفسير:

إن ما تتمتعون به من نعيم الدنيا: وإن جَلّ، بل الدنيا وما فيها جميعاً تنفد وتنقضي وإن جل العدد وطال الأمد وما في خزائن رحمته تعالى الدنيوية والأخروية، من مواهب فضله ونعيم جنته لا نفاد له فهو ثابت لا يزول لمن وفي بالعهد وثبت على العقد، فلما عنده فاعملوا، وعلى الباقي الذي لا يغنى من خزائن رحمته تعالى فاحرصوا ولَنُثيبَنَّ الذين صبروا على أذية قريش وعلى مشاق الإسلام والطاعات التي تتضمن الوفاء بالعهود والمواثيق والبعد عن المعاصي، الثواب الغظيم الذي هم أهل له. كفاء صبرهم وهو أحسن أعمالهم إذ كل التكاليف محتاجة إليه وهو أسُّ الأعمال الصالحة.

(1) مجمع البيان 14/ 121. وانظر القرطبي 10/ 173. وقيل إن قوله تعالى في الآية 95 من سورة النحل ﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً﴾ فيه نهي لمن بايع النبي ﷺ أن ينكث لأجل ضعف الإسلام حينئذ وقوة الكفار ورجاه الانتفاع في الدنيا إن رجع عن البيعه ولعله هو الصحيح الملائم. والله تعالى أعلم. انظر التسهيل 2/ 161 والكشاف 2/ 343.

وفي الآية عِدةٌ جميلةٌ باغتفار ما عسى أن يكون قد فرط منهم أثناء ذلك من جزع يعتريهم بحسب الطبيعة البشرية[1].

9 ـ جزاء السوء

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾.

سورة النساء: 123 وانظر البقرة: 48، 123 وآل عمران: 86، 87، 88 والمائدة: 29 والأنعام: 120، 146 والأعراف: 40، 41، 152 والتوبة: 26، 95 ويونس: 13 والإسراء: 98 والكهف: 106 وطه: 127 والأنبياء: 29 وسبأ: 17 وفصلت: 27، 28 والأحقاف: 25 والقمر: 35 والحشر: 17.

أسباب النزول:

عن أبي صالح قال: جلس أهل الكتاب، أهل التوراة وأهل الإنجيل وأهل الأديان، كل صنف يقول لصاحبه نحن خيرٌ منكم، فنزلت.

وقال مسروق وقتادة: احتج المسلمون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب نحن أهدى منكم نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم. وقال المسلمون نحن أهدى منكم وأولى بالله نبينا خاتم الأنبياء وكتابنا يقضي على الكتب التي قبله فأنزل الله تعالى هذه الآية ثم أفلج الله حُجّة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان بقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ . .﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ . .﴾[2].

---

(1) ت. أبي السعود 5/ 138 والتي تليها والمراغي 14/ 137 وما بعدها وانظر القرطبي 10/ 173.

(2) الواحدي 134 والتي تليها وانظر ابن كثير 2/ 397 والقرطبي 5/ 396 ومجمع البيان 5/ 239.

وعن ابن عباس قال: قالت اليهود والنصارى لن يدخل الجنة إلا من كان منّا. وقالت قريش: ليس نبعث. فنزلت[1].

اللغـــة:

انظر (الجهر بالسوء) في الأخلاق الذميمة.

التفسير:

ليس الأمر بأمانيكم يا معشر الكفار ولا أماني أهل الكتاب، فليس كل من ادعى شيئاً حصل له بجرد عواه، ولا كل من قال إنه هو على الحق سُمِعَ قوله بمجرد ذلك حتى يكون له من الله برهان، فالدين ليس بالتحلّي ولا بالتمني، ولكن ما وقرفي القلوب وصدّقته الأعمال. فالنجاة ليست لكم ولا لهم بمجرد التمني بل العبرة بطاعة الله سبحانه واتباع ما شرعه على ألسنة رسله الكرام. إن من يعمل سوءاً فيرتكب صغيرة أو كبيرة يجازه الله به ولا يكون الجزاء في أتباع ملّة دون أخرى كما يتوهم أصحاب الظنون والأماني ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

روى مسلم عن أبي هريرة قال: لما نزلت ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفّارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها».

وروى الترمذي أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه قال - وقد نزلت هذه الآية - بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وأينا لم يعمل السوء، وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون، فإنكم تجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله

(1) القرطبي، الصفحة السابقة.

ليس لكم ذنوب، وأما الآخرون فيُجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة(*).

ولا يجد هذا الذي يعمل سوءاً من معاصي الله وخلاف أمره ولياً يلي أمره ينصره ويحامي عنه ويدفع عنه ما ينزل به من عقوبة الله ولا ناصراً ينصره وينجيه من عذاب الله[1].

10 ـ الجنـات

أ ـ أسماء الجنة وصفاتها:

1 ـ أجر غير ممنون:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾.

سورة فصلت: 8 وانظر القلم: 3 والانشقاق: 25 والتين/ 6.

اللغـــة:

1 ـ أَجَرَ فلانٌ فلاناً: من بأبي ضرب ونصر ـ يأجره أَجْراً. أثابه على عمل. والأَجْر والأجرة: جزاء العمل دنيوياً كان أو أخروياً ولا يقال إلا في النفع دون الضرر، إلا أن الآجرة تكون في الثواب الدنيوي[2].

2 ـ مَنَّ الشيء يَمُنُّه مناً: قطعه. تقول: مننت الحبل، ومَنَّ عليه

(*) الأحاديث بهذا المعنى كثيرة. ويرى عامة العلماء أن الأمراض والأسقام ومصايب الدنيا وهمومها يكفر الله بها الخطايا. ويرى بعضهم أن المصايب لا تكفّر إلا إذا أثرت في النفس تأثيراً صالحاً وكان سبباً في قوة الإيمان وترك السوء والتوبة منه والرغبة في صالح العمل، أما إذا ضاعفت الذنوب فلا تكفر شيئاً من الخطايا بل تزيدها والله تعالى أعلم. انظر المراغي 5/ 165 والتي تليها.

(1) ابن كثير 2/ 397 و399 والقرطبي 5/ 399،396 وم. الطبري 1/ 172 ومجمع البيان 5/ 240 والتي تليها.

(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 16 وانظر المفردات ص 10 والتي تليها.

أنعم، كان المنعم يقطع بإحسانه حاجة المحتاج، أركانه يقطع شيئاً من ماله وخيره. ويقال: مَنَّ المُحسِنُ على من أحسن إليه بإحسانه أو مَنَّ عليه إحسانَهُ: ذكره له وعدّه عليه وقرعًه. وهو يرجع إلى معنى القطع كأنه قطع ما سلف من إحسانه وأبطله[1].

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي لهم أجر غير مقطوع فهو متصل دائم، ولا أذى فيه من المنّ الذي يكدّر الصنيعة[*].

فقد عبر عن كون المؤمنين الذين عملوا الصالحات في الجنة بذكر أبرز خصائص الجنة وهو الأجر غير الممنون من التنعم الدائم المطمئن في ألوان نعيمها غير المتناهية. فهي جنة عدن أي استقرار واطمئنان وجنة النعيم ودار السلام أي السلامة الدائمة الخالصة من كل آفة وبليّة ودار القرار أي الاستقرار الحقيقي الدائم لما فيه من دوام الأمان والسعادة والسرور، وكذا هي دار المقامة. فكما دلّ تعالى بقوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣﴾ على الجنة مكتفياً من ذكرها بأبرز خصائصها وهو نعيمها كذلك دل على الجنة بقوله ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ومن الملحوظ في هذا القول جمعه لكثير من معاني أسماء الجنة ومدلولاتها كما بيناه من قبل.

أسباب النزول:

قال السدّي: نزلت في الزّمنى والمرْضى والهَرْمى إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر كأصحّ ما كانوا يعملون فيه[2].

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 626.

(*) مما لا ريب فيه أن المنّة لله تعالى على أهل الجنة ومنّته تعالى هي عين تفضله وإحسانه الذي يسعد به المؤمنون وما ذكرناه تقريب لعرف البشر وتوضيح لصفاء نعيم الجنة وخلّوه من كل آفة وبلية.

(2) القرطبي 15/ 342.

التفسير:

بعد أن ذكر تعالى وعبد الكفار أعقبه بوعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات فقال جل شأنه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾ أي إن الذين صدَّقوا الله ورسوله بأمر الآخرة من الثواب والعقاب وعملوا بما أمرهم به وانتهوا عما نهاهم عنه لهم عند ربهم الجنة ثواباً دائماً غير مقطوع بل هو متصل دائم لا أذى فيه ولا تكدير[1].

قال ابن كثير: ونحو الآية قوله تعالى: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا﴾ وقوله: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ۝١٠٨﴾[2].

2 ـ الآخرة:

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

سورة الزخرف: 35 وانظر البقرة: 102، 200 وآل عمران: 77، 152، 176 والنساء: 77 وإبراهيم: 3 والنحل: 30، 41، 107 والإسراء: 19. والشورى: 20 والقيامة: 21 والأعلى: 17.

اللغة والمدلول الخاص:

الآخِر، بكسر الخاء: مقابل الأول وجمعه آخرون ومؤنثه آخِرة واليوم الآخِر: يوم القيامة وهو النشأة الثانية وكذلك الآخرة ودار الآخرة والدار الآخرة[3].

والدار الدنيا والدار الآخرة إشارة إلى المَقَرَّيْنِ في النشأة الأولى والنشأة الآخرة. (فالآخرة مقابل الأولى). كما في قوله تعالى:

---

(1) م. الطبري 2/ 304 ومجمع البيان 7/ 24 وابن كثير 6/ 162 وانظر تفسير (لهم أجر غير ممنون) في (أسفل سافلين) من أسماء جهنم وصفاتها.

(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 29 وانظر المعجم المفهرس لعبد الباقي ص 23.21.

(3) معجم ألفاظ القرآن الكريم، الصفحة السابقة.

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) ﴾ و﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) ﴾.

وقد توصف الدار بالآخرة تارة وتضاف إليها تارة أخرى. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ .. ﴾ و ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا .. ﴾. وتقدير الإضافة دار الحياة الآخرة[1].

والآخرة ركن من أركان الإيمان والعقيدة عليها ـ بَعْدَ الدعوةِ إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده ـ تَنْصَبُّ دعوةُ الرسل، لأن عليها مدار وجود الإنسان كله، ففيها يلاقي الإنسان ربه وبعد طول حساب وميزان واجتياز صراط يستقر أصحاب الجنة في جنان خلدهم التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويستقر أصحاب العذاب في سعيرهم حيث العذاب المذهل الذي لا يكاد يتصوره خيال. ولعظيم شأن هذا الركن من أركان الإيمان والعقيدة أثنى تعالى على عباده المتقين الذين يوقنون به ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [البقرة/ 4].

فخاتمة المطاف والمراحل إنما هي الجنة والنار، بهاتين التسميتين عُرِف موضع النعيم المقيم كما عُرف موضع العذاب الأليم إلا أن بعض الآيات ذُكر فيها الآخرة أو الدار الآخرة ودار الآخرة والمراد هو الجنة ونعيمها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ و﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ ولا ريب في أن ثمة قرائن ترشد إلى أن المعرض الذي غلب فيها جانب الجنة في الآخرة إنما هو معرض مخاطبة المؤمنين أو مخاطبة الذين آثروا نعيم الدنيا الزائل على نعيم الجنة الدائم، لتنبيههم وترغيبهم، فمن الأول قوله تعالى: ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾

(1) المفردات ص 13 و174 وما بين معقوفتين [] زيادة للتوضيح وإتمام الشرح.

و﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ ومعنى الثاني: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾ و﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ و﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾. وهذه القرائن هي التي تومىء إلى أن المراد هو الجنة ونعيمها وتمنع من التباس المراد بالجانب الآخر وهو الجحيم والعذاب الشديد. وقد ذُكرت الآخرة في بعض آيات القرآن الكريم والمراد هو الجنة والنار، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أي الدار التي لا زوال منها ولا انتقال منها بل إما نعيم وإما عذاب أليم[1] وقوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة/ 4]، جامع لما في الآخرة من حشرٍ وحسابٍ وصراطٍ وجنةٍ ونار.

القراءات:

قرأ الحسن وطلحة والأعمش وعيسى وعاصم وحمزة (لمّا) بتشديد الميم و(إن) نافيه ولمّا بمعنى إلا.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وهشام وخلف ويعقوب وأبو جعفر (لَمَا) بفتح اللام وتخفيف الميم على أنّ (إنْ) مخففة من الثقيلة واللام الفارقة بين الإيجاب والنفي و(ما) زائدة و(متاع) خبر كل. وقرأ أبو رجاء وأبو حيوة (لِما) بكسراللام وخرّجوه على أن (ما) موصولة والعائد محذوف تقديره للذي هو متاع، و(إنْ) في هذا التخريج هي المخففة من الثقيلة وكل مبتدأ وخبره في المجرور، أي وإن كل ذلك لكائن أو لمستقر الذي هو متاع[2].

(1) والقرينة الدالة أيضاً على أن المراد هو الجنة والنار قوله تعالى في الآية التي تليها ﴿من عمل سيئة فلا يُجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة...﴾ [غافر/ 40] وانظر ابن كثير 6/ 140.

(2) البحر المحيط 8/ 15 وانظر القرطبي 16/ 87 وت. أبي السعود 8/ 47 والكشاف 3/ 418 والتي تليها ومجمع البيان 55/ 81.

وفي الكشاف: وقرىء: وما كل ذلك إلا[1]. ونسبت في تفسير الرازي إلى أُبيّ[2].

التفسير:

وما كل ما ذكر من البيوت الموصوفة بأن لها سقفاً ومصاعد وسرراً من فضة، وزينة في ما يُرْتَفَقُ به من شؤون الحياة، وما كل ذلك إلا متاع قصير زائل يتمتع به أهل الدنيا في الدنيا، والجنة[*] الباقية بما فيها من ضروب النعيم التي لا يحيط بها عدٌّ ولا إحصاء، ويقصُر عنها البيانُ، أعدها الله لمن اتقى الشرك والمعاصي، وعمل بطاعة ربه وآثر الآخرة على الدنيا، خاصة لهم لا يشاركهم فيها أحد.

وفي صحيح الترمذي: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» وفي الترمذي وابن ماجه، قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزنُ عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً»[3].

3 ـ باطن السور:

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾.

سورة الحديد: 13.

القراءات:

1 ـ قرأ العامة (آمنوا انْظُرُونا) بوصل الألف وضم الظاء جعلوه

---

(1) المرجع الأخير ص 419.

(2) معجم القراءات القرآنية 6/ 113.

(*) كذا في القرطبي ومجمع البيان فسرت الآخرة بالجنة. وفي غيرهما نعيم الآخرة. وهل نعيم الآخرة إلا الجنة.

(3) ت. أبي السعود 8/ 47 والمراغي 25/ 86 والقرطبي 16/ 88 ومجمع البيان 25/ 83.

من النظر، نظر العين. وقرأ حمزة والمطوعي وزيد بن علي وابن وثاب والأعمش وطلحة. (آمنوا أُنْظِرونا) بقطع الألف وكسر الظاء، جعلوه من الإنظار، وهو التأخير والإمهال كقوله تعالى: ﴿أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٤﴾ [الأعراف/ 14][1].

2 ـ وقرأ العامة (فضُرب) مبنياً للمجهول. وقرأ زيد بن علي وعبيد بن عمير (فَضَربَ) مبنياً للمعلوم[2].

اللغة والمدلول الخاص:

بطن الشيء ـ من باب قتل ـ بَطناً وبُطوناً خفي، واسم الفاعل باطن ومؤنثه باطنة، يقال لما تدركه الحاسة ظاهر ولما يخفى عنها باطن[3].

وقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ أي باطن ذلك السور فيه الرحمة أي الجنة التي فيها المؤمنون[4] ولعله سمي باطناً لأنه يخفى على حواس المنافقين والمنافقات. فالسور يُضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أُغْلِقَ البابُ وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وَجهل وشك وحيرة[5]. فالسور حاجز بيّن بين الجنة والنار[6] والجهة التي تلي السور وهو ما سمي بالأعراف في سورة

---

(1) الكشف له وجوه القراءات 2/ 309 والقرطبي 17/ 245 والبحر المحيط 8/ 221 والكشاف 4/ 66. وت. أبي السعود 8/ 207.
(2) المرجع الأخير، الصفحة نفسها. ومعجم القراءات القرآنية 7/ 83.
(3) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 106.
(4) مجمع البيان 27/ 147 وانظر ابن كثير 6/ 556.
(5) المرجع الأخير، الصفحة نفسها والتي تليها.
(6) القرطبي 17/ 246.

أخرى[1]. فيها الجنة التي وعد الله تعالى بها عباده المتقين وهذه الجهة خافية على المنافقين والكافرين. وقيل إن الهاء في باطنه عائد إلى الباب لأنه أقرب مذكور[2]، ولا خلاف في ذلك فالجهة التي تلي الباب هي نفسها الجهة الخافية على حواس المنافقين والكافرين.

التفسير:

بعد ذكر حال المؤمنين في موقف القيامة أتبعه بيان حال المنافقين فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟... ﴾ أي في هذا اليوم الذي فيه ﴿تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يقول المنافقون والمنافقات: أيها الذين نجوتم بإيمانكم بربكم وفزتم برضوانه حتى دخلتم فسيح جناته، انتظروا نلحق بكم ونقتبس من نوركم حتى نخرج من ذلك الظلام الدامس والعذاب الأليم الذي نحن مقبلون عليه، فإنا كنا معكم في الدنيا، فيجابون ـ من قبل المؤمنين أو من قبل الملائكة ـ طرداً لهم وتهكماً بهم، بما يخيّب آمالهم ويلحق بهم الحسرة والندامة: ارجعوا من حيث أتيتم، واطلبوا لأنفسكم هناك نوراً، فإنه لا سبيل إلى الاقتباس من نورنا الذي كان بما قدمنا لأنفسنا وادّخرنا لها من عمل صالح. ولا يخفى ما في هذا من التهكم بهم والاستهزاء بطلبهم، فما أرادوا بالنور إلا ما وراءهم من الظلمة الكثيفة، وذلك نظير ما استهزؤوا بالمؤمنين في الدنيا حين قالوا آمنا، وما هم بمؤمنين.

بعد هذه المقالة ضُرِب بين الفريقين حاجز جانبه الذي يلي مكان المؤمنين وهو الجنة فيه الرحمة، وجانبه الذي يلي المنافقين وهو النار فيه العذاب[3].

(1) انظر (الأعراف) في كتابنا هذا.

(2) انظر البحر المحيط 8/ 221 وم. الطبري 2/ 426.

(3) المراغي 27/ 170 وت. أبي السعود 8/ 207 وابن كثير 6/ 555 والتي تليها ومجمع البيان 27/ 147.

4 ـ جنات عدن:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

سورة التوبة: 72. وانظر الرعد: 23 والنحل: 31 والكهف: 31 ومريم: 61 وطه: 76 وفاطر: 33 وص: 33 وغافر: 8 والصف: 12 والبينة: 8.

اللغة والمدلول الخاص:

1 ـ الجَنَّةُ: الحديقة ذات الشجر. وهي دار النعيم في الآخرة وجمعت في القرآن الكريم على جُنَّات[1]. وفي غيره على جنّات وجنان[2].

وسُمِّيت الجنة إما تشبيهاً بالجنة في الأرض وإن كان بينهما بون، وإما لستره تعالى نعيمها عنا المشار إليه بقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنه: إنما قال جنات بلفظ الجمع لكون الجنات سبعاً: جنة الفردوس وعدن وجنة النعيم ودار الخلد وجنة المأوى ودار السلام وعلّيين[3].

2 ـ عدن بالمكان عَدْناً وعُدُوناً ـ من بابي ضرب وقعد ـ أقام، واستوطن ومركز كل شيء مَعْدَنُهُ. فالمعدن اسم مكان مثل مجلِس لأن أهله يقيمون عليه الصيف والشتاء أو لأن الجوهر الذي خلقه الله فيه عُدَنَ به. ولذلك يقال لـمُسْتَقَرِّ الجواهر المعْدِنُ[4].

وجنات عَدْنٍ أي جنات استقرار واطمئنان ولم يرد في القرآن إلا مضافاً إليه الجنات[5].

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 214.
(2) المصباح المنير (جنن).
(3) المفردات، 98.
(4) انظر المصباح المنير (عدن) ومعجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 179 والمفردات 326.
(5) معجم ألفاظ القرآن الكريم، الصفحة السابقة.

التفسير:

بعد أن بيّن تعالى رحمته لعباده المؤمنين إجمالاً، بيَّنَ ما وعدهم به من الجزاء المفسِّر لرحمته تفصيلاً.

وعد الله المؤمنين من الرجال والنساء بساتين مُلْتَفَّةُ الأشجار تغطي ما تحتها وتستره، تجري الأنهار من تحت أشجارها مما يزيدها جمالاً مقيمين فيها أبداً لا يزول عنهم مقيمها، ومساكن حسنة البناء يطيب لساكنيها المقام فيها لاحتوائها على ما يطلبون من الأثاث والرياش والزينة التي بها تتم راحة المقيم فيها وسروره، في جنات الإقامة والخلود لا يعتريهم فيها فناء ولا تغيّر(*).

ثم وعدهم بما هو أعلى من هذا النعيم الجسماني كله، وهو النعيم الروحاني فقال جل شأنه: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي وشيء يسير من رضوانه تعالى أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، إذ عليه يدور فوز كل خير وسعادة وبه يناط نيل كل شرف وسيادة. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك فيقول هل رضيتم؟ فيقولون وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك فيقول: ألا أعطيكم أفضل من

(*) قوله تعالى: ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن﴾ قيل عدن أبهى أماكن الجنات وأسنا، عن النبي ﷺ «عدن دار الله لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة النبيون والصديقون والشهداء يقول الله تعالى: (طوبى لمن دخلك) . وعن ابن مسعود رضي الله عنه هي بُطْنان الجنة وسرتها. فعدن على هذا علم. وقيل هو بمعناه اللغوي أي الإقامة والخلود. فمرجع العطف إلى اختلاف الوصف وتغايره، فكأنه وصفه أولاً بأنه من جنس ما هو أشرف الأماكن المعروفة عندهم من الجنات ذات الأنهار الجارية ليحيل إليها طباعهم أول ما يقرع أسماعهم، ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش معرى عن شوائب الكودرات التي لا تكاد تخلو عنها أماكن الدنيا وفيها ما تشتهي الأنفس ولكن الأعين ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات في جوار العليين لا يعتريهم فيها فناء ولا تغير. ت. أبي السعود 4/ 83 وانظر القرطبي 8/ 204.

ذلك؟ فيقولون يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً.

ذلك الوعد من الله تعالى لعباده المؤمنين والمؤمنات هو الفوز العظيم الذي، يُجزى به المؤمنون المخلصون، لا غيره من حظوظ الدنيا الفانية التي يتكالب عليها الكفار والمنافقون[1].

5 ـ جنات الفردوس:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ ﴾

سورة الكهف: 107.

اللغة والمدلول الخاص:

الفِرْدَوسُ: الوادي الخصيب، أو الروضة، أو حديقة الجنة، أو الموضع الذي فيه الكرم، [وقيل] الفردوس معربة [عن الروميّة][*]، وقد صاغوا منها الفردسة: أي السعة، والـمُفَرْدس: المعرش من الكروم واستدل بعضهم على أن الفردوس بالعربية لوجود هذا اللفظ في شعر حسان:

وإن ثــواب الله كــلَّ مــوحّــدِ جنان من الفردوس فيها يُخَلَّدُ[2]

وقد ورد الفردوس مضافةً إلى الجنات وغير مضافة. والفردوس مذكر وإنما أُنِّث في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ لأنه عنى بها الجنة[3].

(1) المراغي 10/ 161 والتي تليها والكشاف 2/ 162 وت. أبي السعود 4/ 83 وابن كثير 3/ 420 و422.

(*) انظر المعرّب للجواليقي ص 240 والتي تليها. وقد دافع محقق الكتاب عن عربية اللفظ. على أن الأدلة التي ساقها لا يُسْتَبعد أن تكون قد وُضِعَت بعد اقتباس هذا اللفظ من الرومية وتطويعه للسان العرب.

(2) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 299 واللسان (فردوس).

(3) انظر المرجعين السابقين، الصفحة نفسها.

وفي الصحيحين: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنها تفَجّرُ أنهارُ الجنة»[1].

التفسير:

يخبر تعالى عن عباده السعداء وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به وعملوا صالح الأعمال لهم بساتين الفردوس في أعلى الجنة وأوسطها منزلاً. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إنّ في الجنة مائة درجة أعدها للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة. أراه قال ـ وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجّر أنهار الجنة»[2].

6 ـ جنات المأوى:

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

سورة السجدة: 19.

القراءات:

1 ـ قرأ الجمهور (جنات المأوى) وقرأ طلحة بن مصرف (جنة المأوى) بإفراد الجنات[3].

2 ـ وقرأ الجمهور (نُزُلاً) بضم الزاي وقرأ أبو حيوة بإسكانها. (نُزْلاً)[4]. والنُّزُل: المنزِل، وما هُيِّئ للضيف أن ينزل عليه كالنُّزُلِ جمع أنزال[5].

(1) انظر ابن كثير 4/ 431.
(2) المرجع السابق والقرطبي 11/ 68.
(3) انظر البحر المحيط 7/ 203، وروح المعاني 21/ 133 وفيه نسبت إلى طلحة.
(4) البحر المحيط، الصفحة السابقة.
(5) القاموس المحيط (النزول).

اللغة والمدلول الخاص:

أوى المكان وإليه يأوي أُويا وإوياً: نزله، وفي نزل المكان معنى الانضمام والالتجاء. وآواه غيره يُؤْوِيهِ إيواء: ضمه وأنزله. المأوى اسم للمكان الذي يُؤوى إليه[1].

وجنّات المأوى نوع من الجنان، سُمّيت بذلك لما روي عن ابن عباس قال تأوي إليها أرواح الشهداء. وقيل هي عن يمين العرش[2].

قال العلامة أبو السعود ـ رحمه الله ـ: وأضيفت الجنة إلى المأوى لأنها المأوى الحقيقي، وإنما الدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة. وفي هذا الاسم [المركب تركيباً إضافياً] رمز إلى ما ذكر في الآية/ 16 المتقدمة من تجافي المؤمنين من مضاجعهم التي هي مأواهم في الدنيا[3].

التفسير:

بعد أن ذكر تعالى أحوال المؤمنين وأحوال الفاسقين في الدنيا فصل مراتب الفريقين في الآخرة، وبدأ بمراتب المؤمنين.

أما الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمروا به صالح الأعمال فلهم نوع خاص من الجنان، هي مساكن فيها البساتين والدور والغرف العالية، جزاء لهم على جليل أعمالهم وطيب أفعالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا[4].

7 ـ جنات النعيم:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾.

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 70.
(2) الكشاف 3/ 222 والبحر المحيط 7/ 203.
(3) ت. أبي السعود 7/ 85.
(4) المرجع السابق الصفحة نفسها والتي تليها، والكشاف 3/ 222 وابن كثير 5/ 414. والمراغي 21/ 115.

سورة المائدة: 65 وانظر: يونس: 9 والحج: 56 ولقمان: 8 والصافات: 43 والواقعة: 12 والقلم: 34.

اللغـــة:

النعيم: كل ما يُتَلذّذ به ويُتَنَعّم من مطعم ومفرش ومركب وغير ذلك.

ومن النعيم الصحّةُ والأمنُ. ويفسّره بعضهم بالنعم الكثيرة، وبعضهم بلين العيش ورغدِهِ، وقد يأتي بمعنى التلذّذ بالنعم والتمتع بها. وكثيراً ما يأتي النعيم مضافاً إلى الجنة أو الجنات فيقال: جنة نعيم أو جنات النعيم أي التنعُّم[1].

التفسير:

ولو أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى صدّقوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم ومن جملتها مخالفة كتابهم، لمحونا عنهم ذنوبهم التي اقترفوها وسترناها عليهم فلم نفضحهم، ولم نؤاخذهم بها وإن كانت في غاية العظم، ونهاية الكثرة ولأدخلناهم في الآخرة جنات يتنعّمون بها.

وفي ذلك إعلام من الله بعظم معاصي اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم، ودلالة على سعة رحمته، وفتحه باب التوبة لكل عاص. وأن الإسلام يجبّ ما قبله من السيئات وإنْ جلّت وجاوزت كل معهود، وإخبار بأن الإيمان لا ينجي إلا إذا شفع بالتقوى[2].

8 ـ جنة الخلد:

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾.

سورة الفرقان: 15.

---

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 702.

(2) ت. أبي السعود 3/ 59. والمراغي 6/ 156 وم. الطبري 1/ 207 وابن كثير 2/ 606.

اللغـــة:

الـخُلْدُ: دوام البقاء. خَلَدَ يَخْلُدُ خلوداً وخُلْداً: دام بقاؤه فهو خالد وهما خالدان وهم خالدون(1).

وإضافة الجنة إلى الخلد للمدح، وقيل للتمييز عن جنات الدنيا(2).

التفسير:

حل لهؤلاء المكذبين، تقريعاً لهم وتهكماً بهم وتحسيراً على ما فاتهم: أهذه النار التي وُصفت وأعتدت بأحوالها الهائلة لمن كذَّبَ بالساعة خير(*) أم جنة الخلد التي يدوم نعيمها ولا يبيد، وقد وعدها الله لمن اتقاه في الدنيا بطاعته فيما أمره به ونهاه. وكانت لهم جزاء أعمالهم في الدنيا بطاعته، وثواباً لهم على تقواه ومرجعاً لهم ينتقلون إليه في الآخرة(3).

9 ـ جنة عالية:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾.

سورة الغاشية: 8ـ10 وانظر الحاقة: 22.

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 347.

(2) ت. أبي السعود 6/ 207.

(*) إن قيل كيف قال «أذلك خير» ولا خير في النار: فالجواب أن اسم التفضيل له ثلاث استعمالات، منها أن يُراد به أن شيئاً زاد في صفة نفسه على شيء آخر في صفته، قال الزمخشري في الكشاف: فمن وجيز كلامهم «الصيف أحر من الشتاء» و«العسل أحلى من الخل» وحينئذ لا يكون بينهما وصف مشترك. ومعنى ما تقدم من المثالين أن الصيف أبلغ في حره من الشتاء في برده، وأن العسل في حلاوته زائد على الخل في حموضته. وفي القرطبي 13/ 9. إنما قال ذلك على معنى علمكم واعتقادكم أيها الكفار، وذلك أنهم لما كانوا يعملون عمل أهل النار صاروا كأنهم يقولون إن في النار خيراً.

(3) ت. أبي السعود 6/ 207 والمراغي 18/ 157 وم. الطبري 2/ 109.

اللغة والمدلول الخاص:

علا الشيء عُلُوّاً ـ من باب قعد ـ ارتفع فهو عالٍ[1]. وهي عالية.

ووصفت الجنة بأنها عالية أي مرتفعة لأنها فوق السموات السبع أو لأنها عالية القدر في النفوس لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. وهم فيها خالدون[2].

قال أبو السعود: عالية: مرتفعة المكان لأنها في السماء أو عالية الدرجات أو الأبنية أو الأشجار أو علية المقدار[3].

وقال ابن كثير: عالية: أي رفيعة مقدرها، حسان حورها، نعيمة دورها، دائم حبورها[4].

ويفسر الطبرسي علو الجنة فيقول: قيل إن علو الجنة على وجهين علو الشرف والجلالة وعلو المكان والمنزلة بمعنى أنها مشرقة على غيرة وهي أنزه ما تكون، والجنة درجات بعضها فوق بعض كما أن النار دركات[5]. وهذا أوفى تفسير وتعليل.

فلعل المراد ـ والله تعالى أعلم ـ في جنة ـ من جنات الله الرفيعة الشأن التي فيها فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، متميزةٍ برفعةٍ خاصةٍ في القدْرِ والمكانِ والنعيم والتنعم.

التفسير:

بعد أن بيّن تعالى حال الكفرة، أهل النار يوم القيامة، بيّن حال

(1) المصباح المنير (علا).
(2) القرطبي 20/ 32 و8/ 270.
(3) ت. أبي السعود 9/ 25 و150.
(4) ابن كثير 7/ 105.
(5) مجمع البيان، 30/ 115.

المؤمنين الصادقين أهل الجنة، لتقرَّ أعينهم بما سيلقون من فضله تعالى.

ووجوه أخرى ـ وهي وجوه أهل الإيمان ـ يوم القيامة، ذات بهجة وحسن كقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ لأنها منعمة فرحة بما لاقت من أنواع النعيم في الجنة جزاء سعيها في الدنيا. ولثواب سعيها وعملها في الدنيا من الطاعات راضية حين شاهدت ثمرته وعاقبته الحميدة في الآخرة.

وبعد أن وصف أهل الثواب من المؤمنين وصف ديارهم فقال (في جنة عالية) أي في جنة متميزة بعلوّ في المكان والدرجة، فالجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض كما أن نعيم الجنة بعضه أرفع من بعض كما ثبت في الحديث الشريف[1]: «إن في الجنة مائة درجة أعدها للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»[2].

10 ـ جنة المأوى:

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾.

سورة النجم: 15.13.

القراءات:

قرأ الجمهور (جَنَّةُ المأوى) وقرأ علي وأبو الدرداء وأبو هريرة وابن الزبير وأنس وزر ومحمد بن كعب وقتادة: (جَنَّهُ المأوى) بهاء الضمير، و(جن) فعل ماض والهاء ضمير النبي ﷺ، أي عندها ستره إيواء الله تعالى وجميل صنعه. وقيل: المعنى ضمه المبيت والليل.

(1) الكشاف 4/ 206 وت. أبي السعود 9/ 149 والتي تليها والمراغي 30/ 133 وما بعدها ومجمع البيان 30/ 115.

(2) أخرجه البخاري وقد تقدم في (جنات الفردوس).

وقيل: جَنَّهُ بظلاله ودخل فيه(1).

اللغة والمدلول الخالص:

تقدم القول في المدلول الخاص لـ (جنات المأوى) في الآية التاسعة عشرة من سورة السجدة. عند الحديث عن جنات المأوى. أما في الآية الخامسة عشرة من سورة النجم فثمة أقوال يشابه بعضها ما تقدم ويطابقه وبعضها يختلف عنه.

قال الحسن: هي التي يصير إليها المتقون. وقال ابن عباس: إنها الجنة التي يصير إليها أرواح الشهداء. وقيل: هي الجنة التي أوى إليها آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن خرج منها وهي في السماء السابعة وقيل لأنها تأوي إليها أرواح المؤمنين وهي تحت العرش فيتنعمون بنعيمها ويتنسمون بطيب ريحها. وقيل لأنها جنة مأوى الملائكة أو مأوى جبريل وميكائيل عليهما السلام. وما قاله الحسن أظهر وأشهر. والله تعالى أعلم(2).

التفسير:

ولقد رأى النبي ﷺ جبريل في صورته التي خلقه الله عليها نازلاً من السماء نزلة أخرى وهي التي في ليلة المعراج (أما الأولى فهي التي كانت في غار حراء في بدء النبوّة) وذلك عند شجرة النبق في السماء السابعة عن يمين العرش، تلك الشجرة التي ينتهي إليها علم كل عالم وما وراءها لا يعلمه إلا الله كما قال ابن عباس. وقد روى أحمد ومسلم والترمذي أن نبت هذه الشجرة كتِلال هَجَر وأوراقها مثل آذان الفيلة يسير الراكب في ظلها سبعين خريفاً لا يقطعها.

(1) البحر المحيط 8/ 159 وانظر مجمع البيان 27/ 45. والكشاف 4/ 39 والقرطبي 17/ 96 وقد أنكرت عائشة رضي الله عنها هذه القراءة وقيل إنها أجازتها كما ذكر في البحر ص 160.

(2) انظر المرجع السابق ص 159 ومجمع البيان 27/ 47 والتسهيل 4/ 76 والقرطبي 17/ 96.

ولعل المراد بالمنتهى(*) الله عز وجل أي سدرة الله الذي إليه المنتهى(**) كما قال سبحانه ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾. وعند هذه السدرة الجنة التي يأوي إليها المتقون يوم القيامة كما قال الحسن البصري(1).

11 ـ جنة نعيم:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

سورة الواقعة: 88 و89 وانظر المعارج: 38.

القراءات:

قرأ الجمهور (فَرَوْحٌ) بفتح الراء ومعناه عند ابن عباس وغيره فراحة من الدنيا وعند الحسن: الرّوح: الرحمة. والضحاك: الاستراحة.

وقرأت عائشة عن النبي ﷺ، وابن عمر وابن عباس والحسن وقتادة ونوح القارىء والضحاك والأشهب وشعيب بن الحبحاب وسليمان التيمي والربيع بن خيثم ومحمد بن علي وأبو عِمران الجوني والكلبي وفياض وعبيد وعبد الوارث عن أبي عمرو ويعقوب بن صيان وزيد ورويس عنه بضمها (فَرُوحٌ). قال الحسن: الرُّوح الرحمة لأنها

(*) قوله تعالى: ﴿ولقد﴾ اللام جواب للقسم المحذوف تقديره وبالله لقد رأى... انظر ت. أبي السعود 8/ 156.

(**)في تسمية (سدرة المنتهى) تسعة أقوال هي: الأول: ينتهي إليها كلما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها. والثاني: ينتهي إليها علم الأنبياء ويغرب علمهم عما وراءها. الثالث: أن الأعمال تنتهي إليها وتقبض منها. الرابع: لانتهاءِ الملائكة والأنبياء إليها ووقوفهم عندها. الخامس: تنتهي إليها أرواح الشهداء. والسادس: تنتهي إليها أرواح المؤمنين. السابع: ينتهي إليها كل من كان على سنة محمد ﷺ ومنهاجه. والثامن: هي شجرة على رؤوس حملة العرش إليها ينتهي علم الخلائق. التاسع: لأن من رُفِعَ إليها فقد انتهى في الكرامة. انظر القرطبي 17/ 95. والبحر المحيط 8/ 159.

(1) ت. أبي السعود 8/ 8/ 156. والكشاف 4/ 38 والتي تليها والمراغي 27/ 48 وما بعدها.

كالحياة للمرحوم وعن عائشة رضي الله تعالى عنها معناه: فبقاء له وحياة في الجنة وهذا هو الرحمة[1].

اللغـــة:

انظر (جنات النعيم).

التفسير:

بعد أن ذكر الله حال المحتضرين في الدنيا أردفها ذكر حالهم بعد الوفاة وقسمهم أزواجاً ثلاثة، وقد ذكر في الآية أولهم.

فإن كان المتوفى من الذين قرّبهم ربهم من جواره في جناته لفعله ما أمر به، وتركه ما نهى عنه ـ والمقربون هم السابقون الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات ـ فإن كان من المقربين فراحة واطمئنان لنفسه، ورزق واسع من عنده وتبشره الملائكة بجنة ذات تنعُّم، يتلذذ بنعمها ويتمتع بها. وقد جاء في حديث البراء بن عازب: «إن ملائكة الرحمة تقول: أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب، كنت تَعْمُرِينَهُ، فاخرجي إلى رَوْح ورَيْحان ورب غير غضبان»[2].

12 ـ الحُسنىٰ:

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾.

سورة النساء: 95 وانظر يونس: 26 والرعد: 18 والنحل: 62 والكهف: 88 وفصلت: 50 والنجم: 31 والحديد: 10.

(1) البحر المحيط 8/ 215 والقرطبي 17/ 232.

(2) الكشاف 4/ 63 وابن كثير 6/ 540 والمراغي 27/ 155 وت. أبي السعود 8/ 201.

أسباب النزول:

روى البخاري عن البراء قال: لما نزلت ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها فجاء ابن مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ (1).

القراءات:

1 ـ قرأ أهل الكوفة وأبو عمرو «غيرُ» بالرفع، على أنه حقق للقاعدين، لأنهم لم يُقصد بهم قومٌ بأعيانهم فصاروا كالنكرة فجاز وصفهم بغير والمعنى: لا يستوي القاعدون غيرُ أولي الضرر؛ أي لا يستوي القاعدون الذين هم غير أولي الضرر، والمقصود لا يستوي القاعدون الأصحاء. وقرأ أبو حيوة (غيرِ) بالكسر، جعله نعتاً للمؤمنين، أي من المؤمنين الذي هم غير أولي الضرر من المؤمنين الأصحاء. وقرأ أهل الحرمين (غيرَ) بالنصب على الاستثناء من القاعدين أو من المؤمنين، أي إلا أولي الضرر فإنهم لا يستوون مع المجاهدين، ويجوز على الحال من القاعدين أي لا يستوي القاعدون من الأصحاء أي في حال صحتهم، وجازت الحال منهم لأن لفظهم لفظ معرفة. وما ذُكِرَ من أسباب النزول يدل على معنى النصب. والله تعالى أعلم(2).

2 ـ وقرأ الجمهور (وكلاً) على أن المفعول الأول لـ (وعد) و(الحسنى أحد المفعول الثاني).

وقرىء (وكلٌّ) أي وكلهم، والعائد محذوف أي وعده الله

(1) انظر ابن كثير 2/ 366 والواحدي 131. ولسبب النزول هذا روايات أخرى. والثابت أن المقصود هم القاعدون عن بدر والخارجون إلى بدر كما ورد في البخاري والترمذي.

(2) القرطبي 5/ 343 والتي تليها وانظر الكشف عن وجوه القراءات 1/ 396 والبحر المحيط 3/ 330 ومجمع البيان 5/ 201 والكشاف 1/ 291 وت. أبي السعود 2/ 220.

أجراً، قيل هو مصدر من غير لفظ الفعل، لأن معنى فضلهم أجرهم، وقيل هو مفعول به لأن فضلهم أعطاهم وقيل التقدير بأجر[1].

اللغـــة:

حَسُنَ الشيءُ يَحْسُنُ حُسْناً: صار حسناً جميلاً، فالحُسنُ حالة حِسِّيَّة أو معنوية جميلة تدعو إلى قبول الشيء ورغبة النفس فيه ويكون في الأقوال والأفعال والذرات والمعاني. كما في قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ و ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ و ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ و﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤﴾ و﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾

وأحْسَنُ أفعل تفضيل من الحُسْن. والحسنى مؤنث الأحسن كما أن الحسنة مؤنث الحُسَن[2].

وفي الآيات التي أحصيناها أريد بالحسنى الجنة ونِعَمها العظيمة وفي سائر الآيات الأخرى لها معان يدل عليها السياق ولا تخرج عن نطاق النهاية أو الغاية في الحُسْن.

التفسير:

لا يتساوى المتخلفون عن الجهاد بأموالهم بخلاً بها وحرصاً عليها وبأنفسهم إيثاراً للراحة والنعيم على التعب وركوب الأخطار مع المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، إلا أن يكون النكوص عن الجهاد لعجز وضرر كالعمى والزّمانة والمرض، فلا تبعة فيه حينئذٍ إن الله تعالى فضل المجاهدين على القاعدين من أولي الضرر فضيلة ومنزلة بفضل الجهاد بالنفس، فقد أعلى ذكرهم ورفعهم بالثناء والمدح، ووعد تعالى كلاًّ منْ جاهد وقعد عن الجهاد عجزاً منه مع

(1) إملاء ما من به الرحمن 1/ 191 والتي تليها وانظر البحر المحيط 3/ 333.
(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 260 والتي تليها.

تمنّي القدرة عليه؛ المثوبة الحسنى وهي الجنة فكل منهما كامل الإيمان مخلص العمل. أخرج البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه، قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ نعم حبسهم العذر». وفضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على المتخلفين عن الجهاد من غير أولي الضرر أجراً عظيماً[1].

13 ـ الدار الآخرة:

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

سورة القصص: 83 وانظر البقرة: 94 والأنعام: 32 والأعراف: 169 والقصص: 77 والأحزاب: 29 وأضيفت الدار إلى الآخرة في يوسف: 109 والنحل: 30.

اللغة والمدلول الخاص:

انظر ما تقدم في (الآخرة) من أسماء الجنة.

التفسير:

تلك الدار التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها نجعل نعيمها للذين لا يريدون ترفعاً على خلق الله ولا تكبراً على الإيمان والمؤمنين، ولا عملاً بالمعاصي من الظلم والعدوان على العباد. وعن علي رضي الله تعالى عنه: «إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه». فيدخل تحت هذه الآية، وهذا

(1) م. الطبري 1/ 166 والمراغي 5/ 129 والتي تليها واالقرطبي 5/ 341 و342 و344 والكشاف 2/ 292. وقد ذهب ابن كثير إلى أن التفضيل على غير أولي الضر في قوله تعالى: ﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾ وما اخترناه أظهر وهو ما ذهب إليه الطبري والزمخشري وغيرهما.

محمول (على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره فإن ذلك مذموم، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه أوحي إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد» وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل، فهذا لا بأس به، فقد ثبت أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أحب أن يكون ردائي حسناً ونعلي حسنة، أفمن الكبر ذلك؟ فقال: «لا، إن الله جميل يحب الجمال».

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي والعاقبة المحمودة من النجاة ودخول الجنة، للذين يتقون عقاب الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه[1].

14 ـ دار السلام:

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

سورة يونس: 25 وانظر الأنعام: 127.

اللغة والمدلول الخاص:

1 ـ الدار: المنزل المبني، والموضع الذي يسكنه الناس، يقال: ديار بكر لبلادهم، وجمع دار ديار[2].

2 ـ سَلِمَ يَسْلَمُ سَلاماً وَسَلامةً: خلص ونجا وخلا من العوارض والموانع، فهو سالم وهم سالمون. فالسلام: النجاة والأمان من الشرور والآفات. ودار السلام: الجنة، لأنها دار أمان[3]. قال ابن كثير: دار السلام أي [السلام] من الآفات والنقائص والنكبات. وإنما وصف الله الجنة [في الآية 127 من سورة الأنعام] بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم المقتفي أثر الأنبياء

(1) الكشاف 3/ 180 وتفسير أبي السعود 7/ 27 وابن كثير 5/ 303 ومجمع البيان 20/ 328.

(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 408.

(3) المرجع السابق ص 585 والتي تليها.

وطرائقهم فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام[1]. وهي دار السلامة الدائمة الخالصة من كل آفة وبلية مما يلقاه أهل النار[2].

وقيل إن السلام هو الله تعالى وداره الجنة قاله الحسن والسدي. فالجنة ملكه وخلقه أضافها إليه سبحانه. أو دار يسلم الله أو الملائكة فيها على من يدخلها أو يسلم بعضهم على بعض[3].

ومهما يكن من قول في ذلك فدار السلام اسم يُطلق على الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين.

التفسير:

لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها رغّبَ في الجنة ودعا إليها، فالإيثار لمتاع الدنيا والغرور بها هو ما يدعو إليه الشيطان، فيوقع متّبعيه في جهنم دار النكال والوبال، والله يدعو الناسَ جميعاً إلى الجنة دار السلام؛ السلام من الآفات والنقائص والنكبات التي يلقاها أهل النار، إذ يأمرهم بما يوصِّلُ إليها.

ويوفق من يشاء منهم - وهم الذين علم أن اللطف يجدي عليهم لاستعدادهم للعمل بسنن الدين والاستقامة عليه - إلى الطريق الموصل إليها بلا تعويق، لأنه طريق مستقيم لا عوج فيه وهو الإسلام، عقائده وفضائله وأحكامه[4].

(1) ابن كثير 3/ 100 و496.
(2) مجمع البيان 8/ 193.
(3) انظر المرجع السابق و11/ 36 منه أيضاً. والقرطبي 7/ 83 و8/ 328 والتسهيل 2/ 21 والكشاف 2/ 187 وت. أبي السعود 4/ 138.
(4) ابن كثير 3/ 496 والمراغي 11/ 95 والكشاف 2/ 187 والتي تليها وت. أبي السعود 4/ 137 وما بعدها.

هذا، وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الإرادة وأن من أصرَّ على الضلالة لم يرد الله رشده[1].

15 ـ دار القرار:

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾

سورة غافر: 39.

اللغة والمدلول الخاص:

قرَّ في المكان يقَرُّ ويقِرُّ ـ بفتح القاف وكسرها ـ قراراً، أقام أو ثبت فيه ولم يغادره. واستقر في المكان يستقر: قرَّ فهو مُسْتَقِرٌ فالقرار مكان الثبات والاستقرار[2]. وأصله من القُرِّ وهو البرد وهو يقتضي السكون، والحَرُّ يقتضي الحركة[3].

ودار القرار هي الآخرة التي لا زوال لها ولا انتقال منها ونطلق على الجنة ذات النعيم المقيم والنار ذات العذاب الشديد الدائم، والسياق أو القرينة هي التي تفصح عن المراد، الجنة أو النار فيمكن القول هو منعَّم في الآخرة دارِ القرار أي في الجنة، ذاك معذب في الآخرةِ دار القرار أي في جهنم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ يشمل الجنة والنار، فالمؤمنون في الجنة يستقرون كما أن الكافرين في جهنم خالدون. فلا زوال ولا انتقال. وفي ذلك تحذير من الركون إلى المعاصي الموصلة إلى الاستقرار في النار وترغيب في طاعة الله الموصلة إلى الاستقرار في الجنة ذاك الاستقرار الحقيقي لما فيه من الأمان والسعادة والسرور الدائم.

(1) المرجع الأخير ص 138 وانظر القرطبي 8/ 329.
(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 363.
(3) المفردات، 397.

التفسير:

بعد أن دعا مؤمن آلِ فرعون، الذي كان يكتم إيمانه، قَوْمَهُ إلى قبول ملّة موسى عليه السلام، التي هي سبيل الخير والرشاد، زهّدَهُم في الدنيا التي قد آثروها على الآخرة، فصدوا عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام، فقال لهم: يا قوم ما هذا النعيم الذي عُجِّلَ لكم في هذه الحياة الدنيا إلا قليل المدى تستمتعون به إلى أجل أنتم بالغوه ثم تموتون، وإن الآخرة هي دار الاستقرار التي لا زوال لها ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، ففيها إما نعيم مقيم وإما جحيم وعذاب دائم أليم، وفي ذلك ترغيب فيما يوصل إلى نعيم دار القرار وتنفير مما يؤدي إلى جهنم بئس القرار[1].

16 ـ دار المتقين:

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30) ﴾.

سورة النحل30.

القراءات:

قرأ الجمهور (ولنعم دارُ) [على أن اللام لام الابتداء، ونعم فعل ماض لإنشاء المدح ودار المتقين فاعل، والمخصوص بالمدح محذوف أي هي]. وقرأ زيد بن علي (ولنعمةُ دارِ) بتاء مضمومة ودار مخفوض بالإضافة، فيكون نعمةُ مبتدأ وجنات في الآية 31 الخبر[2].

اللغة:

تقدم القول عن التقوى في (التقوى) من الأخلاق الحميدة.

(1) انظر ابن كثير 6/ 140 والمراغي 24/ 74 والقرطبي 15/ 316 والتي تليها.

(2) البحر المحيط 5/ 488. وما بين المعكوفتين [] زيادة وصفتها لتوضيح الوجه في قراءة الجمهور.

ودار المتقين هي الجنة في قول الجمهور. وقال الحسن: «ولنعم دار المتقين» الدنيا لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة[1]. وما قاله الجمهور أولىٰ.

التفسير:

وقيل للذين خافوا عقاب ربهم فاتبعوا أوامره واجتنبوا نواهيه: أي شيء أنزله ربكم؟ قالوا أنزل خيراً وبركة ورحمة لمن اتبع دينه وآمن برسوله. روي أنه كان يرد الرجل من العرب مكة في أيام الموسم فيسأل المشركين عن محمد عليه السلام فيقولون: ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون، ويسأل المؤمنين فيقولون: أنزل الله عليه الخير والهدى والمراد القرآن. وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ... حَسَنَةٌ﴾ تفصيل المؤمنين لهذا الخير.

وقيل إن هذا يقال لأهل الإيمان يوم القيامة[*].

للذين آمنوا بالله ورسوله وأطاعوه في هذه الدنيا، ودعَوْا عباده إلى الإيمان والعمل بما أمر به مثوبة حسنة من عند ربهم كفاء ما قدموا من عمل صالح وخير عميم.

ثم أخبر تعالى بأن دار الآخرة خير من الحياة الدنيا والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا. ونعمت الآخرة داراً للمتقين الذين أطاعوا الله بأوامر فرائضه واجتناب معاصيه[2].

17 ـ دار المقامة:

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ

(1) انظر القرطبي 10/ 101.

(*) إلى هذا ذهب ابن كثير انظر تفسيره 4/ 192. وانظر القرطبي 10/ 100.

(2) انظر المرجعين السابقين والمراغي 14/ 73 والتي تليها وت. أبي السعود 5/ 110. وم. الطبري 1/ 451.

أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾.

سورة فاطر: 34و35.

اللغة والمدلول الخاص:

أقام بالمكان إقامةً: استقرَّ فيه، وجعله وطناً. والـمُقامُ الإقامَةُ. مصدر ميمي من أقام والـمُقام: محل الإقامة واسم مكان من أقام والـمُقامة: الإقامة(1).

ودار المقامة: دار الإقامة التي لا انتقال عنها أبداً وهي الجنة والآخرة بما فيها من الجنة والنار أشير إليها بدار القرار وإن كان المقصود الترغيب في نعيم الجنة الدائم إلا أن (دار المقامة) وهي الإقامة الدائمة لم تطلق إلا على الجنة، والقرينة التي تدل على ذلك ظاهرة في سياق الآية التي ورد فيها وذلك على الرغم من أن النار هي أيضاً دار الإقامة الدائمة لمن شاء الله تعالى من الكافرين والمشركين ولعل السبب في ذلك ـ والله تعالى أعلم ـ أن (دار القرار) أريد بها التنبيه على أن ديمومة الحال في الآخرة، التي إليها المصير بين يدي رب العالمين، حيث يستقر العبد المؤمن الذي صدق بالله ورسوله واجتنب المعاصي وأدّىٰ الفرائض وأخلص النية، في جنات النعيم، كما يستقر مَنْ عصى الله وكفر في نار جهنم. فصِفَةُ دار القرار سيقت في معرض الترغيب والترهيب أو التنبيه على أن الاستقرار الحقيقي هو في الجنة دار القرار المطلوب. أما هنا فدار المقامة تشير مباشرة إلى الإقامة الحقيقية التي يبغيها كل امرىء سليم الطباع، لما فيها من الأمن والسرور والتنعم أما الجحيم فساءت مستقراً ومقاماً، لأن الإقامة فيها نتيجة لفساد الطباع وسوء الاختيار الذي أدى إلى سوء الـمُنقلبِ، وإلى

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 422 و426 و427.

الإقامةِ التي فيها كل ألوان القهر والعذاب والخوف. وعندها يتنبه المرء ويندم، ولات ساعة مندم، إلا أن يتغمده اللهُ برحمته الواسعة. ولذلك لم توصف بدار المقامة مباشرة، وذُكرت الإقامة فيها في معرض الذم «إنها ساءت مستقراً ومقاماً».

التفسير:

وقال المصطَفَونَ من عباده تعالى حين أدخلهم ربهم الجنة: الحمد لله الذي أذهب عنا ما كنا نتخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة. وعن رسول الله ﷺ «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في محشرهم ولا في مسيرهم وكأني بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم ينفضون التراب عن وجوههم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن».

إن ربنا لغفور لذنوب المذنبين، شكور للمطيعين فهو الذي أنزلنا الجنة التي لا انتقال عنها أبداً من إنعامه وتفضله ورحمته، من غير أن يوجب ذلك شيء من قِبَلِنا. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ «لن يدخل أحداً منكم عملُه الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(*). ولا يصبنا فيها تعب ولا وهن ولا فتور(1).

18 ـ رحمة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾.

(*) مما لا ريب فيه أن الله تعالى ليس مجبوراً في خلقه وفي حكمه على أي شيء، إلا أن الله كتب على نفسه في صريح كتابه أن يثيب الطائع لطفاً منه ورحمة فلا بد أن ينفذ وعده لأنه أخبرنا بذلك ولأنه أصدق الصادقين. انظر كبرى اليقينيات الكوفية ص 151.

(1) ابن كثير 5/ 587 والتي تليها. وت. أبي السعود 7/ 153 وما بعدها.

سورة النساء: 174 و175 وانظر آل عمران: 107 والحديد: 13.

اللغة والدلالة الخاصة:

رَحِمه يَرْحَمهُ رَحْماً ورُحْماً ورَحْمةً ومَرْحمة: رقَّ له قلبه وعطف عليه، فهو راحم، ويقال في المبالغة رحيم، وأفعل التفضيل أرْحَم، وجمع رحيم رحماء.

والرحمة من الله الإحسان، وأكثر الآيات رحمة من الله أي إحسان. وتطلق الرحمة أيضاً على ما يكون سبباً في رحمة الله من كتاب أو رسول. وتطلق على النعمة التي تنشأ عن الرحمة.

وقوله تعالى: ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ يعني الجنة ماكثون فيها أبداً لا يبغون عنها حولاً[1]. وقوله تعالى: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي نعمة منه هي الجنة. فالرحمة الجنة كما قال ابن عباس[2] وهي النعمة الكبرى التي نشأت عن الرحمة فأطلق عليها اسم الرحمة.

التفسير:

بعد أن حاجَّ ـ جل شأنه ـ أهل الزيغ والضلال جميعاً من النصارى واليهود والمنافقين والمشركين، وأقام الحجة عليهم جميعاً وظهرت نبوة محمد ﷺ ظهور الشمس، نادى الناس كافة ودعاهم إلى اتباع برهانه والاهتداء بنوره فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ أي قد جاءكم من قِبَل ربكم برهان جليٌّ يبيّن لكم حقيقة الإيمان به وبجميع ما أنتم في حاجة إليه من أمر دينكم مؤيد بالدلالات والبينات، ألا وهو النبي الأمي محمد ﷺ وأنزلنا إليكم بما أوحينا إليه كتاباً هو كالنور في الهداية للناس مبيناً

(1) ابن كثير 2/ 87 وانظر القرطبي 4/ 169.

(2) مجمع البيان 6/ 306 وتفسير أبي السعود 2/ 263.

لكل ما أنزل لبيانه من توحيد الله وربوبيته ـ وهو المقصد الأعلى الذي بعث به جميع الرسل ـ ومما هم في حاجة إليه في معاشهم ومعادهم ليتدبروا آياته ويسعدوا به في حياتهم الدنيا وينالوا به الخير في العقبى.

فأما الذين صدَّقوا بوحدانية الله واعترفوا ببعث محمد ﷺ وتمسكوا بالنور المبين الذي أنزله على نبيه فسوف يدخلهم في رحمة منه خاصة منه وهي الجنة لا يدخل فيها سواهم، وفضل خاص لا يتفضل به على غيرهم. قال ابن عباس: «الرحمة الجنة، والفضل ما يتفضل به عليهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

ويهديهم طريقاً قويماً، وهداية خاصة تبلِّغهم السعادة، في الدنيا بالعزة والكرامة، وفي الآخرة بالجنة والرضوان، تتجلى بتوفيقهم لسلوك دين الله الذي ارتضاه منهجاً لعباده وهو الإسلام. وهذا الطريق القويم لا يهدي إليه إلا الاعتصام بالقرآن الكريم واتباع سنة سيد المرسلين. وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: «القرآن صراط الله المستقيم وحبل الله المتين»(1).

19 ـ روضة:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٖ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

سورة الروم: 15.

اللغـــة:

الروضة: الأرض ذات الخضرة، والبستان الحسَنُ، والمكان الذي يجتمع فيه الماء ويكثر نبتُه ويعجب زهره، والجمع: روض

(1) القرطبي 6/ 27 وابن كثير 2/ 462 والتي تليها ومجمع البيان 6/ 306 وم. الطبري 1/ 185 والمراغي 6/ 36 وما بعدها.

ورياض وروضات[1]. ولم يرد في القرآن سوى روضات وتنكير الروضة في الآية للتفخيم والمراد بها الجنة[2].

التفسير:

يبيّن تعالى حال فريق المؤمنين وفريق الكافرين يوم القيامة ويبدأ بذكر حال المؤمنين لعلو منزلتهم:

فأما الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بما أمرهم الله به وانتهوا عما نهاهم عنه، فهم في جنة «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» يمرحون ويتلذذون بالسماع والعيش الطيب النهي. روي «إن في الجنة لأشجاراً عليها أجراس من فضة، فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحاً من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار فتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طرباً»[3].

20 ـ روضات الجنات:

﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾.

سورة الشورى: 22.

اللغة:

انظر ما تقدم في (روضة).

التفسير:

ترى الكافرين بالله ـ أي المخاطب ـ يوم القيامة خائفين أشد

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 508.
(2) تفسير أبي السعود 7/ 53.
(3) المرجع السابق الصفحة نفسها والتي تليها والكشاف 3/ 200 والقرطبي 14/ 13.11 والمراغي 21/ 34.

الخوف من العقاب الذي استحقوه جزاء ما كسبوا من المعاصي ووباله من العقاب المستحق نازل بهم، وهم ذائقوه لا محالة أشفقوا أم لم يشفقوا.

والذين صدقوا بالله وعملوا بما أمرهم الله به وانتهوا عما نهاهم عنه هم في الآخرة، مستقرون في أطيب بقاع الجنات وأنزهها، لهم ما تشتهيه أنفسهم وتلذه أعينهم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذلك الذي أعطاهم ربهم من النعيم والكرامة، هو الفضل الكبير الذي منَّ الله به عليهم، وهو الذي يفضل كل نعيم وكرامة في الدنيا. إذ نالوا نعيماً لا ينقطع بعملٍ قليلٍ متقطع[1].

21 ـ طوبى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

سورة الرعد: 29.

القراءات:

1 ـ قرأ الجمهور: (طوبى) من غير إمالة على أنه مصدر من طاب كبشرى وزلفى[2].

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وورش (طوبي: بالإمالة[3]. لأن الألف زائدة رابعة فحكمها في الإمالة حكم ما أصله الياء[4].

وقرأ بكرة(*) الأعرابي (طِيبي) كسر الطاء لتسلم الياء كما قيل

(1) م. الطبري 2/ 318 والتي تليها وت. أبي السعود 8/ 29 وما بعدها. والمراغي 25/ 36 وما بعدها. ومجمع البيان 25/ 48 والتي تليها.
(2) الكشاف 2/ 287 وت. أبي السعود 5/ 20.
(3) معجم القراءات القرآنية 3/ 216.
(4) انظر علل الإمالة في الكشف عن وجه القراءات 1/ 177.
(*) كذا في البحر، وفي الكشاف وت. أبي السعود مكوزة.

بيض ومعيشة. قالوا وفي طوبى منقلبة عن ياء لضمة ما قبلها كموقن[1].

2 ـ وقرأ العامة (وحُسْنَ مآب) (بالرفع وقرأ ابن محيصن وعيسى الثقفي وحُسنَ مآب) بالنصب.

فقراءة الرفع عطف على (طوبى) التي هي مبتدأ ولهم خبر، وقد ساغ الابتداء بها لما فيها من معنى الدعاء. أو طوبى خبر لمبتدأ محذوف واللام في لهم للبيان مثل سقياً لك ورعياً لك.

وقراءة النصب عطف على (طوبى) التي هي مفعول الفعل محذوف أي أصبت خيراً طيباً أو حال مقدر. عاملها الفعلان، وهو ضعيف. أو منادى مضاف للضمير واللام مقحمة، يا طوبى لهم والأصل يا طوبا هم[2]. وقراءة الرفع أولى.

اللغـــة:

طوبى اسم علم للجنة، معرَّبة عن الهندية، أو اسم لشجرة فيها[3]. وأصلها توبى فعُرِّبَتْ لأنه ليس في كلام أهل الهند طاء[4].

وقيل هي اسم الجنة بالحبشية مثلما هي بلغة الهند، وإن صحَّ هذا فهو وفاق بين اللغتين[5].

وقيل: إنها غير علم، وعلى هذا فأصلها الطُّيبىٰ قلبت الياء واواً لمناسبة ضم ما قبلها. وفي الصيغة أقوال:

(1) الكشاف 2/ 288 والبحر المحيط 5/ 90 وت. أبي السعود 5/ 20.

(2) انظر البحر المحيط 5/ 389 والتي تليها والكشاف 2/ 287 وما بعدها. وت. أبي السعود، الصفحة السابقة.

(3) انظر المعرب للجواليقي ص 266 ولسان العرب (طوب).

(4) المرجع الأخير.

(5) القرطبي 9/ 316.

1 ـ أنها جمع طَيِّبَةٍ، كالكوسى جمع كيّسة والضُوقىٰ جمع ضيّقة. إلا أن فُعلى ليست من صيغ الجمع.

2 ـ أنها مفردة تأنيث أطيب كالأكيس والكوسى والأضيق والضُوقى.

3 ـ أنها مصدر كالسُقيا والرُّجعى والبُشرى ومعناها الحُسْنى[1]. وهذا هو المرجع في سياق الآية وقال به كثير من المفسرين[2].

ورجع القرطبي أن طوبى شجرة في الجنة لما روي في شأنها من حديث. فَعَنْ أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، طوبى لما رآك وآمن بك فقال «طوبى لما رآني وآمن بي، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني» قال له رجل: وما طوبى؟ قال: «شجرة في الجنة مسيرتها مائة علم، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها وروى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»[3].

وعلى ما رجحه القرطبي من أنها شجرة في الجنة يكون من باب ذكر الجزء وإرادة الكل.

التفسير:

الذين صدَّقوا بالله وعملوا ما أمرهم به وانتهوا عما نهاهم عنه لهم الفرح وقرة العين عند ربهم أو لهم أطيب الأشياء وهو الجنة وفيها تلك الشجرة (طوبى) التي لم تر العين مثلها ولا خطرت على قلب

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 146 وانظر لسان العرب والصحاح (طوب).

(2) ذكر المفسرون أقوالاً أخرى لا تبعد عن معنى الحسنى. انظر ابن كثير 4/ 89 ومجمع البيان 13/ 172.

(3) ابن كثير 4/ 89 وما بعدها والقرطبي 9/ 317.

بشر مسيرتها مائة عام. كما أن لهم حسن المنقلب والمرجع[1].

وما تقدم على أن (الذين) مبتدأ خبره طوبى لهم. وفي تفسير أبي السعود: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ فالذين بدل من القلوب على حذف المضاف بدل الكل، أي قلوب الذين آمنوا. وفيه إيماء إلى أن الإنسان إنما هو القلب. والمعنى ألا بذكر الله تطمئن القلوب قلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات[2]. فالذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله وعملوا الصالحات طوبى لهم[3].

22 ـ العاقبة:

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

سورة الأعراف: 128 وانظر الأنعام: 135 وهود: 49 وطه: 132 والقصص: 37 و83.

القراءات:

قرأ الجمهور (والعاقبة) بالرفع، على أن الواو واستئنافية والعاقبة مبتدأ خبره شبه الجملة.

وقرأ أُبيّ وابن مسعود (والعاقبَة) بالنصب عطفاً على الأرض[4].

اللغة:

العاقبة، والعُقْبى والعُقبُ ـ كعُسْر وعُسُر ـ: خاتمة الشيء

---

(1) م. الطبري 1/ 421 وابن كثير 4/ 89 والمراغي 5/ 101 ومجمع البيان 13/ 172.

(2) تفسير أبي السعود 5/ 20.

(3) القرطبي 9/ 317.

(4) الكشاف 2/ 83 والبحر المحيط 4/ 368.

والمصير الأخير فيه. وقالوا: العُقْبى لك من الخير وأعقب الأمر كذا أي كانت خاتمته ومرجعه، والعُقْبُ والعُقْبى يختصان بالثواب قال تعالى: ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ وقال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ والعاقبة من غير إضافة تختص بالثواب كقوله تعالى: ﴿الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ومع الإضافة تكون في الثواب كما في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ وفي العقاب كما في قوله تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾[1].

فالقرينة في سياق الآية هي التي تُفصح عن المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي الجنة لمن اتقى، وعاقبة كل شيء: آخره، ولكنها إذا أطلقت فقيل العاقبة لفلان فُهِمَ منه في العُرف الخير[2]. وإذا قيل العاقبة عليه فهو في الشر[3].

التفسير:

قال موسى لبني إسرائيل: استعينوا بالله واطلبوا تأييده في دفع بلاء فرعون وقومه عنكم، واصبروا على ما ينالكم منهم من المكاره، لعل الله أن يورثكم أرض مصر إن صبرتم واستقمتم فالأرض لله الذي بيده ملكوت كل شيء يورثها من شاء من عباده، والعاقبة المحمودة. من النصر والغلبة على الأعداء في الأولى، والجنة في الآخرة ـ لمن اتقى الله وراقبه[4].

23 ـ عقبى الدار:

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾.

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 214 والمفردات 340.
(2) القرطبي 7/ 263.
(3) مجمع البيان 9/ 152.
(4) م. الطبري 9/ 279 والقرطبي 7/ 263 ومجمع البيان 9/ 152.

سورة الرعد: 22 وانظر الرعد: 24و35 و42.

اللغـــة:

انظر ما تقدم في (العاقبة).

التفسير:

تقدم في (دفع الحسنة بالسيئة) من الأخلاق الحميدة.

24 ـ عِلّيُّون:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾.

سورة المطففين: 18ـ21.

اللغة والدلالة الخاصة:

علّيُّون: علوٌ على علوٍ مضاعف، أو ارتفاع بعد ارتفاع لا غاية له كما قال الفرّاءُ. ووجه هذا أنه منقول من جمع عِلّيّ من العُلُوّ. قال الفراء والزجاج: فأُعْرِبَ كإعراب الجمع لأنه على لفظ الجمع ولا واحد له من لفظه نحو ثلاثين وعشرين وقنسرين[(1)].

قال ابن كثير: والظاهر أن عليين مأخوذ من العلو، وكلما علا الشيء وارتفع عظم واتسع. وعن ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ يعني الجنة، وعنه أيضاً أن عليين هي السماء السابعة وفيها أرواح المؤمنين. وقال قتادة: عليون ساق العرش اليمنى وقال غيره: عليون عند سدرة المنتهى[(2)]. وفي هذين القولين إرشاد إلى أنها الجنة فقد تقدم أن (جنات المأوى) عن يمين العرش كما قيل إنها عند سدرة المنتهى، وأنها في السماء السابعة[(3)].

(1) انظر فتح القدير 5/ 402 ومجمع البيان 30/ 69 وما بعدها. ومعاني القرآن للفراء 3/ 247 والقرطبي 19/ 262 وما بعدها.
(2) ابن كثير 7/ 242 وانظر القرطبي الصفحة السابقة ومجمع البيان 30/ 71.
(3) انظر اللغة في (جنة المأوى وجنات المأوى) و(جنات الفردوس).

ولعل المراد ـ والله أعلم ـ أن عليين مكان سامٍ في الجنة[1] لا يعرف شأنه أحد ولذلك عظّم تعالى شأنه بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾! أما قوله تعالى ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠﴾ فكتاب ليس بدلاً به (عليون) على ما تقدم وإما هو خبر لمبتدأ محذوف، أي كتاب الأبرار هو كتاب مرقوم يشهده المقربون.

التفسير:

في قوله تعالى: ﴿كلا﴾ تأكيد للردع والزجر، ووجوب الارتداع عما كان عليه الفجار فليس الأمر كما توهموه من إنكار البعث، ومن أن كتاب الله أساطير الأولين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾ استئناف لبيان محل كتاب الأبرار بعد بيان سوء حال الفجار وكتابهم. إن كتاب أعمال الأبرار مودع في عليين، تكريماً لهم، وهو مكان عالٍ مشرَّف في أعلى الجنة فقد روي أنه في السماء السابعة تحت العرش أو عن يمينه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾؟! تفخيم وتعظيم لشأنه أي وما أعلمك يا محمد ما هو عليون؟! وهنا يتم الكلام[*] ليترك

(1) مما يدل على ذلك قول بعضهم: عليون علم لديوان الخير الذي دون فيه كل ما أعلمته الملائكة وصلحاء الثقلين، سمي بذلك إما لأنه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنة وإما لأنه مرفوع في السماء السابعة. انظر الكشاف 4/ 196 وت. أبي السعود 9/ 127.

(*) ما تقدم يشترك فيه كثير من المفسرين واختلفوا في ما بعده فقال بعضهم بما ذهبنا إليه وقال آخرون: فسّر تعالى وبين المراد من قوله: ﴿وما عليون﴾ فقال ﴿كتاب مرقوم﴾ على أنه بدل من (عليون) وما ذهبنا إليه أولى فكيف يصح أن نقول إن (عليين) أعلى الأمكنة تودع فيه كتاب الأبرار ثم نقول إن عليين هو كتاب مرقوم؟! فالأولى أن نقول كتاب الأبرار مودع في علّيين، وكتاب الأبرار هذا كتاب مرقوم يشهده المقرّبون علماً به وحفظاً له والله تعالى أعلم. على أنه يصح ذلك إذا قلنا إن عليين ديوان الخير الذي دون فيه كل ما أعلمته الملائكته وصلحاء الثقلين. وانظر القرطبي 19/ 262 والتسهيل 4/ 185 وابن كثير 7/ 242 والمراغي 30/ 80 والكشاف 4/ 196 وت. أبي السعود 9/ 127.

مجالاً لتصور عظمة هذا المكان السامي المشرَّف في أعالي الجنة فأوسع المخيلة ذلك فهو لا تبلغه درايةُ أحدٍ. ثم يبتدىء بقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴾ أي هو كتاب مرقوم، ويعني كتاب الأبرار فقد كُتب فيه صالح أعمالهم لم ينقص فيها شيء وأودع في عليين تكريماً لأصحابه يشهده المقربون من الملائكة، فكما وكَّلَ سبحانه أمر اللوح المحفوظ إليهم وكل إليهم حفظ كتاب الأبرار في ذلك المكان المُشرَّفِ في أعلى الجنةِ.

25 ـ فردوس:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

سورة المؤمنون: 10و11.

اللغـــة:

انظر ما تقدم في (جنات الفردوس).

التفسير:

هؤلاء المؤمنون الذين تحلوا بتلك الصفات الجليلة المذكورة فيما تقدم من الإيمان والخشوع في الصلاة، والإعراض عن اللغو وأداء الزكاة وحفظِ الفرج ورعايةِ الأمانة والعهد، والمحافظةِ على الصلوات هم، وحدهم الجديرون بأن يسموا ورّاث الجنة. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾».

فهم يتبوّءُون أرفع مراتب الجنات وهي الفردوس، ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمٰن». وذلك كفاء ما زينوا به أنفسهم من الأخلاق

الفاضلة والآداب العالية حسبما يقتضيه الوعد الكريم ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ويبقون خالدين فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون[1].

26 ـ فَضْـل:

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾.

سورة الأحزاب: 47 وانظر الشورى: 22.

أسباب النزول:

أخرج البيهقي في دلائل النبوة عن الربيع بن أنس قال: لما نزلت ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [2] نزلت بعدها ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [3] فقالوا: يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك فماذا يفعل بنا فنزلت ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ قال: الفضل الكبير الجنة.

اللغـــة:

الفَضْلُ: الزيادة عن الاقتصار وذلك ضربان: محمودٌ كفضل العِلْم والحِلْم، ومذموم كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه. والفَضل في المحمود أكثر استعمالاً. والفُضول في المذموم. وكل عطية لا تلزم من يُعْطي يقال لها فضل نحو قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾[4].

وقد بيّن تعالى الفضل الكبير في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(1) ت. أبي السعود 6/ 125 وابن كثير 5/ 9 والتي تليها. والمراغي 18/ 6 وما بعدها.
(2) الأحقاف/ 9.
(3) الفتح/ 2.
(4) المفردات 381 والتي تليها.

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ فالآية في سورة الأحزاب خبر والتي في سورة الشورى تفسير لها[1].

التفسير:

فراقب يا رسولنا محمد أحوال الناس وبشر أهل الإيمان منهم بأن لهم من ثواب الله على طاعتهم إياه زيادة على ما يستحقونه تفضلاً من الله وإحساناً، فالفضل الكبير يتجلى بإدخالهم أطيب بقاع الجنات وأنزهها، ويعطيهم ربهم فيها ما تشتهيه أنفسهم وتلذه أعينهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا النعيم والإكرام هو فضل الله الكبير وقد فصّله تعالى في قوله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ [الشورى/ 22].

وقيل بأن لهم من الله فضلاً كبيراً على مؤمني سائر الأمم في الرتبة والشرف[2].

ولعل زيادة التفضيل والإحسان لمؤمني أمة محمد ﷺ فيه ما لا يخفى من التكريم لخاتم أنبيائه، سيد المرسلين.

27 - مقام أمين:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾.

سورة الدخان: 51 و52.

القراءات:

قرأ عبد الله بن عمر وزيد بن علي وأبو جعفر وشيبة والأعرج

(1) القرطبي 14/ 201 وما بعدها.

(2) انظر القرطبي، الصفحة السابقة وت. أبي السعود 7/ 108 وم. الطبري 2/ 211 ومجمع البيان 22/ 151.

والحسن وقتادة ونافع وابن عامر (في مُقام) بضم الميم على أنه اسم مكان من أقام. أو يكون مصدراً على تقدير حذف مضاف تقديره في موضع إقامة.

وقرأ أبو رجاء وعيسى ويحيى والأعمش وباقي السبعة بفتحها جعلوا اسم مكان من قام كأنه اسم للمجلس أو للمشهد كما قال ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ [القمر/ 55]. وصفته بالأمن يدل على أنه اسم مكان[1].

اللغة والمدلول الخاص:

المَقَامُ: مكان القيام، يقال: قام يقوم قِياماً. وكما أن المقام ـ بفتح الميم ـ اسم مكان منه فهو بمعنى الإقامة نفسها أيضاً[2].

والأمين من قولك أمِنَ الرجلُ أمانة فهو أمين، وهو ضد الخائن فوصف به المكان استعارة لأن المكان المخيف كأن يخون صاحبه بما يلقى فيه من المكاره[3]. وهنا في (مقام أمين) آمِنَ داخلوه الغِيَرَ من الموت والحوادث والأحزان[4]. لأنهم (في جنات وعيون) خالدين فيها أبداً.

التفسير:

لما ذكر تعالى وعيد الكافرين وما يرونه في الأهوال في ذلك اليوم يوم الفصل أعقبه بوعد المتقين بما يلاقونه في جنات النعيم.

---

(1) انظر الكشف عن وجوه القراءات 2/ 265 ومجمع البيان 25/ 119 والبحر المحيط 8/ 40 والقرطبي 16/ 152 والكشاف 3/ 435 وقال الجوهري: وأما المُقام والمَقام فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة وقد يكون بمعنى موضع القيام لأنك إذا جعلته من قام فمفتوح وإن جعلته من أقام يُقيم فمضموم.

(2) وعلى هذا فالقراءة بالضم والفتح على أنه اسم مكان بمعنى انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 426 والصحاح (قوم).

(3) الكشاف 3/ 435.

(4) مجمع البيان 25/ 130.

إن الذين اتقوا الله في الدنيا بأداء طاعته واجتناب معاصيه، الخائفين عقابه والمنتظرين ثوابه، يكونون في الآخرة في موضع إقامة آمنين فيه من الموت ومن كل ما يحزنهم ويصيبهم من الآفات والآلام.

وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من (مقام أمين) جيء به دلالة على النزهة فيه واشتماله على طيبات المآكل والمشارب. والمسكن يطيب بأمرين:

أولهما: أن يكون من فيه آمناً من جميع ما يخافه ويحذر منه، وهو المقام الأمين.

ثانيهما: أن يكون فيه أسباب النزهة من الجنات والعيون وذلك قوله: ﴿ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢﴾.

وبذلك تكتمل صورة موضع الإقامة الذي وعد الله به عباده المتقين، وهذا أول ضرب من ضروب نعيمهم التي يلقونها فيه[1].

28 - نعيم:

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣﴾.

سورة المطففين: 22 و23.

اللغـــة:

انظر ما تقدم في (جنات النعيم).

وقد اكتفى هنا من ذكر الجنة بأبرز خصائصها وهو نعيمها فإن الأبرار لفي نعيم، أي لفي نعيم دائم في الجنان، ونُكِّر اللفظ ليدع الخيال يسرح في ألوان لا حصر لها من النعيم، ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(1) المراغي 25/ 137 وت. أبي السعود 8/ 66 وم. الطبري 2/ 341.

التفسير:

إن البررة المطيعين لربهم، الذين يؤمنون بالبعث والحساب ويصدّقون بما جاء على لسان رسوله، لفي نعيم دائم من اللذات وخفض العيش وراحة البال واطمئنان النفس وغير ذلك من ألوان النعيم المادية والمعنوية في الجنان.

على الأسرة في حجالها ينظرون على أنواع نعيمهم في الجنة من الحور العين والولدان وأنواع الأطعمة والأشربة والمراكب الفارهة وغير ذلك مما أولاهم الله تعالى من الكرامة والنعيم[1].

29 ـ يمين:

﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ ﴾.

سورة المدثر: 39 وانظر الواقعة: 27، 38، 90، 91 والمدثر: 39.

أسباب النزول:

أخرج البيهقي عن عطاء ومجاهد قالا: لما سأل أهل الطائف الوادي يحمي لهم وفيه عسل ففعل، وهو واد معجب، فسمعوا الناس يقولون في الجنة كذا وكذا، قالوا: يا ليت لنا في الجنة مثل هذا الوادي فأنزل الله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ ... ﴾ الآيات.

اللغة والدلالة الخاصة:

يقال فلان من أصحاب اليمين أي السعادة والحظ. وذلك أن اليمين يتيـمَّنُ بها ويتفاءل بها الكريم من الأشياء. واليمين جهة الخير[2].

(1) تفسير أبي السعود 9/ 128 وم. الطبري 2/ 526 والمراغي 30/ 81.

(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 870.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ قيل سمُوا بذلك لأن العرب تجعل الخير من اليمين والشر من الشمال أو لأن أهل الجنة يحملون إلى جهة اليمين وأهل النار يحملون إلى جهة الشمال أو يكون من أخذِ الكتاب باليمين[1]. فأصحاب اليمين هم أصحاب السعادة والحظ الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة لأنهم أخذوا كتابهم بيمينهم. فالأقوال كلها تتضافر لتبيّن أن أصحاب اليمين هم أصحاب الجنة فقد أشير باليمين إلى الجنة. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ أي إلا أهل اليمين أهل الجنة. فاليمين طريق الجنة أو جهتها. وما تقدم من أقوال وغيرها تقال أيضاً في أهل الميمنة الذين ذكروا في أول سورة الواقعة وهم السابقون المقربون من الله يوم القيامة إذا أدخلهم الجنة.

التفسير:

كل نفس مرتهنة عند الله، في جهنّم، بما عملت في الدنيا إلا أهل اليمين ـ أصحاب الجنة ـ فإنهم غير مرتهنين، فكّوا أنفسهم من العذاب بطاعتهم لله، كما يخلِّصُ الراهنُ رَهْنَهُ بأداء الحق الذي وجب عليه.

ثم بيَّن تعالى في الآية التالية أنَّ أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين الذين أدخلوا جهنم[2].

ب ـ أصحاب الجنة:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

سورة البقرة: 82 وانظر البقرة: 5/ 25، 82 وآل عمران: 15، 136، 195، 198 والنساء: 13، 57، 122 والمائدة: 12، 65، 85، 119 والأعراف:

(1) التسهيل 4/ 88 وانظر مجمع البيان 27/ 113 والقرطبي 17/ 198.

(2) م. الطبري 2/ 500 وت. أبي السعود 9/ 61 والمراغي 29/ 140.

53،42 والأنفال: 4 والتوبة: 21، 72، 89، 100 ويونس: 26 وهود: 23، 108 والرعد: 24،20 وإبراهيم: 23 والحجر: 50،45 والنحل: 32،30 والكهف: 31، 107 ومريم: 65،60 والأنبياء: 103،101 والحج: 14، 23، 24، 56 والمؤمنون: 11،8 والفرقان: 15، 16، 24 والشعراء: 90 والعنكبوت: 58 والروم: 15 ولقمان: 8 والسجدة: 19 ويس: 58،55 والصافات: 61،40 وص: 55،49 والزمر: 20، 73، 75 وغافر: 40 وفصلت: 32،30 والشورى 7، 22 والزخرف: 73،69 والدخان: 57،51 والأحقاف: 14، 16 ومحمد: 6، 12 والفتح: 5، 17 وق: 31 والذاريات: 15 والطور: 22 والحشر: 20 والصف: 12 والتغابن: 9 والطلاق 11 والتحريم: 8 والقلم: 17، 34 والمعارج: 35 والمدثر: 40 والإنسان: 38،5 والنازعات: 41 والمطففين: 36،22 والبروج: 11 والغاشية: 16،8 والبينة: 8.

التفسير:

جرت السنة الإلهية على شفع الوعد بالوعيد لما تقتضيه الحكمة في إرشاد العباد من الترغيب تارة والترهيب أخرى والتبشير حرة والإنذار أخرى. فبعد أن بين تعالى قال الذي أحاطت به خطيئاته واسترسل في شهواته النار ذكر مآل المؤمنين العاملين:

والذين صدّقوا الله ورسله وآمنوا باليوم الآخر وعملوا صالح الأعمال، فأطاعوا الله بأداء فرائضه واجتناب محارمه فأولئك جديرون بدخول الجنة جزاء وفاقاً على طاعتهم لربهم وإنابتهم إليه وإخلاصهم له في السر والعلن، مقيمون فيها أبداً.

وفي هذا دليل على أن دخول الجنة منوط بالإيمان الصحيح والعمل الصالح معاً كما روي في صحيح مسلم «أن النبي ﷺ قال لسفيان بن عبد الله الثقفي، وقد قال له يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: قل آمنت بالله ثم استقم»[1].

(1) انظر ت. أبي السعود 1/122 والقرطبي 2/12 والمراغي 1/154 وم. الطبري 1/31. =

ج - عرض الجنة.

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.

سورة آل عمران: 133 وانظر الحديد: 21.

القراءات:

قرأ الجمهور (وسارعوا) وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر (سارعو) بدون واو. فالقراءة الأولى على العطف على ما قبله أي وأطيعوا الله والرسول وسارعوا، وهو عطف جملة على جملة.

والثانية على الاستئناف والقطع، وهو مع الاستئناف ملتبس بما قبله لأن الضمائر غير مختلفة والمأمورين غير مختلفين[1].

اللغة والدلالة الخاصة:

العَرْضُ: خلاف الطول، وعَرُض الشيء - ككرُم - فهو عريض ويقال عريض في غير الحسي تجوزاً كما في قوله تعالى: ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾.

وفي عرض الجنة أقوال:

أولها: عرضها كعرض السموات السبع والأرضين السبع إذا ضم بعض ذلك إلى بعض[*]. قاله ابن عباس والحسن.

= أول أصحاب الجنة محمد ﷺ روى مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فاستفتح فيقول الخازن من أنت؟ فيقول محمد، فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك».

(1) الكشف عن وجوه القراءات 1/ 356 وانظر القرطبي 4/ 203 والبحر المحيط 3/ 57 والكشاف 1/ 217 ومجمع البيان 4/ 196 والتي تليها.

(*) خصّ العرض بالذكر لأنه في العادة أدنى من الطول للمبالغة، وهذا كقوله تعالى: ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾ فوصف البطائن بأحسن ما يعلم من الزينة إذا المعلوم أن الظواهر تكون أحسن وأتقن من البطائن.

ثانيها: عرضها كعرض السموات والأرض، معناه ثمنها لو بيعت كثمن السموات والأرض لو بيعتا، كما يقال عرضت هذا المتاع للبيع، والمراد بذلك عظم مقدارها وجلالة قدرها وأنه لا يساويها شيء وإن عظم. قاله أبو مسلم الأصفهاني.

وثالثها: إنه عرضها لم يرد به العرض الذي خلاف الطول وإنما أراد سعتها وعظمتها، والعرب إذا وصفت الشيء بالسعة وصفته بالعرض، قال امرؤ القيس:

بلاد عريضة وأرض أريضة   مُدافِع غيثٍ في فضاءٍ عريض(*)

وقال ذو الرمة:

تبّوأ فابتنى وبنى أبوه   فأعرض في المكارم واستطالا(**)

أي توسع فيها.

رابعها: قيل: عرضها كطولها لأنها قبة والشيء والمقبب والمستدير عرضه كطوله. ودل على ذلك ما ثبت في الصحيح «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وسقفها عرش الرحمن»(1).

وفي مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبي ﷺ إنك دعوتني إلى الجنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال: سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار؟

(*) ديوان امرىء القيس ص 73. والعريضة: الواسعة والأريضة: الكريمة الخليقة للخير. ومدافع غيث: أي مدافع الماء من السحاب إلى الأرض. والبيت في مجمع البيان 4/ 199 وفيه عريضة ومواقع والتحريف ظاهر فيهما.

(**) ديوان ذي الرمة 3/ 1549.

(1) ما تقدم في مجمع البيان 4/ 199 ومثله في القرطبي 4/ 204 وما بعدها وابن كثير 2/ 112 وقد انفرد بذكر القول الرابع.

ومعنى قوله ﷺ أن النهار إذا تغشّى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر فكذلك الجنة في أعلى عليين فعرف السموات تحت العرش وعرضها كما قال تعالى كعرض السموات والأرض، والنار في أسفل سافلين فلا تنافي بين كونها كعرض السموات والأرض وبين وجود[1] النار.

ونظرة إلى ما تقدم من أقوال نرى أن الأول أقواها بدلالة ردّ النبي ﷺ على تساؤل هرقل. أما الثاني، وإن كان صحيحاً في ذاته، ففيه تعسُّف ظاهر في هذا المقام. أما الثالث فمحتمل ولكن لا دليل عليه من السنة أو من أقوال الصحابة والتابعين. والأخير فيه تعسّف في فهم الدليل، فالعلو والوسط جائز في كل شكل من الأشكال الهندسية وغير الهندسية وليس مقتصراً على الدائرة أو القبة.

فالغَرَضُ من الآية تشبيه سعة الجنة بما يدركه الناس، فحقيقة الجنة وسعتها لا يعلمها إلا الله. وكفى بهذا بياناً.

التفسير:

لما حذر الله تعالى عباده عن الأفعال الموجبة للعقاب عقبه بالحثّ على الأفعال المؤدية إلى نيل الثواب والقربات فقال: ﴿وسارعوا. . .﴾ أي بادروا إلى الأعمال التي توصلكم إلى مغفرة ذنوبكم برحمته تعالى وتدخلكم جنة واسعة المدى، عرضها كعرض السموات والأرض، عظيمة الشأن أعدها الله لمن اتقاه وامتثل أوامره واجتنب نواهيه. فبادروا إلى فعل الخيرات ما استطعتم، والبعد عن الآثام[2].

(1) الحديث في المراجع المتقدمة وتفسير المراد من جواب النبي ﷺ في تفسير ابن كثير 2/ 113.

(2) مجمع البيان 4/ 198 وما بعدها وم. الطبري 1/ 123 والمراغي 4/ 68.

وفي الآية دليل على أن الجنة مخلوقة الآن لأنها لا تكون مُعَدَّةً إلا وهي مخلوقة، وأنها خارجة عن هذا العالم، إذ أنها تدل على أن الجنة أعظم منه، فلا يمكن أن يكون محيطاً بها[1].

ـ د ـ وصف الجنة:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

سورة البقرة: 25 وانظر آل عمران: 15، 136 195، 198 والنساء: 3، 57، 122 والمائدة: 12، 85، 119 والتوبة 72، 89، 100 ويونس: 9، 10 والرعد: 35 وإبراهيم: 23 والحجر: 45 والنحل: 31 والكهف: 31 والحج: 14، 23، والفرقان: 10 والروم: 15 ولقمان: 8، 9 وفاطر: 35.33 والصافات: 61.40 وص: 55.49 والزمر: 20، 75.73 والزخرف: 73.70 والدخان: 57.51 ومحمد: 12، 16.14 والفتح: 5، 17 وق: 35.31 والذاريات: 15 والطور: 28.17 والقمر: 54، 55 والرحمن: 78.46 والواقعة: 40.12 والحديد: 12 والمجادلة: 22 والصف: 12 والتغابن: 9 والطلاق: 11 والتحريم: 8 والإنسان: 38.5 والمطففين: 11 والغاشية: 16.8 والبينة: 8.

القراءات:

1 ـ قرأ الجمهور: (وبشّر) فعل أمر، والواو عطفت وصف جملة ثواب المؤمنين على جملة وصف عقاب الكافرين. وقرأ زيد بن علي (وبُشِّر) على أنه فعل ماض مبني للمجهول، والعطف على (أُعِدَّتْ) في الآية السابقة[2].

2 ـ قرأ الجمهور: (وأُتُوا) بضم الهمزة والتاء وقرأ هارون الأعور

(1) مجمع البيان 4/ 200. والمراغي 4/ 68 والتي تليها.
(2) البحر المحيط 1/ 111 وانظر الكشاف 1/ 51 .

والعتكي (وأَتَوا) بفتح الهمزة والتاء، فالضمير في القراءة، الأولى لأهل الجنة وفي الثانية للخدام[1].

3 ـ وقرأ الجمهور (مُطَهَّرَة) وقرأ زيد بن علي مطهرات ومجيء الصفة مفردة للموصوف الجمع أو مجموعة مثله لغتان فصيحتان يقال النساء فعلن وهن فاعلات وفواعل والنساء فعلت وهي فاعلة. والمقصود بتطهير الأزواج أن طهرن مما يختص بالنساء من الحيض والاستحاضة وما لا يختص بهن من الأقذار والأدناس، ويدخل تحته الطهر من دنس الطباع وطبع الأخلاق الذي عليه النساء في الدنيا من الخبث والكيد[2].

وقرأ عبيد بن عمير مُطَّهِّرَة وأصله متطهرة فأدغم[3].

المدلول الخاص في وصف الجنة:

إن مجموع الآيات التي تقدم ذكر أرقامها تقدم وصفاً كلياً للجنة إلى جانب الكثير من وصف جزئياتها(*). فما الحكمة من الأسلوب القرآني في ذلك؟

(1) 22 ـ القرطبي 1/ 240 وانظر البحر 1/ 115.

(2) الكشاف 1/ 53 وانظر البحر 1/ 117.

(3) المرجع الأخير، الصفحة نفسها وانظر الكشاف، الصفحة السابقة.

(*) لاستكمال وصف الجنة لا بد من اطلاع على الأحاديث الواردة في ذلك نذكر لك منها:
روى البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يسمى الريّان لا يدخله إلا الصائمون».
وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مفتاح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله». وروى الترمذي عن أبي هريرة قلت: يا رسول الله مم خُلِق الخلق؟ قال: من الماء، قلت: الجنة ما بناؤها؟ قال لبنة من فضة ولبنة من ذهب وملاطها المسك الأذخر، وحصباؤها الدر والياقوت وترابها الزعفران».
وأول من يدخل الجنة سيدنا محمد ﷺ. فقد روى مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فاستفتح فيقول الخازن من أنت؟ فيقول محمد فيقول: بك أُمرتُ أن لا أفتح لأحدٍ قبلك.

قبل أن نجيب على ذلك نقول: إن الجنة، والنار أيضاً حقيقتان ماديتان ومتعلقات كل من النفس والجسم معاً، وليستا مجرد وهم يطوف بالنفس أو الروح وحدها. إذ لو كان الأمر كذلك لما كان ثمة أي معنى للمعاد الجسمي الذي حفل كتاب الله تعالى بذكره وتأكيده والتحذير من عواقبه في كثير من نصوصه وآياته القاطعة. ومن أوضح الأدلة وأجلاها على هذه الحقيقة الطريقة التي يصف بها القرآن كلاً من الجنة والنار.

لنتأمل هذه الآيات في وصف الجنة وأهلها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[الغاشية/ 18 ـ 16].

وهذه الآيات ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة/ 34،27]. بعد أن عرفنا الأسلوب القرآني في ذلك نقول: إن الحكمة من هذا الأسلوب في وصف الجزئيات هو أنه تعبير عن أن نعيم الجنة شيء حسي ملموس يعيش فيه الإنسان بكل حواسه ومشاعره وليس معنى روحياً مجرداً(1).

التفسير:

تقدم في (العمل الصالح) من الأخلاق الحميدة.

11 ـ جهنم

أ ـ أصحاب النار:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

(1) انظر كبرى اليقينيات الكونية ص 358 وما بعدها.

سورة البقرة: 39 وانظر البقرة: 7، 24، 81، 126، 127، 174، 217، 257، 275 وآل عمران: 10، 12، 23، 24، 16، 151، 181، 188، 196، 197 والنساء: 14، 30، 37، 55، 115، 121، 145، 151، 161 والمائدة: 29، 33، 37، 72، 86 والأنعام: 27، 128 والأعراف: 18، 36، 39، 41، 44، 50، 179 والأنفال: 16، 36، 37 والتوبة: 17، 34، 35، 49، 63، 68، 73 ويونس: 8، 27 وهود: 16، 17، 106 والرعد: 5، 35 وإبراهيم: 30.26، 50 والحجر: 43 والنحل: 62 والإسراء: 97 وطه: 127 والأنبياء: 100.98 والحج: 22.19، 57 والفرقان: 15.11، 34، 65، 66 والنحل: 90 والقصص: 41 والعنكبوت: 25، 68 ولقمان: 24 والسجدة: 20 والأحزاب: 8، 68.64 وسبأ: 42 وفاطر: 36، 37 والصافات: 70.60 وص: 27، 64.55 والزمر: 8، 16، 24، 25، 32، 40، 47، 48، 60، 71 وغافر: 6، 43، 50.46، 70، 72، وفصلت: 19، 24 والشورى: 44، 45 والزخرف: 78.74 والدخان: 50.43 والجاثية: 34 والأحقاف: 20، 36 ومحمد: 12، 15، والذاريات: 13، 14 والطور: 11، 12 والقمر: 48 والرحمن: 44.37 والواقعة: 56.41 والحديد: 15 والمجادلة: 17 والحشر: 3، 17، 20 والتغابن: 10 والتحريم: 6، 7، 10 والملك: 11.8 والحج: 23 والمدثر: 37.26 والإنسان: 4 والنبأ: 30.21 والمطففين: 1، 16، 17 والانشقاق: 11، 12 والبلد: 20 والبينة: 6 والقارعة: 11 والهمزة: 9.1 والمسد: 1، 2، 3.

التفسير:

تقدم في (تكذيب آيات الله) من الأخلاق الذميمة.

ب ـ صفاتها وأسماؤها.

1 ـ الآخرة:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾

سورة الزمر: 9.

أسباب النزول:

اختلف في تعيين القانت ها هنا، فذكر يحيى بن سلام أنه رسول الله ﷺ وقال ابن عباس في رواية الضحاك عنه: هو أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال ابن عمر: هو عثمان بن عفان رضي الله عنه. وقال مقاتل: إنه عمار بن ياسر. وقال الكلبي: صهيب وأبو ذر وابن مسعود. وعنه أيضاً أنه مرسل فيمن كان على هذه الحال(1).

القراءات:

1 ـ قرأ ابن كثير نافع وحمزة والأعمش وعيسى وشيبة والحسن (أَمَنْ هو) بالتخفيف، جعلوه نداء، فالألف للنداء ودليله قوله (هل يستوي) مناداة، شبيهة بالنداء، ثم أمره، ويحسن أن تكون الألف للاستفهام على أن تضمر معادلاً للألف في آخر الكلام تقديره: أمن هو قانت كمن هو بخلاف ذلك، ودلّ عليه قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ولا بد من هذا الاضمار لأن التسوية تحتاج إلى اثنين وإلى جملتين.

2 ـ وقرأ باقي السبعة والحسن وقتادة والأعرج وأبو جعفر (أَمَّن هو) بتشديد الميم. وحجة من شدّد أنه أدخل (أم) على (مَنْ) وأضمر استفهاماً معادلاً لـ (أم) تقديره: الجاحدون بربهم خير أم الذي هو قانت و (مَنْ) بمعنى (الذي) ليست باستفهام، ودلّ على هذا الحرف دخول (أم) وحاجتها إلى معادل لها ودلّ عليه أيضاً قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

والقراءتان متقاربتان حسنتان(2).

---

(1) القرطبي: 15/ 239 وانظر الواحدي ص 276 وابن كثير 6/ 82 وفيه أنه عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه.

(2) الكشف عن وجوه القراءات 2/ 237 والبحر المحيط 7/ 418 وانظر القرطبي 15/ 238 وما بعدها. ومجمع البيان 23/ 139 وما بعدها. والكشاف 3/ 340.

2 ـ وقرأ الجمهور (ساجداً وقائماً) بالنصب على الحال. وقرأ الضحاك برفعهما إما على النعت لقانت وإما على أنه خبر بعد خبر والواو للجمع بين الصفتين[1].

3 ـ وقرأ العامة: (يحذرُ الآخرة) وقُرِىء ـ من غير نسبة إلى قارىء ـ (ويحذر عذاب الآخرة)[2].

اللغة والمدلول الخاص:

تقدم القول في أسماء الجنة أن الآخرة اسم من أسمائها بقرينة دالة وأن الآخرة تطلق ويراد بها الجنة والنار كما تطلق ويراد بها ما في الآخرة من حشر وحساب وصراط وجنة ونار. وقد قدمنا الأدلة على ذلك من القرآن الكريم: أما الآخرة هنا فالمراد بها جهنم كما هو واضح من سياق الآية. ولم أجد غيرها أطلقت مجردة وقصد بها جهنم. أما قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾. فالمقصود بالآخرة هو عدم تصديقهم بالبعث والثواب والعقاب وأضيف في آيات كثيرة لفظ (العذاب) للآخرة والمراد به عذاب جهنم وأهوال الحشر والحساب. كما في الآيات التالية: الرعد: 34 طه: 127 والزمر: 26 وفصلت: 16 والقلم: 33 واقترن ذكر العذاب بالآخرة في الآيات التالية: النور: 19 الحديد: 20.

التفسير:

أأنت أيها المشرك أحسن حالاً ومالاً أمن هو قائم بأداء الطاعات ودائب على وظائف العبادات في ساعات الليل التي تكون فيها العبادة أشق على النفوس وأبعد من الرياء فتكون أقرب إلى القبول، يقوم

(1) البحر المحيط 7/ 419 والكشاف 3/ 341.

(2) المرجع الأخير، الصفحة نفسها، ولم ينسب القراءة إلى أحد القراء.

بذلك في حالتي السراء والضراء وهو يحذر عذاب الله في الآخرة، ويرجو أن يرحمه ربه فيدخله الجنة؟

ثم أكّد نفي التساوي ونبه إلى فضيلة العلم وشرف العمل به فقال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾؟ أي قل أيها الرسول لقومك هي يستوي الذين يعلمون ما لهم في طاعتهم من الثواب، وما عليهم في معصيتهم من العقاب، والذين لا يعلمون ذلك، فهم يخبطون خبط عشواء، لا يرجون بحسن أعمالهم خيراً، ولا يخافون من سيئها شراً؟ ما هذان بمتساويين إنما يعتبر بحجج الله ويتعظ بها ويتدبرها أهل العقول والحجى لا أهل الجهل والغفلة[1].

2 - أسفل سافلين:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾.

سورة التين: 6،4.

القراءات:

قرأ الجمهور (أسفل سافلين) وقرأ عبد الله بن مسعود: «أسفل السافلين». و(أسفل سافلين) على الجمع لأن الإنسان في معنى جمع، ولو قال أسفل سافلٍ لجاز، لأن لفظ الإنسان واحد تقول: هذا أفضل قائم. ولا تقول أفضل قائمين لأنك تضم لواحد فإن كان الواحد غير مضمر له رجع اسمه بالتوحيد والجمع كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[الزمر/ 33]. وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ . . . . . ﴾ [الشورى/ 48][2] اهـ.

(1) تفسير أبي السعود 7/ 245 والمراغي 23/ 151 وم. الطبري 2/ 274.

(2) القرطبي 20/ 115 وانظر الكشاف 4/ 223 والبحر المحيط 8/ 490.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اللغـــة:

سَفَلَ يَسْفَل سَفالاً وسُفولاً: نقيض عَلا عَلاءً وعُلُوّاً، فهو سافِلٌ وهم سافلون[1].

وأفعل التفضيل منه: أسفل، وجمعه الأسْفَلُون، ومؤنثه السُّفْلىٰ. ويستعمل في الانحطاط الحسي والمعنوي[2]. فمن الأول قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود/ 82] و﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال/ 42] ومن الثاني قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ [التوبة/ 40].

وقوله تعالى: ﴿رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥﴾ قيل: رددناه إلى أرذل العمر وهو الهرم بعد الشباب والضعف بعد القوة. وقيل رددناه إلى النار أي جعلناه من أهلها الذين هم أقبح من كل قبيح وأسفل من كل سافل لعدم جريانه على موجب ما خلقناه عليه من الصفات التي لو عمل بمقتضاها لكان في أعلى عليين[3].

وقد رَدّ على الأول بأنه لو كان هو المراد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك لأن الهرم قد يصيب بعضهم[4].

التفسير:

أقسم تعالى على أنه جل شأنه خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل منتصب القامة سوى الأعضاء، وخصه بالعقل والتمييز والاستعداد لقبول العلوم والمعارف والقدرة على استنباط الخطط والقوانين التي بها يستطيع أن يكون له السلطان الواسع على جميع الكائنات.

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 572 وانظر المفردات 234.
(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم، الصفحة السابقة.
(3) انظر الكشاف 4/ 223 وت. أبي السعود 9/ 175 وابن كثير 7/ 324.
(4) ابن كثير الصفحة السابقة.

ثم رددناه في جهنم(*) حيث يكون على أقبح صورة وأبشعها شأن أهل النار الذين هم أقبح من كل قبيح وأسفل من كل سافل، بعد أن كان على أحسن صورة وأبدعها، وذلك لإمعانه في سُبُل المعاصي والضلال وعدم جريانه على موجب ما فطرناه عليه من الصفات التي لو عمل بمقتضاها لكان في أعلى عليين.

إما الذين أُشربت قلوبهم عقيدة الإيمان وعرفوا أن لهذا الكون موحداً دبّر أمره ووضع لخلقه شرائع يسيرون على نهجها، فعملوا بمقتضاها وأيقنوا أن للشر جزاءه وللخير مثله فهؤلاء سيعطون أجر صالح أعمالهم إذا انتقلوا إلى الحياة الثانية حيث لهم الجنة ثواباً دائماً غير مقطوع[1].

3 ـ بئس القرار:

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾.

سورة إبراهيم 28، 29 وانظر سورة ص: 60.

أسباب النزول:

الصحيح المشهور عن ابن عباس أن الآية 28 من سورة إبراهيم نزلت في كفار أهل مكة.

قال أبو الطفيل: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: هم قريش الذين سُحِروا يوم بدر.

وعن علي وعمر رضي الله عنهما أنها نزلت في الأفجرين من قريش بني مخزوم وبني أمية، فأما بنو أمية فمتِّعُوا إلى حين وأما بنو مخزوم فأهلكوا يوم بدر.

(*) انظر ما تقدم في اللغة.

(1) ابن كثير 7/ 324 وت. أبي السعود 9/ 175 وما بعدها والكشاف 4/ 223 والمراغي 30/ 195.

وقيل: إنهم متنصِّرة العرب جبلة بن الأيهم وأصحابه حين لَطَم فجعل له عمر القصاص بمثلها، فلم يرض وأنِفَ فارتدت مُتنصراً ولحق بالروم في جماعة من قومه. وهذا مروي عن ابن عباس وقتادة. وقال الحسن إنها عامة في جميع المشركين(1).

القراءات:

قرأ الجمهور: (جهنم) بالنصب على أنها بدل من دار البوار كما قال أبو البقاء أو عطف بيان كما قال الزمخشري، فعلى هذا يكون الإحلال في الآخرة ودار البوار جهنم.

وأعرب ابن عطية وأبو البقاء وأيضاً (جهنَمَ) منصوباً على الاشتغال أي يصلون جهنم يصلونها، وبهذا يكون دار البوار أي الهلاك في الدنيا كقليب بدر وغيره من المواضع. والأول هو الراجح.

وقرأ ابن أبي عبلة: (جهنمُ) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف(2).

اللغة:

1 ـ بِئْسَ كلمة ذم وتقابلها نِعْمَ كلمة مدح ـ ويكون المخصوص بالذم أو المدح معرفاً بالألف واللام كقوله تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ و﴿وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ أو مضافاً إلى معرف بها مثل ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ و ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ وقد يكون نكرة منصوبة على التمييز. أو لفظ (ما) مثل «نعم رجلاً عليٌّ» وقوله تعالى: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٦٢﴾. ورسمت في المصحف لفظة (ما) متصلة ببئس عند

(1) انظر ما تقدم في ابن كثير 4/ 137 وما بعدها والقرطبي 9/ 364. والبحر المحيط 5/ 424 ومجمع البيان 13/ 219 والتي تليها.

(2) البحر المحيط 5/ 424.

عدم سبق الفاء أو اللام كما في قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾(1).

2 - القرار: انظر ما تقدم في (دار القرار). والمراد ذم المكان الذي استقر فيه الكفار ووصلوا إليه بكفرهم وجحودهم وآثامهم، استقراراً دائماً لا زوال له ولا انتفال منه، وهو جهنم.

التفسير:

ألم تعجب من قوم بدلوا شكر النعمة غمطاً لها وجحوداً بها كأهل مكة الذين أسكنهم الله حرماً آمنا يُجْبى إليه ثمرات كل شيء وجعلهم قوّام بيته، وشرّفهم بإرسال رسوله محمد ﷺ من بينهم فكفروا بتلك النعمة فأصابهم الجرب والقحط سبع سنين دأباً وأسروا يوم بدر، وصُفِّدوا في السلاسل والأغلال وقتل منهم العدد العديد من صناديدهم ورجالاتهم، وأحلوا من شايعهم على الكفر دار الهلاك الذي لا هلاك بعده، وهذه الدار هي جهنم دار العذاب التي يقاسون حر نارها، وبئس المستقر جهنم(2).

4 - بئس المصير:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

سورة التوبة: 73 وانظر البقرة: 126 وآل عمران: 162 والأنفال: 16 والحج: 72 والشعراء: 57 والحديد: 15 والمجادلة: 8 والتغابن: 10 والتحريم: 9 والملك: 6.

اللغة:

1 - بئس: انظر ما تقدم في (بئس القرار).

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 78 والمفردات ص 66.

(2) ت. أبي السعود 5/ 45 والمراغي 13/ 153 والقرطبي 9/ 364 والتي تليها.

2 ـ الصَّير: الماء الذي يحضره الناس، وصاره الناس: حضروه، ومثله من المادي، الصَّير: رجوع المنتجعين إلى محاضرهم، والصائرة: الحاضرة، والصير والصُّيور والمصير: المنزل.

ومن هذا جاء المعنوي: صِيرُ الماءِ: منتهاه وعاقبته، والفِعْل منه صار إلى كذا يصير صُيراً، ومصيراً وصيرورة. والمصير شاذ، والقياس المصار، مثل المعاش.

والصيرورة ـ من صار ـ على ضربين انتهاء إلى الحال وتغير، مثل صار زيد رجلاً، وانتهاء إلى المكان، مثل صار زيد إلى عمرو، والأولى ـ التي بمعنى الانتهاء إلى الحال والتغير ـ هي أخت كان العاملة عملها، والذي في القرآن من الانتهاء إلى المكان لا إلى الحال، كما في قوله ﴿ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾.

والمصير مصدر أحياناً واسم مكان أحياناً وعلى المعنيين جاء استعمال القرآن بمعنى الصيرورة ـ مصدراً ـ والانتهاء إلى مكان لا تغير كما في قوله تعالى: ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ و﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾[1].

التفسير:

أيها النبي أبذل جهدك في مقاومة المجاهرين من الكفار بالسيف والقتال والمنافقين بالحجة وإقامة الحدود وشدة الزجر، واشدد عليهم في ذلك ولا تأخذك بهم رأفة.

وما تقدم هو قول ابن عباس وغيره واختار الطبري المجاهدة بالسيف والقتال للكفار والمنافقين. والحق أن المنافقين لا يقاتلون إلا

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 94 وأضفنا الأمثلة للتوضيح.

إذا ارتدوا أو بَغوْا على جماعة المسلمين بالقوة أو امتنعوا من إقامة شعائر الإسلام وأركانه.

قال عطاء نسخت هذه الآية كل شيء من العفو الصفح، فقد كان كفار اليهود يؤذون النبي ﷺ بتحريف السلام عليه، وتكرر نقضهم للعهد، وكان يعامل المنافقين باللطف واللين بناء على حكم الإسلام الظاهر فجرّأهم هذا على أذاه، فأمره تعالى في هذه الآية بالغلظة على الفريقين في جهاده التأديبي لهم وقد أثر عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «أذلوهم ولا تظلموهم» وهذه السياسة الحكيمة كانت سبباً في توبة أكثر المنافقين وإسلام ألوف الألوف من الكافرين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي لا مأوى لهم يلجؤون إليه إلا دار العذاب التي لا يموت من أوى إليها ولا يحيا حياة طيبة فبئس المكان الذي إليه يصيرون(1).

5 ـ بئس المهاد:

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾.

سورة آل عمران: 12 وانظر البقرة: 206 وآل عمران: 197 والرعد: 18 وص: 56.

أسباب النزول:

روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال: يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً فقالوا: يا

(1) انظر القرطبي 8/204 وما بعدها وت. أبي السعود 4/ 84 والمراغي 10/ 163 وما بعدها. وابن كثير 3/ 423 وم. الطبري 2/ 332.

محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله هذه الآية والآية التي بعدها[1].

وروي أن اليهود لما فرحوا بما أصاب المسلمين يوم أُحد نزلت ولذلك قرىء سيغلبون ويحشرون أي قريشاً[2].

القراءات:

قرأ حمزة والكسائي (سيغلبون ويحشرون) بالباء فيهما على الغيبة، وقرأ باقي السبعة بالتاء خطاباً، فتكون الجملة معمولاً للقول، من قرأ بالياء فالظاهر أن الضمير للذين كفروا، وتكون الجملة إذ ذاك ليست محكية بقلْ بل محكية بقول آخر والتقدير (قل لهم قولي سيغلبون وإخباري أنه يقع عليهم الغلبة الهزيمة) فالبناء أخبرهم بمعنى ما أخبر به من أنهم سيغلبون وبالياء أخبرهم باللفظ الذي أخبر به أنهم سيغلبون[3].

اللغـــة:

1 ـ بئس: انظر ما تقدم في (بئس القرار).

2 ـ المهاد: انظر (المهاد) في الأثاث والألبسة والألوان وظاهر أن المراد ذم ما مهد الكافرون لأنفسهم جهنم.

التفسير:

قل يا محمد لأولئك الكافرين من اليهود: ستغلبون عن قريب

(1) ابن كثير 2/ 14 وانظر الواحدي ص 68 والقرطبي 4/ 24 ومجمع البيان 3/ 23.

(2) القرطبي، الصفحة السابقة وانظر الواحدي ص 68 ومجمع البيان الصفحة السابقة. والبحر المحيط 2/ 392.

(3) البحر المحيط، الصفحة السابقة وانظر الكشاف 1/ 177 ومجمع البيان 3/ 22 والقرطبي 4/ 24.

في الدنيا وسينفذ فيكم وعيدي، وتساقون في الآخرة إلى جهنم سوقاً وبئس المهاد ما مهدتموه لأنفسكم من نار جهنم.

وقد صدق الله وعده فقتل المسلمون بني قريظة الخائنين وأجلوا بني النضير المنافقين، وفتحوا خيبر وضربوا الجزية على من عاداهم. وهذا من أوضح شواهد النبوة وهو الإخبار بما سيكون ووقوعه. فالله لا يطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول، وإذا ثبت صدقه على أحد الخبرين وهو أنهم سيغلبون ثبت صدقه في الخبر الآخر وهو أنهم يحشرون إلى جهنم[1].

6 ـ بئس الورد المورود:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾.

سورة هود 98.96.

اللغـــة:

ورد المَوْضِعَ ونحوه يرده وروداً بلغه ووصل إليه، دخله أولم يدخله، والوصف للفاعل وارد، وللمفعول مورود.

والوِرْدُ: الماء يورد أو المنهل[2]. وهو المقصود في قوله تعالى ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾. أي بئس الماء الذي يردونه عطاشاً لإحياء نفوسهم وإنما أطلق سبحانه على النار اسم الورد المورود ليطابق ما يرد عليه أهل الجنة من الأنهار والعيون[3]. فبئس الورد الذي يردونه

(1) ت. أبي السعود 2/ 11 وم. الطبري 1/ 96 والمراغي 3/ 105 والقرطبي 4/ 24 ومجمع البيان 3/ 24.

(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 803 والتي تليها.

(3) مجمع البيان 12/ 221.

النار لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد والنار على ضد ذلك(1)

التفسير:

ولقد أرسلنا موسى (عليه السلام) إلى فرعون وملئه مصحوباً بآيات بينات(*) دالة على توحيد الله وهي العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والأنفس، وفيها السلطان المبين(**) والحجة الواضحة على صدق نبوته. وإنما خص الملأ بالذكر وقد أُرسل إلى قومه جميعاً لأنهم أهل الحل والعقد والاستشارة في دولته، ويُعْهَد إليهم بتنفيذ ما يقرره من الأمور، فغيرهم يكون تبعاً لهم في كل ما يأتون ويذرون. فاتَّبعوا أمر فرعون في كل ما قرره من الكفر بموسى وردّ ما جاءهم به من عند الله، وتشديد الظلم على بني إسرائيل بتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم.. وما شأن فرعون بصالح حميد العاقبة بل هو محض غيّ وضلال، وظلم وفساد، لغروره بنفسه، وكفرانه بربه، وطغيانه في حُكْمِهِ.

ثم ذكر جزاءه مع قومه في الآخرة فقال:

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾(***) أي يتقدم قومه بعدم القيامة ويكونون تبعاً له كما كانوا تابعين في الدنيا إلا من آمن،

(1) تفسير أبي السعود 4/ 239.

(*) قيل هي التوراة وقيل هي المعجزات انظر القرطبي 9/ 92 والتسهيل 2/ 111 والتي تليها.

(**) قوله تعالى: ﴿سلطان مبين﴾ يراد أن هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى (عليه السلام) على صدق نبوته أو يراد العصا لأنه أبهرها. انظر الكشاف 2/ 23 وت. أبي السعود 4/ 238.

(***) قوله تعالى: ﴿فأوردهم النار﴾ استعارة مكنية لأن الورود في الأصل يقال للمرور على الماء للاستسقاء منه. وهنا شبه النار بماء يورد وحذف ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الورود. وقوله (بئس الورد المورود) تأكيد له لأن الورود إنما يورد الإطفاء الغلة دواء والنار يحترق فيها.

فيدخلهم جهنم معه وبئس الورد الذي يردونه النار، لأن وارد الماء إنما يرده لتبريد كبده وإطفاء غُلّتِه من حرّ الظمأ، ووارد النار يحترق فيها احتراقاً[1].

7 ـ الجحيم:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾.

سورة البقرة: 119 وانظر المائدة: 10، 86 والتوبة: 113 والحج: 51 والشعراء: 91 والصافات: 23، 55، 64، 68، 97، 163 وغافر: 7 والدخان: 47، 56 والطور: 18 والواقعة: 94 والحديد: 19 والحاقة: 31 والمزمل: 12 والنازعات: 36، 39 والانفطار: 14 والتكوير: 12 والمطففين: 16 والتكاثر: 6.

أسباب النزول:

قال مقاتل: إن النبي ﷺ قال: «لو أنزل الله بأسه باليهود لآمنوا» فأنزل تعالى ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾ برفع تسأل[2].

وقال ابن عباس ومحمد بن كعب: إن رسول الله ﷺ قال ذات يوم «ليت شعري ما فعل أبواي» فنزلت هذه الآية والقراءة فيها ولا تسأل بالجزم. قال ابن كثير وإسناد الحديث في هذه الرواية ضعيف[3].

القراءات:

قرأ الجمهور (ولا تسألُ) برفع تسألُ، وهو في موضع الحال على (بشيراً ونذيراً) أي غير مسؤول عنهم.

---

(1) الكشاف، الصفحة السابقة ت. أبي السعود 4/ 238 والتي تليها. والمراغي 12/ 79 وما بعدها.

(2) القرطبي 2/ 92. والواحدي ص 27.

(3) انظر المرجع السابق وابن كثير 1/ 284 والواحدي 26 والتي تليها.

وقرأ نافع (ولا تَسألْ) جزماً على النهي وفيه وجهان: أحدهما: أنه نهى عن السؤال عمّن عصى وكفر من الأحياء لأنه قد يتغير حاله فينتقل عن الكفر إلى الإيمان، وعن المعصية إلى الطاعة.

والثاني: وهو الأظهر، أنه نهى عن سؤال عمّن مات على كفره ومعصيته، تعظيماً لحاله وتغليظاً لشأنه.

وقرأ أُبيّ: وما تُسألُ وقرأ ابن مسعود (ولن تُسْأَلَ) ومعناهما موافق لقراءة الجمهور، نَفْى أن يكون مسؤولاً عنهم[1].

اللغـــة:

جَحُمَتِ النارُ تَجْحُمُ جُحوماً: عَظُمَتْ وتأجَّجَت. وَجحِمَت تَجْحَمُ جَحْماً وجحماً وجُحُوماً: اضطرمت وكثر جَمْرُها وتوقُّدُها. وَجَحَمْتُ النار أَجْحَمُها جَحْماً أجّجْتُها[2].

والجحيم اسم من أسماء النار، وكل نارٍ عظيمة في مهواة فهي جحيم من قوله تعالى: ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ [الصافات/ 97][3].

التفسير:

إنا أرسلناك يا محمد بالإسلام الحق، الذي لا يقبل الله ديناً غيره، مبشراً لمن أطاعك بالنصر في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة، ومنذراً لمن عصاك بالخزي والذل في الدنيا والعذاب المهين في الآخرة، لهذا أرسلناك لا لتجبر أحداً على الإيمان وهذه تسلية لرسول الله ﷺ وتسرية عنه لأنه كان يغتم ويضيق صدره لإصرارهم

(1) انظر ما تقدم في القرطبي 2/ 92 والتي تليها وانظر البحر المحيط 1/ 367 و368 والكشف عن وجوه القراءات 1/ 262 والكشاف 1/ 91. ومجمع البيان 1/ 442 وما بعدها.

(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 183.

(3) الصحاح (جحم).

وتصميمهم على الكفر ولا نسألك يا محمد عمن كفر وكان من أصحاب الجحيم، ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلّغت وبَلَغَتْ جهدك في دعوتهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ۝٤٠﴾ فلا تؤاخذ بكفر من كفر بعد التبشير والإنذار(1).

8 ـ جهنم:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

سورة البقرة: 206 وانظر آل عمران: 12، 162، 197 والنساء: 55، 93، 97، 115، 121، 140، 169 والأعراف: 18، 41، 179 والأنفال: 36، 37 والتوبة: 35، 49، 63، 68، 73، 81، 95، 109 وهود: 119 والرعد: 18، وإبراهيم: 16، 29 والحجر: 43 والنحل: 29 والإسراء: 8، 18، 39، 63، 97 والكهف: 100، 102، 106 ومريم: 68، 86 وطه: 74 والأنبياء: 29، 98 والمؤمنون: 103 والفرقان: 34، 65 والعنكبوت: 54، 68 والسجدة: 13 وفاطر 36 ويس: 63 وص: 56، 85 والزمر: 32، 6، 71، 72 وغافر: 49، 60، 76 والزخرف: 74 والجاثية: 10 والفتح: 6 وقّ: 24، 30 والطور: 13 والرحمن: 43 والمجادلة: 8 والتحريم: 9 والملك: 6 والجن: 15، 23 والنبأ: 21 والبروج: 10 والفجر: 23 والبينة: 6.

أسباب النزول والقراءات:

انظر (بئس المهاد).

اللغة:

الجِهِنّام: القعر البعيد، وبئر جَهَنَّمٌ وجِهنّامٌ، بكسر الجيم والهاء: بعيدة القعر، وبه سميت جهنم لبعد قعرها. وقال الجوهري: جهنم من أسماء النار التي يعذب الله بها عباده، وهو ملحق بالخماسي بتشديد الحرف الثالث منه ولا يُجرى للمعرفة والتأنيث، ويقال هو فارسي معرب.

(1) م. الطبري 1/ 42 والكشاف 1/ 91 والقرطبي 2/ 92.

وقال الأزهري في جهنم قولان: قال يونس بن حبيب وأكثر النحويين: جهنم اسم النار التي يضرب الله بها في الآخرة وهي أعجمية لاتُجْرى للتعريف والعجمة، وقال آخرون: جهنّم عربي سميت نار الآخرة بها لبعد قعرها، إنما لم تُجْرَ لثقل التعريف وثقل التأنيث وقيل هو تعريب كِهِنّام بالعبرانية[1].

مما تقدم يُرجِّح أن الكلمة عربية لأن المعنى الأصلي للمادة القعر البعيدة، وبه وصف البئر ذات القعر البعيدة وبه سميت جهنم لبعد قعرها على ما هو معروف عند العرب ويقال: «ركيّة جهنّام» بتثليث الجيم والهاء، وجهنم بفتحتين وشد النون مفتوحة: بعيدة القعر، وبه سميت جهنم، وكلمة جهنم في وصف البئر أو الركيّة مصروفة، وأما منعها من الصرف فإنما يكون في اسم نار الآخرة، للعلمية والتأنيث. ولا يعكّر على ما تقدم مقاربة اللفظة العبرانية لها لأنه العبرانية أخت العربية، بل لعلها فرع محرف عن العربية[2]. هذا، ولا يبعد معنى جهنم عن معنى الجحيم الذي ذكره الجوهري[3]. ولا سيما إذا علمنا أن النار تضاف إليها كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة/ 109] فالنار في المهواة العظيمة هي الجحيم.

التفسير:

تقدم في (بئس المهاد).

9 - الحافرة:

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

(1) انظر لسان العرب والصحاح (جهنم) والمعرب للجواليقي ص 107.

(2) انظر المرجع السابق، الصفحة نفسها الحاشية الثامنة.

(3) انظر ما تقدم في (الجحيم).

سورة النازعات: 12،10.

اللغـــة:

الحُفْرَةُ: جزء من الأرض نُزِع تُرابُه فانخفض[1].

وقيل رَجَع على حافرته ورجَع الشيخ إلى حافرته أي هرم. وقوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ مَثَلٌ لمن يُرَدُّ من حيث جاء، أي أنحيا بعد أن نموت؟ وقيل الحافرة الأرض التي جُعلت قبورهم، ومعناه أئنا لمردودون ونحن في الحافرة؟ أي في القبور، وقوله في الحافرة على هذا في موضع الحال[2].

وقال ابن زيد: الحافرة: النار، وقرأ «تلك إذا كرَّة خاسرة» وقال مقاتل وزيد بن أسلم: هي اسم من أسماء النار[3].

وذكر ابن جزي في التسهيل أن الحافرة هي النار، من غير نسبة[4].

والحافرة: فاعلة بمعنى مفعولة أو على النسب أي ذات حفر[5]. وسميت الأرض الحافرة لأنها مستقر الحوافر[6].

ولعل الذي قال إنها النار اقتبسها من معنى الجحيم وجهنم على ما تقدم من أن الأولى بئر ذات قعر بعيدة. والثانية: نار عظيمة في مهواة. ولعل ابن زيد استوحى المعنى من «تلك إذاً كرة خاسرة» أي أحيوا وصاروا إلى النار.

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 272.
(2) المفردات ص 124.
(3) القرطبي 19/ 197 وانظر البحر المحيط 8/ 420
(4) التسهيل 4/ 176.
(5) البحر المحيط، الصفحة السابقة وانظر الكشاف 4/ 181.
(6) القرطبي، الصفحة السابقة.

القراءات:

قرأ الجمهور (الحافرة) بالألف وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة (في الحَفِرة) بغير ألف. قيل هما بمعنى واحد، وقيل الحَفِرة هي الأرض المنتنة المتغيرة بأجساد موتاها. من قولهم حَفِرَت أسنانه إذا تأكلت وتغيرت[1].

التفسير:

يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركي قريش إذا قيل لهم إنكم مبعوثون من بعد الموت: أئنا لمردودون إلى حالنا الأولى قبل الممات فراجعون أحياء كما كنا قبل مماتنا؟! يقولون ذلك منكرين له متعجبين منه.

وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾ تأكيد لإنكار الردّ ونفيه بنسبته إلى حالةٍ منافيةٍ، أي أنُرَدّ إلى الحياة بعد أن نصير عظاماً بالية لو لُمست لتفتّت؟:

قالوا بطريق الاستهزاء والتهكم مشيرين إلى ما أنكروه من الردّة في الحافرة مشعرين بغاية بعدها من الوقوع ـ: إن صح ما قلتم من البعث يوم القيامة بعد أن نصير عظاماً نخرةً، فنحن إذا خاسرون، لأنا كذبنا به، ولم نأخذ العدة له، فيا ويلنا في هذا اليوم[2].

10 ـ الحُطمة:

﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾.

سورة الهمزة: 6.4.

(1) القرطبي والبحر المحيط، الصفحة السابقة.

(2) ت. أبي السعود 9/ 97 وما بعدها. والمراغي 30/ 25. وانظر تفسير رد الله عليهم في (الساهرة) وهي الصفة الثالثة عشرة من صفات جهنم.

القراءات:

1 - قرأ الجمهور (في الحُطمة) وما أدراك ما الحطمة، وقرأ زيد بن علي (في الحاطمة وما أدراك ما الحاطمة) وهي النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها وفي القراءة الأولى معنى المبالغة يقال للرجل الأكول إنه لحطمة[1].

2 - قرأ الجمهور (لَيُنْبَذَنَّ) فيه ضمير الواحد أي ليُطْرحنَّ وليُلقينَّ. وقرأ علي والحسن وابن محيصن وحميد وهارون عن أبي عمرو «لينبذانّ» بألف ضمير اثنين أي هو وماله. وعن الحسن أيضاً (لَيُنْبَذَنّه) على معنى ليُنبذَنَّ ماله وعنه أيضاً «لننبذنَّهُ» على إخبار الله تعالى عن نفسه، وأنه يَنْبذُ صاحبَ المال. وعنه أيضاً «ليُنبذُنَّ» بضم الذال، على أن المراد الهمز واللمز والمال وجامعة[2].

اللغـــة:

الحَطْمُ: كَسْرُ الشيء مثل الهَشم ونَحوِهِ، حَطَمهُ يَحْطِمُه حَطماً. والحُطامُ: ما تكسّر من اليابس. والحُطمة: الكثيرة التحطيم وأطلقت على جهنم لتحطيمها المكذبين بها[3].

وقيل هي الطبقة السادسة من جهنم قاله الكلبي، وعنه أيضاً: الحُطمة: الدركة الثانية من درك النار وعن الضحاك: أنها الدرك الرابع.

وقال ابن زيد: اسم من أسماء جهنم[4]. وقال الواحدي: باب من أبواب جهنم[5].

---

(1) الكشاف 4/ 233 والبحر المحيط 8/ 510.
(2) القرطبي 20/ 184 وانظر البحر المحيط والكشاف، الصفحة السابقة.
(3) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 271.
(4) القرطبي 20/ 184 والبحر المحيط 8/ 501.
(5) المرجع الأخير، الصفحة نفسها.

التفسير:

كلا أيها العيّاب ازدجر عما يخيل إليك من أن المال يخلدك ويبقيك، بل الذي ينفع هو العلم وصالح العمل، فإنك والله مطروح - لا محالة - في النار التي تحطم وتكسر كل ما يلقى فيها.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾؟ إنها مما لا تحيط بها معرفتك، ولا يقف على حقيقتها عقلك، فلا يعلم شأنها، ولا يقف على كنهها، إلا من أعدها لمن يستحقها. إنها النار التي لا تُنسب إلا إليه سبحانه، إذ هو الذي أنشأها وأعدها العقاب العصاة والمذنبين. وليست كسائر النيران.

وفي وصفها بالموقدة إيماء إلى أنها لا تخمد أبداً، بل هي ملتهبة التهاباً لا يدرك حقيقته إلا من أوجدها[1].

11 - دار البوار:

﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾.

سورة إبراهيم: 28 و29.

أسباب النزول والقراءات:

انظر (بئس القرار).

اللغة:

بار يبور - من باب نصر - بَوراً وبُوراً وبُواراً: هلك، فهو بائر، وبارت التجارة: كسدت[2].

---

(1) المراغي 30/ 239 وت. أبي السعود 9/ 198 والتي تليها والقرطبي 20/ 184 وما بعدها. ومجمع البيان 30/ 231.

(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 134.

ودار البوار: دار الهلاك وهي جهنم(1).

التفسير:

تقدم في (بئس القرار).

12 ـ دار الخلد:

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٢٨﴾.

سورة فصلت: 28

القراءات:

قرأ العامة: (النار لهم فيها دار الخلد) [على أن (لهم فيها دار الخلد) جملة مستأنفة أو خبر النار].

وقرأ ابن مسعود وابن عباس: «ذلك جزاء أعداء الله النارُ دارُ الخلد» فترجم بالدار عن النار وهو مجاز الآية(2).

اللغة:

1 ـ دار: انظر دار السلام.

2 ـ الخلد: انظر جنة الخلد.

والمراد ان لهم في النار المشتملة على الدركات داراً مخصوصة هم فيها خالدون.

التفسير:

ذلك الجزاء من العذاب الشديد ـ الذي هو أسوأ الجزاء الذي أقسم تعالى ـ في الآية السابقة لنذيقنّهم إياه ـ المعدّ للمشركين أعداء الله

(1) القرطبي 9/ 365 وكذا في سائر التفاسير. وقيل دار البوار هي إخراجهم إلى بدر حيث قتلوا. ولا يسعفه النظم.

(2) انظر القرطبي 15/ 356 وما بين معكوفتين [] زيادة وضعتها لتبيين الوجه في قراءة العامة. وانظر معجم القراءات القرآنية 6/ 70.

المستهزئين بكتابه، هو النار، لهم فيها دار الإقامة لا يخرجون منها أبداً، فهم مخلدون فيها، لا انتقال منها ولا انقطاع لعذابها، جزاء لهم على جحودهم بآياتنا في الدنيا واستكبارهم، عن سماعها[1].

13 - دار الفاسقين:

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

سورة الأعراف: 145.

القراءات:

قرأ العامة (سأُوريكم) بدون الواو، أي سأريكم دار فرعون وقومه وهي مصر كيف أقفرت منهم وقيل منازل عاد وثمود والقرون التي أهلكهم الله لفسقهم. وقيل سأريكم دار الفاسقين نار جهنم.[2].

وقرأ الحسن (سأوريكم) بالواو، وهي لغة فاشية بالحجاز يقال أورني كذا وأوريته، ووجهه أن تكون من أوريت الزند كان المعنى بيِّنْتهُ لي وأنِرْهُ لأستبينه[3].

وقرأ ابن عباس وقَسَامة بن زهير: (سأورثكم) وهي قراءة حسنة يصححها قوله ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾[4].

اللغة والدلالات الخاصة:

الفاسقون: انظر الفسق وجراء الفاسقين في قسم الأخلاق الذميمة وفي دار الفاسقين أقوال:

(1) المرجع السابق الصفحة نفسها وم. الطبري 2/ 308 والمراغي 24/ 126.
(2) انظر القرطبي 7/ 282 والكشاف 2/ 93 والبحر المحيط 4/ 389.
(3) الكشاف والبحر المحيط، الصفحة السابقة.
(4) القرطبي والبحر المحيط والكشاف، الصفحة السابقة ولم ينسب الزمخشري هذه القراءة.

ـ ما مروا عليه إذا سافروا من منازل عادٍ وثمود والقرون التي أهلكوا.

ـ جهنم، قاله الحسن ومجاهد، أي فلتكن منكم على ذكرنا حذورا أن تكونوا منها.

ـ مصر وفيها ديار القبط ومساكن فرعون خالية عنهم.

ـ منازل الكفار التي سكنوها قبلكم من الجبابرة والعمالقة لتعتبروا بها ويعني الشام.

ـ وقيل: الدار الهلاك، وجمعه أدوار، وذلك أن الله تعالى لما أغرق فرعون أوحى إلى البحر أن أقذف بأجسادهم إلى الساحل قال: ففعل، فنظر إليهم بنوا إسرائيل فأراهم هلاك الفاسقين[1].

والأرجح مما تقدم والأظهر دار فرعون وقومه ـ مصر ـ كيف أقفرت منهم لما هلكوا. على أن ما تقدم كله محتمل وليس بمستبعد وقد اختار الطبري دار الفاسقين جهنم.

التفسير:

وكتبنا لموسى في ألواح التوراة كل ما يحتاج إليه من المواعظ والأحكام، موعظة لقومه وتبياناً لكل شيء من الحلال والحرام[*]، فقلنا له: خذها بجدّ وعزيمة فِعْلَ أولي العزم من الرسل وكلف بني إسرائيل على أن يحملوا أنفسهم على العمل بأحسن ما يجدون فيها وأكثره ثواباً، ففيها الحسن والأحسن كالقصاص والعفو، فالعفو أحسن من القصاص، والانتصار والصبر، فالصبر أحسن من

(1) القرطبي 7/ 282 وانظر الكشاف والبحر المحيط، أيضاً الصفحة السابقة. والتسهيل 2/ 45.

(*) قوله تعالى: ﴿وموعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾ أي لكل شيء أُمِرُوا به من الأحكام، فإنه لم يكن عندهم اجتهاد، وإنما خص بذلك أنه محمد ﷺ والقرطبي 7/ 281.

الانتصار(*) كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾.

سأريكم في الآخرة ما يصير إليه حال الفاسقين بإدخالهم نار الله التي أعدها لأعدائه. فلتكن منكم على ذكر فاحذروا أن تكونوا منها[1].

14 ـ الساهرة:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

سورة النازعات: 13، 14.

اللغة:

سَهِرَ يَسْهَرُ سَهَراً: لم ينم والساهرة الأرض البيضاء(**) التي لا نبات فيها[2]. وفي الساهرة الواردة في القرآن أقوال[3].

1 ـ وجه الأرض، سميت بهذا الاسم لأن فيها قوم الحيوان وسهرهم. والعرب تسمي الفلاة ووجه الأرض. ساهِرة، بمعنى ذات سهر، لأنه يُسْهر فيها خوفاً منها، فوصفها بصفة ما فيها.

2 ـ اسم الأرض السابعة يأتي بها الله تعالى فيحاسب عليها الخلائق، وذلك حين تبدل الأرض غير الأرض.

3 ـ الساهرة: أرض الشام وقيل جبل المقدس، وقيل الصقع الذي بين جبل أريحاء وجبل حسان يمده الله كيف يشاء.

(*) وقيل: يأخذوا بما هو واجب أو ندب لأنه أحسن من المباح، ويجوز أن يراد يأخذوا بما أمروا به دون ما نهوا عنه وذلك على قولك «الصيف أحر من الشتاء» المراد به أن شيئاً زاد في صفة نفسه على شيء آخر في صفته لا أن شيئين اشتركا في صفة وزاد أحدهما على الآخر فيه. انظر الكشاف 2/ 93.

(1) م. الطبري 1/ 283 والكشاف 2/ 92 والتي تليها والقرطبي 7/ 281 وما بعدها.

(**) سميت بذلك لأن السراب يجري فيها من قولهم عين ساهرة: جارية الماء وفي ضدّها: نائمة. أو سميت بذلك لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة. القرطبي 19/ 200.

(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 603.

(3) القرطبي 19/ 198.200 والبحر المحيط 8/ 421.

4 ـ الساهرة: جهنم، وقيل لها ساهرة لأنهم لا ينامون عليها حينئذ، قاله قتادة. قال أبو حيان: رأى أن الضمائر قبلها إنما هي للكفار ففسّرها. بجهنم.

5 ـ الساهرة: الصحراء على شفير جهنم، أي يوقفون بأرض القيامة فيدوم السهر حينئذ.

والأظهر من كل ما تقدم وجه الأرض أو الأرض البيضاء أو جهنم. والله تعالى أعلم.

التفسير:

ردّ الله تعالى على المكذبين بالبعث من مشركي قريش مقالتهم[1]. بقوله ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ أي لا تستبعدوا ذلك وتظنوه عسيراً شاقاً علينا، فإنما هي صيحة واحدة، وهي النفخة الثانية التي يبعث الله بها الموتى فإذا الناس كلهم على سطح الأرض أحياء بعدما كانوا أمواتاً في جوفها. وقد بدلت فأصبحت غير الأرض التي يعرفونهامن جبال وأودية وتلال وإنما هي بيضاء مستوية لا ينام من وقف عليها[2].

وإذا أوّلت الساهرة بجهنم فيكون المعنى: فإذا هم أي المشركون المكذبون، في جهنم، فهم لا يسألون عن ذنوبهم لشدة ظهورها ولا يستعتبون وإنما يدعون إلى جهنم دعّا، فليس لهم من حسنة ولا شفيع. والله تعالى أعلم.

15 ـ السعير:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

(1) انظر تفسير مقالتهم في (الحافرة) وهي الصفة الثامنة من صفات جهنم وأسمائها.

(2) ت. أبي السعود 9/ 98 والمراغي 30/ 25 والقرطبي 19/ 198 وما بعدها.

سورة النساء: 10 وانظر النساء: 55 والإسراء: 97 والحج: 4 والفرقان: 11 ولقمان: 21 والأحزاب: 64 وسبأ: 12 وفاطر: 6 والشورى: 7 والفتح: 13 والملك: 5، 10، 11 والإنسان: 4 والانشقاق: 12.

أسباب النزول:

قال مقاتل: نزلت في رجل من غطفان يقال له مرثد بن زيد ولي مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله فأنزل الله فيه هذه الآية[1].

وقال ابن زيد: نزلت في الكفار الذين كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار[2].

القراءات:

قرأ ابن عامر وعاصم في رواية ابن عباس (وسيُصلون سعيراً) بضم الياء من أصلاه الله حر النار إصلاء. قال تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾.

وقرأ أبو حيوة بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام (وسيُصَلُّون) من التصلية لكثرة الفعل مرة بعد أخرى، ودليله قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ﴾ ومنه قولهم صلَّيته مرة بعد أخرى.

وقرأ الباقون بفتح الياء «وسيَصْلَوْن» من صَلِيَ النار يصلاها صَلِيَ وصِلاءً. قال تعالى: ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ﴾ والصّلاء هو التسخين بقرب النار أو مباشرتها[3].

اللغة:

سَعَر النارَ والحرب يَسْعَرْهما سَعْراً، وأسْعَرَهما إسْعاراً وسَعَّرهما تَسْعيراً: أو قدهما وهيَّجهما.

---

(1) الواحدي ص 106 والقرطبي 5/ 53.

(2) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(3) المرجع السابق 53 والتي تليها. وانظر الكشف عن وجوه القراءات 1/ 378 والبحر المحيط 1/ 179 والكشاف 1/ 251 ومجمع البيان تتمة الجزء الرابع ص 28.

والسَّعير. المُوقَدُ المُهيَّجُ. ونارق سعيرٌ: مُوقدة مُهَيَّجَةٌ[1].

ونار سعير: مسعورة مثل وهين وصريع وخضيب لأنك تقول سُعِرت النارُ فهي مسعورة. فهي فعيل بمعنى مفعول[2]. ويراد بالسعير جهنم.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ أي ناراً من النيران هائلة مبهمة الوصف[3].

التفسير:

إن الذين ينتفعون بأموال اليتامى ويأخذونها ظلماً بغير حق، لا أكلاً بالمعروف عند الحاجة إلى ذلك، أو تقديراً لإجرة العمل، وسمى أخذ المال والانتفاع به على كل الوجوه أكلاً، لما كان المقصود هو الأكل وبه أكثر إتلاف الأشياء - إنما يأكلون ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة، قال السدي: يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأنفه وعينيه يعرفه كل من رآه بآكل مال اليتيم. وعن رسول الله ﷺ قال: «يبعث يوم القيامة القوم من قبورهم تأجج أفواههم ناراً قيل يا رسول الله مَن هم؟ قال: «ألم تر أن الله قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ . وقد خص البطون بالذكر لتبيين نقص آكلي أموال اليتامى ظلماً والتشنيع عليهم بضد مكارم الأخلاق وسُمّي المأكول ناراً بما يؤول إليه كقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ أي عنباً وقيل ناراً أي حراماً لأن الحرام يوجب النار فسماه تعالى باسمه. وسيلزمون ناراً موقدة هائلة شديدة

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 568.

(2) انظر لسان العرب (سعر) ومجمع البيان تتمة الجزء الرابع ص 29 وت. أبي السعود 2/ 148.

(3) المرجع الأخير والكشاف 1/ 251.

الحر. لأن أكل مال اليتيم من الكبائر. قال رسول الله ﷺ: اجتنبوا السبع الموبقات، قيل يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات(1).

16 ـ السَّقر:

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

سورة القمر: 55 وانظر المدثر: 26، 27، 42.

أسباب النزول:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر فنزلت ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ وهكذا رواه مسلم والترمذي وابن ماجة من حديث وكيع عن سفيان الثوري(٢).

القراءات:

قرأ عامة القراء (يسحبون في النار) أي يسحبون فيها على وجوههم.

وقرأ عبد الله بن مسعود (يسحبون إلى النار)(3). والمعنى في هذه القراءة ظاهر.

والقراءة الأولى أبلغ لأن السحب على الوجه في النار تعذيب فوق تعذيب.

(1) القرطبي 5/ 53 والتي تليها. وابن كثير 2/ 210 وما بعدها. ومجمع البيان تتمة الجزء الرابع 31 وما بعدها. وت. أبي السعود 2/ 148 وم. الطبري 1/ 141.

(2) ابن كثير 6/ 479 وفي أسباب النزول روايات أخرى كلها تشير إلى أنها نزلت في الذين يكذبون بقدر الله. وانظر الواحدي 299 وما بعدها. والقرطبي 17/ 148.

(3) انظر البحر المحيط 8/ 183.

اللغــة:

سَقَرته الشمس تَسْقُرهُ سَقْراً: لَوَّحَتْهُ وآلمت دماغه بحرِّها. وسَقَرات الشمس: شدة وقْعِها. وسَقَرُ: اسم من أسماء جهنم. مشتق من ذلك[1]. قال ابن الأثير: وهو اسم أعجمي علم لنار الآخرة لا ينصرف للعجمة والتعريف، وقيل: هو من قولهم سقرتة الشمس إذا أذابته فلا ينصرف للتأنيث والتعريف[2]. والراجح هو القول الأخير فالكلمة عربية الأصل. وقد روي أن السين صاداً في لغة أخرى (صَقَر) ولم يذكر الراغب في المفردات أن اللفظ أعجمي[3].

التفسير:

بيَّن تعالى ما يلحق المشركن بالله المكذبين لرسله من الإهانة والذل والعذاب في نار جهنم يوم القيامة فقال:

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ أي يعذبون وبها نون يوم يجرون على وجوههم في النار، فكما كانوا في ضلال وشك وذهاب عن الحق كذلك يسحبون في نارجهنم على وجوههم لا يدرون أين يذهبون وأين ينتهي بهم.هذا العذاب المهين.

ويقال لهم إيلاماً وتقريعاً: ذوقوا حرّ النار وألمها جزاء وفاقاً لتكذيبكم رسل ربكم في كل ما جاؤوا به من الإنذار بهذا اليوم[4].

17 ـ السمـوم:

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

(1) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 573 ولسان العرب (سقر).
(2) النهاية 2/ 377، وكذا قال الزمخشري لا ينصرف للتأنيث والتعريف انظر الكشاف 4/ 48.
(3) انظر المفردات 235.
(4) المراغي 27/ 100 وت. أبي السعود 8/ 174 وابن كثير 6/ 479.

سورة الطور: 25ـ28 وانظر الحجر: 27 والواقعة: 42.

اللغة:

السّموم: الريح الحارة تكون غالباً بالنهار، سُمِّيت بذلك لأنها تنفذ في مسام الجسم أو تؤثر فيه تأثير السم(1).

ومما تقدم قيل: السموم: اسم من أسماء النار وطبقة من طباق جهنم. وقيل: هو النار كما تقول جهنم. وقيل نار عذاب السموم(2).

قال الزمخشري: «عذاب السموم» عذاب النار ووهجها ولفحها، والسموم الريح الحارة التي تدخل السمام، فسميت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة(3).

التفسير:

تقدم في (البر) من أسماء الله تعالى المفردة.

18 ـ سوء الدار:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

سورة غافر: 52 وانظر الرعد: 25.

اللغـــة:

1 ـ السَّوْءُ والسُّوء مصدران لساء كالكَرْهِ والكُرْهِ إلا أن السَّوء بالفتح غلب عليه أن يضاف إليه ما يراد ذمه وتقبيحه من كل شيء، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ...﴾ [مريم/ 28].

والسُّوء بالضم: القُبْح، ويستعمل في الشر والأذى كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ....﴾ [النساء/ 110] وقوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة/ 49](4).

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 596 وانظر المفردات ص 241.
(2) القرطبي 17/ 70.
(3) الكشاف 4/ 35.
(4) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 605 والتي تليها.

وقوله تعالى: ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٢٥﴾ أي سوء دار الآخرة وهو عذابها[1]. فسوء الدار: جهنم[2]، لأن العذاب يقع فيها.

التفسير:

في ذلك اليوم - يوم يقوم الأشهاد من الملائكة والأنبياء والمؤمنين في الآخرة - لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم لأنهم لا يعتندون إلا بالباطل ولا حجة لهم في الآخرة إلا الاعتصام بالكذب كما حكى سبحانه عنهم من قولهم: «والله ربنا ما كنا مشركين».

ولهم في هذا اليوم الطرد من رحمة الله والبعد عنها، ولهم شر ما في الآخرة من العذاب الأليم في جهنم[3].

19 - السُّوأى:

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾.

سورة الروم: 10.

اللغة:

السّوأى: فُعْلى من السوء تأنيث الأسوأ وهو الأقبح كما أن الحُسنى تأنيث الأحسن. ويراد بها في هذه الآية، النار كما قال ابن عباس. والسوأى اسم جهنم كما أن الحُسنى[*] اسم الجنة ومعنى أساؤوا في هذه الآية: أشركوا دل عليه قوله: «أن كذبوا بآيات الله»[4] والسؤاى أسوأ العقوبات في الآخرة وهي جهنم التي أعدت للكافرين[5].

(1) الكشاف 3/ 375.
(2) القرطبي 15/ 323.
(3) م. الطبري 2/ 297 وت. أبي السعود 7/ 280 والمراغي 24/ 82.
(*) انظر أسماء الجنة - 11 -.
(4) القرطبي 14/ 10 وانظر المفردات 253 والكشاف 3/ 199 والبحر المحيط 7/ 164.
(5) الكشاف 3/ 199.

القراءات:

1 ـ قرأ الكوفيون وابن عامر (عاقبةَ) بالنصب، وقرأ الباقون بالرفع (عاقبةُ).

وحجة من قرأ بالنصب أنه جعل (عاقبة) خبر كان مقدّماً على اسمها، واسمها السوأى، تقديره ثم كانت السوأى عاقبةَ الذين. . . وحجة من رفع (عاقبةُ) أنه جعل العاقبة اسم كان والخبر السوأى والتقدير: ثم كان مصير المسيئين السوأى من أجل أن كذبوا، أي كان مصيرهم دخول جهنم[1].

2 ـ وقرأ ابن مسعود ـ كما في البحر ـ والأعمش ـ كما في القرطبي ـ السوءُ بالرفع والتذكير[2].

التفسير:

ثم كان العذاب عاقبة الذين أساؤوا إلى نفوسهم بالكفر بالله وتكذيب رسله وارتكاب معاصيه، من الأمم المتقدمة الذين كانوا أشد من مشركي مكة قوة وعمروا الأرض أكثر مما عمرها هؤلاء المشركون، أما عذابهم في الدنيا فلهم البوار والهلاك، وأما في الآخرة فالنار لا يخرجون منها ولا يتسعتبون، وما ذاك إلا لأنعام كذبوا بحجج الله وآياته وهم أنبياؤه ورسله وما أنزل عليهم، وسخروا منهم عنقاً وكبراً[3].

20 ـ ظاهر السور:

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ

(1) الكشف عن وجوه القراءات 2/ 182 وانظر القرطبي 14/ 10 والبحر 7/ 164 والكشاف 3/ 199 ومجمع البيان 21/ 10.

(2) انظر البحر المحيط والقرطبي، الصفحة السابقة.

(3) مجمع البيان 21/ 12 والمراغي 21/ 32.

ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾.

سورة الحديد: 13.

القراءات:

انظر ما تقدم في (باطن السور) من أس الجنة ـ 2 ـ.

اللغـة:

ظَهَرَ الشيءُ: تَبَيَّنَ والظّاهر: ضد الباطن[1].

وقوله تعالى: ﴿.... بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ أي من قبل ذلك الظاهر (العذاب) وهو النار[2]. ولعله سمي ظاهراً لأنه لا يظهر على حواس المنافقين والمنافقات شيء غيره، فالسور حجب عنهم الجنة ونعيمهاوأهلها من الأنبياء والصديقين والشهداء والمؤمنين. وبقوا وراءه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة[3]. ولذلك قيل إن الرحمة في باطن السور نور المؤمنين والعذاب الذي في ظاهره ظلمة المنافقين[4].

فالمراد أن المؤمنين يسبقون المنافقين ويدخلون الجنة، والمنافقون يجعلون في النار والعذاب، وبينهم السور الذي ذكره الله[5]، لا يرون وهم في العذاب إلا ظاهره.

التفسير:

تقدم في (باطن السور).

(1) الصحاح (ظهر).
(2) نُسب هذا التأويل إلى ابن عباس وقتادة وابن زيد انظر القرطبي 17/ 246 وابن كثير 6/ 556.
(3) المرجع الأخير الصفحة نفسها والتي تليها.
(4) القرطبي 17/ 246.
(5) مجمع البيان 27/ 147.

21 ـ اللظى:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

سورة المعارج: 18،15.

القراءات:

1 ـ الوقف عند العامة على (لظى) ووقف الكسائي على (كلا) ولكن الوصل أولى. وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وخلف وورش (لظى) بالإمالة والباقون من غير إمالة[1].

2 ـ قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم في رواية أبي بكر عنه والأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائي «نزّاعةٌ» بالرفع. وروى أبو عمرو عن عاصم «نزاعةً» بالنصب. فمن رفع فله خمسة أوجه:

أحدها: أن تجعل لظى خبر إنَّ وترفع نزاعة بإضمار هي.

والثاني: أن تكون لظى ونزاعة خبرين لـ «إنَّ».

والثالث: أن تكون نزاعة بدلاً من لظى ولظى خبر إنَّ.

والرابع: أن تكون لظى بدلاً من اسم إنَّ ونزاعة خبر إنَّ.

والخامس: أن يكون الضمير في إنها للقصة ولظى مبتدأ ونزاعة خبر الابتداء، والجملة خبر إنَّ[2].

وحجة من نصب نزاعة أنه جعله حالا من لظى لأنها معرفة، وهي حال مؤكدة فلذلك أتت حالاً من لظى ولظى لا تكون إلا نزاعة للشوى والعامل في نزاعة ما دل عليه الكلام من معنى التلظي. وقيل

---

(1) معجم القراءات القرآنية 7/ 222.

(2) القرطبي 18/ 287 وانظر الكشف عن وجوه القراءات 2/ 336 والبحر المحيط 8/ 334 والتي تليها 29/ 56 والتي تليها.

نصبها بإضمار فعل على معنى أعنيها نزاعة فهي حال أيضاً من لظى لأن الهاء في (أعنيها) لـ (لظى)[1].

اللغة:

تَلَظَّت النارُ تتلظى: اشتدَّ لهيبها. واللظى: اللهب الشديد، واسم من أسماء جهنم[2].

وسميت جهنم لظى لأنها تتلظى أي تشتعل وتلتهب على أهلها.

وقيل: (لظى) الدركة الثانية من طبقات جهنم وهي اسم مؤنث معرفة فلا ينصرف[3].

قال الزمخشري (لظى) علم للنار فنقول من اللظى بمعنى اللهب ويجوز أن يراد اللهب[4].

وفي (لظى) وصف للنار وشدة حرها[5].

التفسير:

(كلا) ليس ينجي الكافر من عذاب الله شيء، ولو كان ولده أو زوجته أو أخاه أو عشيرته أو أهل الأرض جميعاً، إنها جهنم تلتهب وتنزع جلدة الرأس وتبري اللحم والجلد عن العظم. وتدعو جهنم إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، وقدّر أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها، تجذبهم يوم القيامة إليها من يمين أهل المحشر، وذلك أنهم دسّوا أنفسهم بإعراضهم عن طاعة الله وتوليهم عن الإيمان بكتابه ورسله، وجمعهم المال بعضه على بعض وكنزه، وبذلك لم يؤدّوا

(1) الكشف عن وجوه القراءات 2/ 335 وانظر ما تقدم في الحاشية السابقة. والكشاف 4/ 139.
(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 543.
(3) انظر القرطبي 18/ 287.
(4) الكشاف 4/ 139.
(5) ابن كثير 7/ 115.

حق الله فيه من الواجب عليهم في النفقات ومن إخراج الزكاة، وتشاغلوا به عن فرائض منه من أوامره ونواه[1].

22 ـ النار:

قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24)﴾.

سورة البقرة: 24 وانظر البقرة: 39، 80، 81، 126، 167، 175، 201، 217، 257، 275 وآل عمران: 10، 16، 24، 103، 116، 131، 151، 185، 191، 192 والنساء: 145 والمائدة: 29، 37، 72 والأنعام: 27، 128 والأعراف: 12، 36، 38، 44، 47، 50 والأنفال: 14 والتوبة: 17، 35، 63، 68، 81، 109 ويونس: 8/ 27 وهود: 16، 17، 98، 106، 113 والرعد: 5، 35 وإبراهيم: 30، 50 والنحل: 62 والكهف: 53 والأنبياء: 39 والحج: 19، 27 والمؤمنون: 104 والنور: 57 والنمل: 90 والعنكبوت: 24، 25 والسجدة: 20 والأحزاب: 36 وسبأ: 42 وفاطر: 36 وص: 27، 59، 61، 64 والزمر: 8، 16، 19 وغافر: 6، 43، 46، 47، 49، 72 وفصلت: 19، 24، 28، 40 والجاثية: 34 والأحقاف: 20، 34 ومحمد: 12، 15 والذاريات: 13 والطور: 13، 14 والقمر: 48 والرحمن: 35 والحديد: 15 والمجادلة: 17 والحشر: 3، 17، 20 والتغابن: 10 والتحريم: 10 والجن: 23 والمدثر: 31 والأعلى: 12 والبلد: 20 والبينة: 6 والقارعة: 11 والهمزة: 6.

القراءات:

1 ـ قرأ الجمهور (وَقودها) بفتح الواو وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة وأبو حياة وعيسى بن عمر الهمذاني (وُقودها) بضم الواو. وقرأ عبيد بن عمر (وَقيدها) على وزن فعيل. فعلى قراءة الجمهور وقراءة ابن عمير هو الحطب وعلى قراءة الضم هو المصدر على

(1) المرجع السابق، الصفحة السابقة والتي تليها م. الطبري 2/ 485 والمراغي 29/ 68 وما بعدها. والقرطبي 18/ 289 ومجمع البيان 29/ 59.

حذف مضاف لأن الناس والحجارة ليسا هما الوقود، أو على أن جعلوا نفس الوَقود مبالغة كما يقال فلان فخر بلده، وهذه النار ممتازة عن غيرها بأنها تتقد بالناس والحجارة وهما نفس ما يحرق[1].

يقال: وَقَدَتِ النارَ تَقِدُ وُقوداً (بالضم) وَوَقداً وَقِدةً وَوَقيداً ووقْداً ووَقدَاناً، أي توقَّدَت. والاتّقاد مثل التَّوقُّد[2].

2 - قرأ الجمهور (أُعِدَّت) [أي هُيِّئَت وأُحْضِرَتْ للكافرين] وقرأ عبد الله (أُعْتِدَتْ) من العتاد بمعنى العدَّة.

وقرأ ابن أبي عَبلة (أعدها الله للكافرين) وهي بمعنى القراءة الأولى. ولا يدل إعدادها للكافرين على أنهم مخصوصون بها من دون العُصاة، فقد اكتفى بذكر الكفار تغليباً للأكثر على الأقل أو لأن الكافر يشمل من كفر بالله وكفر بأنعمه، أو لأن من أخرج منها من المؤمنين لم تكن معدة له دائماً بخلاف الكفار[3].

اللغـــة:

النَّارُ: اللهب الذي ينبعث منه الحرارة والنور، ويكون عنه الإحراق وإنضاج النيّء من اللحم والطعام.

وأكثر ما ترد النار في الكتاب مراداً بها نار الآخرة التي يصلاها العصاة. وقد تضاف إلى جهنم كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة/ 109].

ويُكنّى بإيقاد نار الحرب عن العزم على الحرب، فقد كان له عادة العرب إذا أرادوا حرباً أن يوقدوا ناراً إيذاناً بالحرب ليستعد القوم

(1) البحر المحيط 1/ 107 وانظر القرطبي 1/ 236.
(2) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(3) البحر المحيط 1/ 109.

لها قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ [المائدة/ 64].

وقد يتجوَّز بالنار عما يقضي إلى العذاب بها في الآخرة من المعاصي كما جاء في آكل مال اليتيم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [النساء/ 10]. والنار من مادة (نور) وهي من الأسماء المؤنثة وجمعها نيران ونيرة وأنوار[1].

التفسير:

بعد أن طلب تعالى إلى الجاحدين المعاندين في نبوة محمد ﷺ وفي أن القرآن معجزته أن يأتوا ﴿بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ وهم فرسان البلاغة وبفصيح القول يتفاخرون، مستعينين بأعوانهم ومن يستنصرون بهم ليعلموا صدقهم من كذبهم دعواهم وزعمهم بعد أن طلب إليهم ذلك قال: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ أي فإن لم تفعلوا ما أُمِرْتُم به من الإتيان بالمثل وعجزتم أنتم وجميع الخلق عنه بعد بذل المجهود، ولن تأتوا بسورة من مثله أبداً فليس في استطاعتكم ذلك، فاحذورا من العناد واعترفوا بأن القرآن منزل من عند الله، لئلا تكونوا أنتم وأصنامكم وقوداً للنار التي أعدت لأمثالكم من الكافرين[2].

وفي هذه الآية دليلان[3]:

أولهما: قوله تعالى: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ فيه معجزة باهرة حيث أخبر بالغيب الخاص علمه به عز وجل وقد وقع الأمر كذلك، وهذا دليل على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ.

---

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 738، وقد أضفنا شواهد من القرآن الكريم لما ورد من المعاني.

(2) ت. أبي السعود 1/ 66 وما بعدها. والمراغي 1/ 66 والتي تليها ومجمع البيان 1/ 138 وما بعدها وم. الطبري 1/ 16.

(3) انظر الصفحات السابقة في ت. أبي السعود ومجمع البيان والقرطبي 1/ 236 وابن كثير 1/ 107.

والثاني: قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فيه دلالة على أن النار مخلوقة الآن، لأن المعدّ لا يكون إلا موجوداً. وكذلك الجنة بقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

23 ـ الهاوية:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝﴾.

سورة القارعة: 11.6.

القراءات:

قرأ الجمهور: (فأُمُّهُ هاوية) بضم الهمزة. وقرأ طلحة: (فإمُّهُ هاوية) بكسر الهمزة. والكسر لغة على ما قال ابن خالويه وابن دريد، وأما النحويون فإنهم يقولون لا يجوز كسر الهمزة إلا أن يتقدمها كسرة أو ياء[1].

اللغة:

هوى يَهْوي هُوِياً فهو هاوٍ، وهي هاوية سقط من عُلْوٍ إلى سفل وهوى: تردّى وهلك كأنما سقط من عالٍ. والهاوية: الوَهدة الغامضة من الأرض لا يُدرك قعرها. وقوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ أي نار سافلة لا يدرك قعرها[2].

والهاوية دركة من دركات النار، وأمّهُ معناه مأواه كما قيل للأرض أم الناس لأنها تؤويهم. وقال قتادة وأبو صالح وغيرة فأمُّ رأسه هاوية في قعر جهنم لأنه يطرح فيها منكوساً. وقيل هو تفاؤل بشرٍ وإذا دعوا بالهلكة قالوا (هَوَتْ أمه) لأنه إذا هوى أي سقط وهلك فقد هوت أمه ثكلاً وحزناً قال الشاعر:

(1) البحر المحيط 8/ 507.

(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 774 والتي تليها.

هوت أمه ما يبعث الصبح غادياً   وماذا يؤدي الليل حين يؤوبُ(*)

فالهاوية من أسماء النار سميت بها لغاية عمقها وبعد مهواها[1].

التفسير:

لما ذكر تعالى - في الآيات السابقة - نعيم أهل الخير أردفه عقاب أهل الشر فقال:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ..﴾ فأما من رجحت سيئاته على حسناته وكان بذلك خفيف القدر عند الله تعالى فمرجعه الذي يأوي إليه؛ مهواةٌ سحيقة في جهنم يهوي فيها، كما يأوي الولد إلى أمه.

وأي شيء يخبرك بما هي تلك الهاوية وأي شيء تكون؟ هي نار ملتهبة يهوي فيها ليلقى جزاء ما قدم من عمل، وما اجترح من سيئات.

وفي هذا إيماء إلى جميع النيران إذا قيست بها ووزنت حالها بحالها لم تكن حامية، وذلك دليل على قوة حرارتها وشدة استعارها وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «ناركم هذه التي يُوقد ابنُ آدم جزء من سبعين جزءاً من حرّ جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله قال: «فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرّها» اهـ.[2].

ج - وصف جهنم وعذابها:

قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

(*) البيت لكعب بن سعيد الغنوي يرثي أخاه. انظر اللسان (هوا).

(1) البحر المحيط الصفحة السابقة. وانظر الكشاف 4/ 230 والقرطبي 20/ 167.

(2) ابن كثير 7/ 357 مجمع البيان 30/ 219 والمراغي 30/ 227 وما بعدها والقرطبي 20/ 167.

سورة البقرة: 24 وانظر آل عمران: 104، 131 والنساء: 56 والأعراف: 41.38 والتوبة: 35، 81 وإبراهيم: 16، 17 والحجر: 43، 44 والإسراء: 60، 97 والكهف: 29 وطه: 74 والحج: 22.19 والفرقان: 14.11 والسجدة: 20 والصافات: 70.62 وصّ: 64.55 والزمر: 16، 60، 71، 72 وغافر: 49، 50، 76.70 والشورى: 44، 45 والزخرف: 77 ومحمد: 15 وقّ: 30 والطور: 16.11 والواقعة: 56.41 والتحريم: 6، 7 والملك: 7 والحاقة: 37.30 والمعارج: 18.15 والمزمل: 12، 13 والمدثر: 17، 37.25 والإنسان: 4 والمرسلات: 33.29 والنبأ: 30.21 والغاشية: 7.4 والفجر: 23، والليل: 14، 17 والقارعة: 11 والتكاثر: 6، 7 والهمزة: 9.4.

القراءات:

تقدمت في (النار).

اللغـــة:

إن مجموع ما تقدم من الآيات التي أثبتنا أرقامها تقدم وصفاً كلياً لجهنم إلى جانب الكثير من وصف جزئياتها وكيفية العذاب الواقع فيها. والحكمة من ذكر هذه الجزئيات هو التعبير عن أن عذاب جهنم شيء حسي ملموس وليس معنى ووحياً مجرداً، ويقال الشيء ذاته في وصف جزئيات الجنة ونعيمها. فعد إلى اللغة في (وصف الجنة) وجدّد بها عهداً.

التفسير:

تقدم في (النار).

باب الخاء

12 ـ خلود الثواب وأصحابه في الجنة

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

سورة البقرة: 25 وانظر آل عمران: 15، 107، 136، 198 والنساء: 13، 57، 122 والمائدة: 85، 119 والأنعام: 42 والتوبة: 22، 72، 89، 100 ويونس: 26 وهود: 23، 108 وإبراهيم: 23 والكهف: 107و108 وطه: 76 والمؤمنون: 11 والفرقان: 15، 76 والعنكبوت: 58 ولقمان: 9 والزمر: 73 والأحقاف: 14 الفتح: 5 والحديد: 12 والمجادلة: 22 والتغابن: 9 والطلاق: 11 والبينة: 8.

القراءات:

تقدمت في (وصف الجنة).

اللغة والمدلول الخاص للخلود في العالم الآخر:

الخلود: دوام البقاء، والآيات القرآنية التي ذكرنا فيها تقدم أرقامها وكثير من الأحاديث النبوية تؤكد أن نعيم الجنة باقٍ خالد لا نهاية له وعذاب جهنم باقٍ لا نهاية له أيضاً.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف/ 107و108] وقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف/ 75.74].

وروى الشيخان عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يُذبح، ثم يُنادي مُنادٍ: يا أهل الجنة لا موت، يا أهل النار لا موت. فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم».

فالذين يستقرون خالدين في عذاب الله إنما هم الكافرون من مشركين وملاحده وأهل كتاب ممن لم يؤمنوا بنبوة الأنبياء كلهم.

أما العُصاة من المؤمنين بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر فمصيرهم مهما طال عليهم العذاب إلى مغفرة الله وجنته. وإلى هؤلاء جميعاً أشار تعالى في قوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود/ 108.106].

فجميع الأشقياء خالدون في النار إلا من شاء الله منهم أن لا يخلدوا فيها، وهم العُصاة من أهل الإيمان والتوحيد. وجميع أهل السعادة خالدون في الجنة إلا من شاء الله منهم أن يتعذب في النار إلى أمد قبل ذلك، وهم أولئك الذين غُمرت حياتهم بالمعاصي والأوزار من المؤمنين ولم تكتب لهم الشفاعة[1].

(1) انظر كبرى اليقينيات الكونية ص 361 والتي تليها وانظر تفسير آيات سورة هود في القرطبي 9/ 103.98 ومجمع البيان 12/ 221.217. فقد ذكروا أوجهاً عشرة هذا أرجحها وأظهرها. هذا، وقد وُضعت (ما) وهي لغير العاقل بدل (من) وهي للعاقل في الاستثناء لأن المراد من المستثنى منه العدد المجرّد لا لأشخاص بأعيانهم وذلك كقوله تعالى: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء...﴾ فقد عبر عن النساء بما عندما كان الملاحظ فيهن العدد لا الشخص.

التفسير:

تقدم في (وصف الجنة).

13 ـ خلود العذاب

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

سورة البقرة: 39 وانظر البقرة: 81، 162، 217، 257، 275 وآل عمران: 88، 116 والنساء: 14، 93، 169 والمائدة: 80 والأنعام: 128 والأعراف: 36 والتوبة: 17، 63، 68 ويونس: 27، 52 وهود: 107 والرعد: 5 والنحل: 29 وطه: 101 والمؤمنون: 103 والفرقان: 69 والسجدة: 14 والأحزاب: 65 والزمر: 72 وغافر: 76 وفصلت: 28 والزخرف: 74 ومحمد: 15 وقّ: 34 والواقعة: 17 والمجادلة: 17 والحشر: 17 والتغابن: 10 والجن: 23 والإنسان: 19 والبينة: 6.

اللغة والمدلول الخاص للخلود في العالم الآخر:

تقدم في خلود الثواب.

التفسير:

تقدم في (تكذيب آيات الله) في الأخلاق الذميمة.

بابُ الذّال

14 ـ الذَّنبُ

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾.

سورة الأنعام: 6 وانظر البقرة: 81 209، 286 وآل عمران: 11، 16، 31، 135، 137، 193 والنساء: 31 والمائدة: 49 والأنعام: 120 والأعراف: 100 والأنفال: 52، 54 والنحل: 10 والإسراء: 17 والفرقان: 58 والقصص: 78 والأحزاب: 71 والزمر: 53 وغافر: 2، 3، 21، 55 والشورى: 37 والأحقاف: 3.1 والفتح: 2 والنجم: 32 والحديد: 28 والصف: 12 ونوح: 4 والبروج: 10.

اللغة:

الذَّنْبُ: الإثم والمحرَّم من الفعل والجمع ذُنوبٌ[1].

والذنب في الأصل الأخذ بذنب الشيء، يقال ذَنَبْتُهُ أصبت ذنبه. ويستعمل في كل فعل يستوخم عُقباه اعتباراً بذَنَب الشيء ولهذا يسمى الذنب تبعة اعتباراً لما يحصُل من عاقبته[2].

---

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 428.

(2) المفردات 181.

ويعبر بالإثم عن الذنب يقال: أثم بأثم - من باب علم - إثماً وأثماً وأثاماً ومأثماً: فعل ما نهي عنه فهو آثم وأثيم[1].

ويعبر عنه بالخطيئة وهي الذنب المقصود المتعمد[2]. كما يعبر عنه بالوزر وهو الاثم[3]. وبالسيئة وتستعمل بمعنى الذنب الكبير والصغير لقبحها في اعتبار العقل أو الشرع[4].

وأكبر الذنوب الموجبة لسخط الله، وشديد العقاب في نار جهنم، هو الكفر والكبائر وهي كثيرة وأهمها ما ورد في الحديث الصحيح.

«الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

التفسير:

ينكر تعالى على كفار مكة المعاندين تكذيبهم بالحق وإعراضهم عنه، وينبههم إلى سننه في الأرض ليعتبروا بمن تقدم من أمم آتاهم الله من أسباب التمكين في الأرض ما لم يأته لأهل مكة، فأهلكهم بذنوبهم.

ألم يعلم هؤلاء الكفار المكذّبون بالحق أنّا أهلكْنا كثيراً من الأقوام الذين كذبوا الرسل قبلهم بعد أن أعطيناهم من التمكين والاستقلال في الأرض وأسباب التصرّف فيها ما لم نعطهم مثله، ثم لم تكن تلك النعمة بمانعةٍ لهم من عذابنا لما استحقوه بذنوبهم وعتّوهم واستكبارهم.

وسخّرنا لهم الأمطار الغزيرة وفجرنا عيون المياه مِن تحتهم

(1) (2) (3) (4) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 148 و341، و2/ 807، و1/ 607.

بينابيعها حتى جرت منها الأنهار، فغمطُوا نعمة ربّهم، وَعَصَوْا رسول خالقهم، فاجترحُوا السيئات، فأهلكناهم بسبب ما اكتسبت أيديهم، وأحدثْنا بعد إهلاكهم أمماً آخرين، جعلناهم خلفاً لهم يعمُرون البلاد ويكونون أجدر بشكران النعمة.

فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم فالذنوب سبب الانتقام وزوال النعم[1].

15 ـ سجّين

قال الله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾.

سورة المطففين: 7ـ9.

اللغة والدلالة الخاصة:

سِجّين: فِعّيل، من السِّجْنِ وهو الضيق[2]، لأن سبب الحبس والتضييق في جهنم أو لأنه مطروح كما روي تحت الأرض السابعة في مكان وحش مظلم استهانة به وإذلاله وليشهده الشياطين المدحورون في ذلك المكان، كما يشهد ديوان الخير الملائكة المقربون[3] في عليين قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المطففين/ 18ـ21].

فالمخلوقات كل ما تسافل منها ضاق وكل ما تعالى منها اتسع، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل سافلين كما قال تعالى:

---

(1) ابن كثير 3/ 7 وما بعدها وم. الطبري 1/ 222 والمراغي 7/ 75 وما بعدها والقرطبي 6/ 392 والتي تليها.

(2) لسان العرب (سجن) وانظر الكشاف 4/ 195 وابن كثير 7/ 239.

(3) الكشاف، الصفحة السابقة.

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ ﴾ فهو يجمع الضيق والسّفول. كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ فسجّين ديوان الشر الجامع دوّن الله فيه أعمال الكفرة والفسقة من الجن والإنس وموضعه تحت الأرض السابعة استهانة به وإذلالاً وتحقيراً لذويه أما (كتاب مرقوم) فمعناه بيِّنَ الكتابة له علامة يعلم من رآه أنه لا خير فيه، وما كُتب فيه من أعمال الفجار مفروع منه، لا يزيد ولا ينقص؛ مثبت في ذلك الديوان[1].

وسجين اسم علم منقول من وصف كخاتم وهو منصرف لأنه ليس فيه إلا سبب واحد وهو التعريف[2].

التفسير:

ازدجروا أيها المطففون عما أنتم عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب، فإن الفجار الذين من جملتهم المطففون سيبعثهم الله يوم القيامة ويحاسبهم على أعمالهم، وقد أعد الله لهم كتاباً جامعاً هو ديوان الشر، دون فيه أعمال الكفرة والفسقة من الإنس والجن، أحصى فيه أعمال كل منهم، يسمى (سجيناً) أو سجين مأخوذ من السجن، وهو الحبس والتضييق، لأن ما دون فيه من أعمال الكفرة والفسقةُ سبب الحبس والتضييق في جهنم، أو لأنه مطروح في أسفل سافلين إذلالاً لأصحابه وتحقيراً لهم.

---

(1) انظر فتح القدير 5/ 399 والكشاف 4/ 195.
وقال ابن كثير والواحدي: إن قوله تعالى ﴿كتاب مرقوم﴾ ليس تفسيراً لقوله ﴿وما أدراك ما سجين﴾ وإنما هو بيان لكتاب المذكور في قوله: ﴿إن كتاب الفجار﴾ على تقدير هو كتاب. اهـ. أقول: يصحّ هذا إذا عددنا سجيناً مكاناً ضيقاً في أسفل سافلين والمعنى إن كتاب الفجار في مكان ضيق في أسفل سافلين. وهو كتاب مرقوم... وإذا عددناه كتاباً جامعاً لجمع أعمال الشر فما ذكرناه أولى.

(2) الكشاف 4/ 195.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨﴾ أي ليس ذلك مما تعلمه أنت ولا قومك، فهو بحيث لا تبلغه دراية أحد.

هو كتاب قد جعلت له علامة بها يعرف من رآه أنه لا خير فيه، فما كُتِب من أعمال الفجار مثبت فيه[1].

(1) فتح القدير 5/ 399 والكشاف 4/ 195 والمراغي 30/ 75.

باب الطاء

16 ـ طوبى

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ۝٢٩﴾.

سورة الرعد 29.

القراءات:

انظر أسماء الجنة ـ 19 ـ.

اللغـــة:

تقدمت في أسماء الجنة ـ 19 ـ وكنا قد ذكرنا أن طوبى اسم علم للجنة وأوردنا الأدلة على ذلك. وقد رجح القرطبي أنها اسم شجرة في الجنة لما روي في الصحيحين أنها كذلك. وذكرت طوبى هنا في هذا الموضع على أن شجرة في الجنة. فعد إلى ما أوردناه في أسماء الجنة ـ 19 ـ وجدد به عهداً.

التفسير:

تقدم في أسماء الجنة ـ 19 ـ.

باب العين

17 ـ عالم الذر

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

سورة الأعراف: 172ـ174.

القراءات:

1 ـ قرأ الجمهور (واذْكُروا) وقرأ الأعمش واذكروا بمعنى وتذكّروا[1].

2 ـ وقرأ الجمهور (ذريتهم). وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر والحسن (ذريّاتِهم). والذرية تقع للواحد كما في قوله تعالى: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ لأنه سأل هبة ولد فبشّر بيحيى. وتقع أيضاً للجمع كما في قوله: ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ وقراءة الجمع لتخلص الكلمة إلى معناها المقصود إليه لا يشركها فيه

(1) انظر الكشاف 2/ 103 ومعجم القراءات القرآنية 2/ 422.

شيء وهو الجمع لأن ظهور بني آدم استخرج منها ذريّات كثيرة متناسبة أعقاب بعد أعقاب لا يعلم عددهم إلا الله، فالجمع لهذا المعنى[1].

3 ـ قرأ أبو عمرو وعاصم الجحدري وابن محيصن واليزيدي وسعيد بن حبير وعيسى بن عمر وعبد الله بن عباس (يقولوا)، (أو يقولوا) بالياء فيهما، لأن الذي تقدم من الكلام على الغيبة، وقرأ الباقون (تقولوا)، أو (تقولوا) بالتاء فيهما، لأنه جرى في الكلام خطاب أيضاً فقال: «ألست بربكم»[2].

وقراءة التاء أولى لصحة المعنى وذلك لما رُوي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم: ألست بربكم قالوا بلى، قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا، أي شهدنا عليكم بالإقرار بالربوبية لئلا تقولوا»[3].

اللغـة:

ذَرَّ الله الخلق في الأرض: نشرهم. والذُّرِّيَّة فُعْلِيَّة منه، وهي منسوبة إلى الذر الذي هو النحل الصغار[4].

ـ تكون الذرية واحداً كما في قوله تعالى: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران/ 38]. وتكون جمعاً ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف/ 173] وفيها ثلاث لغات أفصحها ضم الذال وبها قرأ السبعة والثانية كسرها، ويروي عن زيد بن ثابت. والثالثة فتح الذال مع

(1) القرطبي 7/ 318 وانظر مجمع البيان 9/ 59 والكشف عن وجوه القراءات 1/ 483.
(2) مجمع البيان، الصفحة السابقة وانظر الكشف والقرطبي ومعجم القراءات الصفحة السابقة أيضاً.
(3) الكشف 1/ 484.
(4) لسان العرب انظر المصباح المنير (ذرر) وقال في اللسان أيضاً: وكان قياسة ذَرِّيّه، بفتح الذال، لكنه نسب شاذ لم يجيء إلا مضموم الأول.

تخفيف الراء نحو كريمة، وبها قرأ أبان بن عثمان[1].

وذريّة الرجل ولده من ذكر وأنثى والجمع الذراي والذريّات[2].

ولم يرد في القرآن إلا الثاني منهما.

وقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝٤١﴾ [يسٓ/ 41] أراد آباءهم الذي حُمِلوا مع نوح في السفينة. وقوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران/ 33و34]. دخل فيها الآباء والأبناء[3].

وبعضهم يجعل الذرية من ذرأ الله تعالى الخلق أي خلقهم وترك هزها للتخفيف[4].

التفسير:

بعد أن ذكر سبحانه هدايته للبشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب في قصة بني إسرائيل ـ أعقب ذلك بذكر هدايته لهم بما أودع في فطرتهم وركّب في عقولهم من الاستعداد للإيمان به وتوحيده وشكره منذ النشأة الأولى فقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾ أي واذكر يا محمد للناس كافة ما أخذه الله من ميثاق الفطرة على البشر عامة إذ استخرج من بني آدم ذريتهم بطناً إثر بطن، وخلقهم على فطرة الإسلام، بما أودع في قلوبهم من غريزة الإيمان اليقيني بأن كل فعل لا بد له من فاعل، وأن فوق كل العوالم القائمة على سنة الأسباب والمسببات سلطاناً أعلى، على جميع الكائنات وهو المستحق وحده للعبادة، وأشهد كل واحد من هؤلاء

(1) المصباح المنير (ذرر).
(2) لسان العرب (ذرر).
(3) المرجع السابق (ذرا).
(4) انظر المرجع السابق (ذرأ وذرر) والصحاح (ذرأ) والمصابح (ذرر).

الذرية الحادثة جيلاً بعد جيل على نفسه بما أودعه في غريزته واستعداده قائلاً لهم قول إرادة وتكوين لا قول وحي وتبليغ: ألست بربكم؟ فقالوا ـ بلسان الحال لا بلسان المقال ـ بلى أنت ربنا المستحق وحدك للعبادة.

ودليل فطرة الناس على الإيمان قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ وجاء في الصحيحين: «كل مولود يولد على الفطر» وفي رواية: «على هذه الملة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجّسانه...» وفي صحيح مسلم: «قال رسول الله ﷺ: يقول الله إني: خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرّمت عليهم ما أحللتُ لهم».

وإنما أشهدهم تعالى على أنفسهم لما جعل في عقولهم من الأدلة الدالة على وحدانيته، وركّب فيهم من عجائب خلقه وغرائب صنعته، وفي غيرهم، فكأنه سبحانه بمنزلة المشهد لهم على أنفسهم فكانوا في مشاهدة ذلك وظهروه على الوجه الذي أراده الله، وتعذر امتناعهم منه بمنزلة المعترف المقرّ.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ أي إنا فعلنا هذا لئلا تقولوا أيها الكفرة يوم القيامة عند ظهور الأمر إنّا كنّا عن هذا التوحيد غافلين، إذ لم ينبهنا إليه مُنَبِّهٌ. ومآل هذا إنه لا يقبل منهم الاعتذار بالجهل لأنهم نبِّهُوا بنصب الأدلة وجُعُلوا مستعدين لتحقيق الحق وإبعاد الشرك عن قلوبهم.

أو تقولوا في ذلك اليوم إن آباءنا اخترعوا الإشراك وسنُّوه من قبل زماننا وكنا جاهلين ببطلان شركهم، فلم يسعنا الاقتداء بهم ولم نهتد إلى التوحيد، أفتؤاخذنا فتهلكنا اليوم بالعذاب بما فعله المبطلون من آبائنا المضلين فتجعل عذابنا كعذابهم، مع عذرنا بتحسين الظن

بهم؟ إلا أن ما ذكر من استعدادهم الكامل يسد عليهم باب الاعتذار بهذا أيضاً فإن التقليد عند قيام الدلائل والقدرة على الاستدلال بها مما لا مساغ له أصلا، فلا عذر لهم ولا لآبائهم وأدلة التوحيد منصوبة.

ومثل ذلك التفصيل البليغ المستتبع للمنافع الجليلة. نُفصِّل لبني آدم الآيات والدلائل ليستعملوا عقولهم في التبصر فيها والتدبُّر في أمرها، لعلهم يرجعون بها عن جهلهم وتقليد آبائهم وأجدادهم في شركهم وضلالهم[1].

18 ـ عذاب الدنيا

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

سورة الأنعام 65. وانظر البقرة: 59 والمائدة: 106 والأنعام: 6 والأعراف: 130، 133 والنحل: 112 والكهف: 42 والعنكبوت: 31، 34، 37 و38، 40 والروم: 41 والقارعة: 5، 10 والفيل: 2، 5.

القراءات:

قرأ الجمهور (يَلبِسَكم) بفتح الياء، أي يلبس عليكم أموركم فحذف حرف الجر والمفعول. والأولى أن يكون التقدير يلبس أموركم فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

---

(1) انظر الكشاف 2/ 103 وت. أبي السعود 3/ 289 ـ 291 وابن كثير 3/ 245 والمراغي 9/ 103 ومجمع البيان 9/ 61.

وقد ذهبنا في التفسير مذهب من قال إن قول الله تعالى في هذه الآية من باب التمثيل وله نظائر في القرآن الكريم وأساليب العرب. وفي مقدمتهم ابن كثير والزمخشري. وذهب بعض المفسرين وفي مقدمتهم الطبري إلى أن الله تعالى لما خلق آدم أخرج ذريته من صلبه وهم مثل الذر وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم فأقروا بذلك والتزموه، ويقوّيه ورود أحاديث في معناه، إلا إن ألفاظ الآية لا تطابقه بظاهرها وتحتاج إلى تأويل كما قال ابن جزيّ. انظر التسهيل 2/ 53 وفتح القدير 2/ 263 وما بعدها.

وقرأ أبو عبد الله المدني (يُلبسكم) بضم الياء، أي يعمكم بالاختلاف[1].

اللغة والمدلول الخاص:

العذاب هو الإيجاع الشديد، وقد عذّبه تعذيباً أكثر حبسه في العذاب واختلف في أصله؛ فعال بعضهم: هو من قولهم عَذَبَ الرجلُ إذا ترك المأكل والنوم فهو عاذب وعذوب، فالتعذيب في الأصل هو حمل الإنسان أن يَعْذِبَ أي يجوع ويسهر. وقيل أصله من العَذْبِ، فعذّبته أي أزلت عذْبَ حياته على بناء مرضته وقذّيته ـ أي أزلت مزضه وما به من قذى ـ وقيل أصل التعذيب إكثار الضرب بعذبة السوط أي طرفها، وقد قال بعض أهل اللغة: التعذيب هو الضرب، وقيل هو من قولهم ماءٌ عَذَب إذ كان فيه قذى وكَدَر، فيكون عذّبته كقولك كدّرت عيشه[2].

والجزاء بحسب سنن الله تعالى أثر طبيعي للعمل فمن يعمل سوءاً يلق جزاءه.

والعذاب في الدنيا على أنواع، فمنه ما هو عذاب استئصال، كالرجم من السماء والطوفان والصيحة والريح، كما فعل بعاد وثمود وقوم شعيب وقوم لوط وقوم نوح، وكالخسف والزلازل كما فعل بقارون وأصحاب مدين. وسببه الإصرار على الكفر والطغيان وما إليهما من المعاصي. وفي ذلك عبرة دائمة للناس، ومنه ما يجعل الحياة مكدرّة لا تكاد تخلص من مصيبة إلا لتقع في أخرى تصيب الطالح، والصالح أيضاً لغلبة الفساد(*)، ومن ذلك انقسام المجتمع

---

(1) انظر إملاء ما منَّ به الرحمن 1/ 246 والبحر المحيط 4/ 151.

(2) المفردات 327 وانظر معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 182 وما بعدها.

(*) قال تعالى ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ [الأنفال/ 25].

والأمة إلى فرق وأحزاب على أهواء شتّى، وتسلط بعضهم على بعض بالقتل والعذاب واجتياح الأوبئة والأمراض لبعض الشعوب. وقد روى الديلمي عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «المرض سوط يؤدب الله به عباده». أو تلوث البيئة، وسبب هذا النوع من العذاب في الدنيا بمختلف أشكاله وصوره هو الانحراف عما أمر به الله تعالى عباده والتهاون في ارتكاب المعاصي، وانشغال النفوس بأهوائها وحظوظها.

وفي ذلك تنبيه للشعوب لتصحّح مسار انحرافها وإلا توالت عليها أنواع شتى من العذاب.

أما ما يصيب المسلم على الصعيد الفردي فهو كفارة له. قال عليه الصلاة والسلام «سدِّدُوا وقاربوا، فإن في كل ما أصاب المسلم كفّارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة يُنْكَبُها» رواه مسلم وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى/30].

التفسير:

قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله هو القادر على أن يرسل عليكم عذاباً تجهلون حقيقته ـ بسبب شرككم وكفرانكم نِعَمَهُ ـ فيُصبُّ عليكم من فوقكم كالرجم بالحجارة والطوفان والصيحة والريح وقد فعل تعالى ذلك بعاد وثمود وقوم شعيب وقوم لوط ونوح. أو يثيره من تحت أرجلكم كالخسف والزلازل مثل ما فعل بقارون وأصحاب مدين. وروي عن ابن عباس ومجاهد أن المراد بمن فوقكم أي من الأمراء الظلمة ومن تحت أرجلكم أي السَّفلَة وعبيد السوء. ولا شك أن لفظ (عذاباً) في الآية نكرة تفيد الشمول لكل ما يدل عليه اللفظ مما حدث وسيحدث.

أو يخلطكم فيجعلكم فرقاً وأحزاباً على أهواء شتّى، أو يسلط بعضكم على بعض بالقتل والعذاب(*).

انظر يا محمد كيف نبيّن لهم الجمع والدلالات ونوضحها مرة بعد أخرى على أنحاء شتى: فمنها ما طريقه الحسي ومنها ما طريقه العقل ومنها ما سبيله علم الغيب، وكلها مقترنة بوجوه أدلتها، لعلهم يفقهون الحق ويدركون الحقائق بأسبابها وعللها التي تقضي إلى الاعتبار والعمل بها وبهذا يعلمون بطلان ما هم عليه من الشرك والمعاصي فيزدجرون[1].

19 ـ العقائد السخيفة

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

سورة البقرة: 177 وانظر البقرة: 189 والمائدة: 103 و123.

اللغة والمدلول الخاص:

اعتقدْتُ كذا عَقَدْتُ عليه القلبَ والضميرَ، فالعقيدة ما يدين

(*) روى البخاري أنه لما نزلت ﴿هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال رسول الله ﷺ: أعوذ بوجهك «أو من تحت أرجلكم» قال: أعوذ بوجهك «أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض» قال رسول الله ﷺ: هاتان أهون أو أيسر. وإنما كانت هاتان أهون وأيسر لأن المستعاذ منه قبلهما هو عذاب الاستئصال بإحدى الخصلتين الأوليين حتى لا يبقى من الأمة أحد.

(1) القرطبي 7/ 9 و11 ومجمع البيان 7/ 91 والتي تليها، وم. الطبري 1/ 233 والمراغي 7/ 153 و156.155.

الإنسان به، وتوصف العقيدة بأنها حسنة عندما تكون خالية من الشك[1].

وأصل السُّخْف الرقة في الثوب لقلة غزله يقال سَخُفَ الثوب سُخْفاً وسَخافة فهو سخيف. ومنه قيل رجل سخيف، في عقله سُخفٌ أي نقص وعن الخليل السخف في العقل خاصة والسخافة عامة في كل شيء[2].

فالعقائد السخيفة التي أشار إليها القرآن وفنّدها تدل على نقص في عقول أصحابها وهوى يتبعونه في نفوسهم ففي الآية 177 من سورة البقرة ينبه تعالى إلى أن ما يتمسّك به اليهود والنصارى من توجيه الوجه إلى المشرق والمغرب ليس لذاته نوعاً من أنواع البر، فهو في نفسه ليس عملاً صالحاً ولكن البر يتجلى بخصال الإيمان التي بينها الله تعالى من الإيمان بالله وملائكته وبكتبه ورسله والإنفاق في سبيل الله والجهاد في سبيله وغير ذلك مما أرشد إليه سبحانه عبادَهُ.

وفي الآية 189 من السورة نفسها يبيّن تعالى بطلان ما كانوا يفعلونه في الجاهلية على أنه من أعمال البر، وهو ليس من البر في شيء، فقد كانوا إذا أحْرَمُوا لا يدخلون بيوتهم من أبوابها ولكنْ يدخلون من الكُوَّة ويتسوَّرون الجدران. فبيَّن لهم أن البر الحقيقي تقوى الله بالتخلي عن المعاصي والرذائل والتحلي بالفضائل واتباع الحق وعمل الخير فليقلعوا عما ألفوه وليدخلوا البيوت من أبوابها.

أما في الآية (102) من سورة المائدة فقد أبطل تعالى ما كان يعتقده أهل الجاهلية من تحريم ما لم يحرمه الله من الأنعام اتباعاً لخطوات الشيطان. فقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

(1) و(2) المصباح المنير (عقد وسخف).

فالبحيرة: الناقة يُمنَح درّها للطواغيت فلا يحلبها أحدٌ من الناس.

والسائبة من الإبل ما كانوا يتركونها لآلهتهم فلا يُحمل عليها شيء.

والوصيلة وهي الأنثى إذا جاءت بتوأم «ذكر أو أنثى» قالوا وصلت أخاها فدفعت عنه الذبح.

والحام: هو الفحل يُحمى ظهرُه من الركوب والانتفاع بسبب تتابع أولاده من إتيانه الإناث.

ومن العقائد السخيفة ما كان يمنّيه أهل الكتاب من الغرور بدينهم إذا كانوا يرون أنهم شعب الله الخاص ويقولون إنهم أبناء الله وأحباؤه وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات وقد سرى لهم هذا الغرور من زعمهم أن فضلهم على غيرهم من البشر بمن بعث فيهم من الأنبياء فهم يدخلون الجنة بكرامتهم لا بأعمالهم وهذه سخافة اعتقدوها فـ «ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل». وكفى بهذا بياناً.

التفسير:

تقدم في (إنفاق المال) من الاجتماعيات.

20 ـ علّيين

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

سورة المطففين 18ـ21.

اللغة والدلالة الخاصة:

تقدّم القول أن (عليين) مكان مشرّف في أعالي الجنة وقدمنا

الأدلة على ذلك.

وثمة من قال إن (عليين) ديوان الخير الذي دون فيه كل ما أعلمته الملائكة وصلحاء الثقلين وبذلك يكون قوله تعالى ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ﴾ تفسير لقوله «وما أدراك ما عليون» فكتاب الأبرار في هذا السجل الكبير ديوان الخير الموجود في أعلى الأمكنة من الجنة نقله إليه الملائكة الذين وكلوا بحفظه ويصير علمهم شهادة لهؤلاء الأبرار أو لعل المراد من قوله تعالى: ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾ أي إن كتابهم في هذا السجل الكبير الذي يشهده الملائكة المقربون، فكما وكل سبحانه أمر اللوح المحفوظ إليهم وكل حفظ كتاب الأبرار فيه[1].

التفسير:

تقدم في (عليين) من أسماء الجنة.

(1) انظر الكشاف 4/196 وت. أبي السعود 9/127 والمراغي 30/81.

باب القاف

21 ـ القضاء والقدر

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

سورة التوبة: 51 وانظر البقرة: 145، 154 والأنعام: 2، 35، 57، 96 والأعراف: 34 ويونس: 3، 49، 99، 100 وهود: 6 والرعد: 39 والحجر: 4، 5، 21 والإسراء: 58 والمؤمنون: 43 والفرقان: 2 والنمل: 74، 75 والأحزاب: 38 وسبأ: 3 وفاطر: 11 والدخان: 4 والقمر: 51-53 والحديد: 22 والحشر: 3 والتغابن: 11 والطلاق: 3، 12 ونوح: 4 والجن: 25-28.

القراءات:

قرأ عامة القراء (لن يصيبنا) وقرأ ابن مسعود وطلحة بن مُصَرّف (هل يصيبنا). وقرأ أعين قاضي الري يقول: (قل لن يصيبنّا) بتشديد النون. ولا يجوز ذلك لأن النون لا تدخل مع لن، ولو كانت في قراءة طلحة بن مصرف لجازت لأنها مع هل، قال تعالى: ﴿هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾(*).

ووجه هذه القراءة تشبيه لن بلا ولم وقد سمع لحاق هذه النون

(*) سورة الحج/ 15.

بلا وبلم فلما شاركتهما لن في النفي لحقت معها نون التوكيد. وهذا توجيه شذوذ[1].

وقرأ طلحة بن مصرّف وأعين قاضي الري «هل يُصَيِّبُنا» بتشديد الياء. قال الزمخشري: «ووجهه أن يكون يُفَيْعِلُ لا يُفَعِّلُ لأنه من بنات الواو لقولهم: الصواب، وصاب يصوب، ومصاوب في جمع مصيبة فحقُّ يُفعِّلُ منه يُصَوِّبُ، ألا ترى إلى قولهم: صوّب رأيه إلا أن يكون من لغة من يقول: صاب السهم يَصِيب[2].

اللغة والمدلول الخاص:

القضاء: أشهر معاني القضاء لغة الحُكْم. وفي اصطلاح علم التوحيد: علم الله عز وجل في الأزل بالأشياء كلها على ما ستكون عليه في المستقبل[3].

وللقدر معان في اللغة منها المقدار الكمية قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر/ 21] وزمان الشيء أو مكانه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه/ 40]. أي في وقت حُدّد لك. والطاقة، قال تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد/ 17]. أي بحسب طاقتها وسِعَتها[4]. وفي اصطلاح علم التوحيد: إيجاد تلك الأشياء ـ التي هي في علم الله عز وجل في الأزل ـ بالفعل طبقاً لعلمه الأزلي المتعلق بها[5].

---

(1) انظر البحر المحيط 5/ 51 والقرطبي 8/ 160 ومجمع البيان 10/ 73.

(2) الكشاف 2/ 156 وانظر البحر المحيط، الصفحة السابقة.

(3) انظر كبرى اليقينيات الكونية ص 160 وشرح جوهرة التوحيد ص 240.

(4) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 351.

(5) كبرى اليقينيات الكونية الصفحة السابقة. وانظر شرح جوهرة التوحيد ص 239. وما ذكرناه من تعريف القضاء والقدر قال به الأشاعرة أما الماتريدية فقد جعلوا تعريفها القضاء للقدر وتعريف القدر للقضاء. انظر شرح جوهرة التوحيد 239 والتي تليها.

وتتفرع ضرورة الإيمان بالقضاء والقدر من دليلين اثنين: أولهما ما رواه مسلم في صحيحه «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره».

والثاني اتّصاف الله تعالى بالعلم والقدرة، فالقضاء فرع عن ثبوت صفة العلم والإرادة لله عز وجل، والقدر فرع عن ثبوت صفة القُدْرة له[1].

وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء القدر إجبار الله سبحانه وتعالى العبد وقهره على ما قدّر وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمونه، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه وتعالى بما يكون من إكساب العبد وصدورها عن تقدير منه[2].

فالقضاء علم الله أولاً بالأشياء على ما هي عليه والقدر إيجاده إياها على ما يطابق العلم[3].

ولا يجوز الاحتجاج بالقضاء والقدر قبل الوقوع توصلاً إليه أو بعد الوقوع تخلصاً من الحد أو نحوه، بأن يقول قدّر الله عليَّ الزنا، وغرضه التوصل إلى الوقوع فيه، أو قال بعد وقوعه في الزنا: قدر الله على ذلك. فأما الاحتجاج به بعد الوقوع لدفع اللوم فقط فلا بأس به[4].

هذا، وقد وضح لنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ المنهج الكامل الناظم لحياتنا كلها محزوفا من كل ما يؤدي إلى الجحيم، وحثنا على كل ما يدخل النعيم، وما علينا إلا أن نأخذ بالأسباب المشروعة.

(1) كبرى اليقينيات الكونية، الصفحة السابقة وانظر شرح جوهرة التوحيد ص 241.
(2) انظر كبرى اليقينيات الكونية ص 161. وما تقدم من قول للخطابي ذكره النووي في شرحه على صحيح مسلم.
(3) انظر المرجع السابق، الصفحة السابقة.
(4) شرح جوهرة التوحيد ص 238.

وهذا محله الجوارح - ونفوّض النتائج لله تعالى - وهذا محله القلب - وفي العكس انتكاس وتردٍ في بؤرة التداخل المذموم[1]. وكفى بهذا بياناً.

التفسير:

قل يا محمد لهؤلاء المنافقين: نحن تحت مشيئة الله وقدره ولن يصيبنا إلا ما كتبه الله وقضاه علينا في اللوح المحفوظ حسب علمه الشامل في الأزل، لمصلحتنا الدنيوية أو الأخروية من النصرة عليكم أو الشهادة المؤدّية إلى النعيم الدائم، فهو تعالى ناصرنا ومتولي أمورنا، وعلى الله وحده فليعتمد المؤمنون، بتفويض الأمر إليه والرضا بتدبيره وتقديره، حتى يكفيهم أمورهم وينصرهم على من بغىٰ عليهم فهو حسبهم ونعم الوكيل[2].

(1) المرجع السابق، ص 245.

(2) ابن كثير 3/ 408 وم. الطبري 1/ 327 وت. أبي السعود 4/ 73 ومجمع البيان 10/ 75.

بابُ الكاف

22 ـ كل نفس بما كسبت رهينة

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾.

سورة المدثر: 38 و39. وانظر: البقرة: 90، 134، 139، 141، 281، 286 وآل عمران: 25، 30، 115، 195 والنساء: 85، 111، 123 والمائدة: 105 والأنعام: 70، 132، 164، والأعراف: 147، 180 والتوبة: 82، 95، 105 ويونس: 30، 41، 52، 108 وهود: 111 والنحل: 111 والإسراء: 13، 17.15، 84 والروم: 94 والنور: 54 والنمل: 90 والقصص: 84 والروم: 44 ولقمان: 33 والسجدة: 17 وسبأ: 25، 33 وفاطر: 18 ويس: 54 والصافات: 39 والزمر: 70 وغافر: 17، 40 وفصلت: 46 والشورى: 15 والجاثية: 14، 15، 22، 28 والأحقاف: 19 والطور: 16، 21 والنجم: 31، 41.39 والواقعة: 24 والطلاق: 7 والتحريم: 7 والمزمل: 20 والزلزلة: 7، 8 والقارعة: 9.6.

أسباب النزول:

تقدمت في (اليمين).

اللغة والدلالة الخاصة:

رَهَنْتُه المتاعَ بالدين أرْهَنُه رَهْناً: حبسته عنده لينوب مناب الدين، وكذلك رهنت الشيء عنده فهو مرهون ورهين. والرَّهينة: ما يُرْهَنْ، وهو في الأصل وصف غلبت عليه الاسمية كالنَّطيحة

والذّبيحة. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾﴾ [الطور/ 21] أي كل إنسان مرهون عند الله بكسبه، كأن الكسب بمنزلة الدَّين، ونفس العبد بمنزلة الرهن، ولا ينفك الرهن ما لم يؤد الدين بالعمل الصالح[1].

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ قيل: فعيل بمعنى فاعل أي ثابتة مقيمة، وقيل بمعنى مفعول أي كل نفس مقامة في جزاء ما قدَّم من عمله[2].

التفسير:

تقدم في (يمين) من أسماء الجنة.

23 ـ الكوثر

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴿٣﴾﴾.

سورة الكوثر: 1.3.

أسباب النزول:

تقدمت في (النحر) من موضوع العبادة.

القراءات:

قرأ العامة: (أعطيناك الكوثر) وقرأ الحسن وظلمة وابن محيصن والزعفران وأم سلمة: (أنطيناك الكوثر) بالنون بدل العين في أعطيناك. وروت هذه القراءة أم سلمة عن النبي ﷺ وهي لغة في العطاء: أنطيته: أعطيته[3].

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم 1/ 502 والتي تليها.
(2) المفردات ص 204.
(3) القرطبي 20/ 216 والبحر المحيط 8/ 519.

قال ابن الألوسي: وهي على ما قال التبريزي لغة العرب العرباء من أولي قريش، وذكر غيره أنها لغة بني تميم وأهل اليمن، وليست من الإبدال الصناعي في شيء. ومن كلامه ﷺ: اليد المنطية واليد السفلى المنطاة وكتب عليه الصلاة والسلام لوائل «انطوا الثبجة» أي الوسط في الصدقة[1].

اللغة والمدلول الخاص:

الكَوْثر: الكثير من كل شيء، وزنه فَوْعَل من الكثرة مثل النوفل من النفل والجوهر من الجهر. والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد والقدر والخطر كوثراً. وقيل لعجوز رجع ابنها من السفر: بم آب ابنُك: قالت بكوثر؛ أي بمال كثير. والكوثر من الرجال: السيد الكثير الخير. وتكوثر الغبار إذا كثر. والكثير والكوثر واحد[2].

واختلف أهل التأويل في الكوثر الذي أعطيه النبي ﷺ على ستة عشر قولاً إلا أن أصحها ما ثبت عن النبي ﷺ.

فالكوثر نهر في الجنة قال البخاري: حدثنا خالد بن يزيد الكاهلي حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عائشة رضي الله تعالى عنها قال: سألتها عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ قالت: نهر أعطيه نبيكم ﷺ شاطئاه عليه در مجوّف، آنيته كعدد النجوم[3].

وروي الترمذي عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدرر والياقوت تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج.

---

(1) روح المعاني 30/ 244 وانظر البحر، الصفحة السابقة ومعجم القراءات القرآنية 8/ 253.

(2) انظر ما تقدم في اللسان والصحاح (كثر) والقرطبي 20/ 216 والمفردات ص 246.

(3) ابن كثير 7/ 386.

والكوثر: كما ثبت في الصحيح أيضاً أنه حوض النبي ﷺ في الموقف، جاء في صحيح مسلم عن أنس قال بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذْ أغفى إغفاءه ثم رفع رأسه مبتسماً فقلنا ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: نزلت عليَّ آنفاً سورة فقرأ. .. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ..﴾ إلى آخرها. ثم قال أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم قال فإنه نهر وعدتيه ربّي عز وجل عليه خير كثير هو حوض تردُ عِليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم. . . .(1)

التفسير:

تقدم في (النهر) من موضوع العبادة.

(1) القرطبي 20/ 217 وانظر ابن كثير، 7/ 388،483 فقد جمع كثيراً من الأحاديث الصحيحة عن الكوثر. وكون الكوثر نهراً أو حوضاً علها ورد في الأحاديث فيه من التقارب ما لا يخفى.

باب الميم

24 ـ المعجزات(*)

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

سورة يوسف: 105 وانظر البقرة: 1، 23، 24، 243 وآل عمران: 13 والأنعام: 32 ـ 37 109، 111، 124 والأعراف: 133 ويونس: 20 والرعد: 7، 27، 31 38 والإسراء: 1، 59، 60 وطه: 133 والأنبياء: 16، 17 والعنكبوت: 5 ـ 25 والسجدة: 15 والأحزاب: 9 وغافر 35 والشورى: 35 والدخان: 39.

القراءات:

قرأ الجمهور (في السموات والأرض) بجر الأرض عطفاً على السموات والضمير في (عليها وعنها) يعود على (آية).

وقرأ عكرمة وعمر بن فائد «والأرضُ» بالرفع على الابتداء وخبره جملة (يمرون).

(*) المراد من ذكر قضية المعجزات في العقائد الإشارة إلى المعجزة الكبرى في حياة الرسول ﷺ وحياة العرب، وحياة البشرية جمعاء منذ نزوله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ثم ذكرنا أرقام الآيات التي تشير إلى أن المعجزات وهي الآيات الباهرة من الله تعالى العلي القدير يرسلها للناس حسب مشيئته ومقتضى حكمته لا حسب أهوائهم، وكيف يلح المشركون في طلبها وكثير منها في أنفسهم وما يحيط بهم من السنن الكونية في السموات والأرض وهي أعظم مما يطلبون فضلاً عن أن بعض ما يطلبنه مهلك يدل على جهلهم وكفرهم.

وقرأ السدي (والأرضَ) بالنصب وهو من باب الاشتغال أي ويطؤون الأرض يمرون عليها على آياتها وما أروع فيها من الدلالات. والضمير في (عليها وعنها) في هاتين القراءتين يعود على الأرض وقرأ عبد الله بن مسعود «والأرضُ» برفع الضاد مكان يمرون يمشون أي «والأرضُ يمشون عليها»[1].

اللغة والدلالة:

من الحسي، العجزُ: مؤخّر كل شيء كعجز الإنسان وأعجاز النخل... والجمع أعجاز. والعجوز: ما تأخر وأتت الأزمان عليه، والعجوز للذكر والأنثى وهو مأخوذ من العجز في كثير من الأمور[2].

ومن التأخر المعنوي قيل: العَجْز: ضد القدرة عجز ـ كضرب وسمع ـ وأعجزته وعجّزته وعاجزته: جعلته عاجزاً، والإعجاز الفوز والسبق[3].

فالمعجزات هي كل أمر خارق للعادة يظهر على يد مدعي النبوة عند تحدي المنكرين له، على وجه يبيّن صدق دعواه[4].

وعلى المسلم أن يعتقد بأن الله عز وجل قد جهّز أنبياءه ورسله الذين أرسلهم إلى الناس بمعجزات تبيّن صدقَ دعوتهم وتوضح للناس ارتباطهم بالله تعالى وأنهم مؤيدون به وما من نبي إلا وقد أكرمه الله عز وجل بمعجزة نبهت انناس إلى ضرورة الإيمان به والتمسك بهديه وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «ما من نبيٍّ إلا وأوتي من

(1) انظر ما تقدم في البحر المحيط 5/ 351. وانظر القرطبي 9/ 272 والكشاف 2/ 277 ومجمع البيان 13/ 124 وت. أبي السعود 4/ 309.
(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 172 والمفردات 322 والتي تليها.
(3) معجم ألفاظ القرآن الكريم، الصفحة السابقة.
(4) كبرى اليقينيات الكونية ص 214 وانظر التعريفات للجرجاني ص 282.

الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحي إلي، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[1].

هذا، وفي المعجزات دلالة كبرى على قدرة الله تعالى وبالغ حكمته.

التفسير:

بعد أن ذكر تعالى أن أكثر الناس لا يؤمنون مهما حرص - ﷺ - على إيمانهم، ولا يتأملون في الدلائل على نبوته ذكر في هذه الآية، أن هذا ليس ببدع منهم فأكثرهم في غفلة عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه في السموات وفي الأرض.

وكم من حجة وعبراً لله في السموات والأرض دالة على وجود الخالق الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته وحكمته غير هذه الآية التي جئت بها، كالشمس والقمر والنجوم وتغيّر أحوالها، والجبال والبحار والأشجار وألوان النبات وأحوال المتقدمين وآثار الأمم السالفة. . . وسائر ما في الأرض والسماء من العجائب التي لا تُعد ولا تُحصى، يشاهدونها فلا يعتبرون بها ولا يفكرون بمآ فيها من عبرة ودلالة على توحيد خالقها وأن الألوهية لا تكون إلا لله الواحد القهار الذي خلقها، وخلق كل شيء فأحسن تدبيره[2].

25 ـ المعصية الأصلية

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ

(1) انظر كبرى اليقينيات الكونية ص 215.

(2) ت. أبي السعود 4/ 309 وم. الطبري 1/ 411 والمراغي 13/ 48 والتي تليها. ومجمع البيان 13/ 125 وما بعدها.

وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾.

سورة البقرة: 36.35 وانظر البقرة: 37، 38 والأعراف: 19.27 وطه: 115.124.

القراءات:

1 ـ قرأ الجمهور (رَغداً) بفتح الغين. وقرأ إبراهيم النخعي ويحيى بن وثاب بسكونها. وهما لغتان[1].

2 ـ قرأ الجماعة (فأزلّهما) بغير ألف من الزلّة وهي الخطيئة أي استزلهما وأوقعهما فيها. وقرأ حمزة (فأزالهما) بألف من التنحية أي نحّاهما أي صرفهما عما كانا فيه من الطاعة إلى المعصية وقراءة الجماعة أمكن في المعنى[2].

3 ـ قرأ الجمهور (اهبطوا) وقرأ أبو حيوة (اهبُطوا) بضم الباء وهما لغتان. ويقوي لغة الضم أن الفعل غير مُتعدّ والأكثر في غير المتعدي أن يأتي على مَفْعُل[3].

4 ـ وقرأ الجمهور (هذه الشجرة) وقرأ ابن محيصن «هذي الشجرة» بالياء وهو الأصل؛ لأن الهاء في هذه بدل من ياء ولذلك انكسر ما قبلها، وليس في الكلام هاء تأنيث قبلها كسرة سواها، وذلك لأن أصلها الياء.

5 ـ وقرأ عامة القراء (الشجرة) بفتح الشين وقرىء كما حكى هارون الأعور بكسرها كما قرىء (الشيرة) بكسر الشين والياء المفتوحة بعدها. وهي لغات ثلاث[4].

---

(1) البحر المحيط 1/ 157 وانظر القرطبي 1/ 303.

(2) المرجع الأخير ص 311 وانظر البحر المحيط 1/ 161 والكشف عن وجوه القراءات 1/ 236 ومجمع البيان 1/ 189 والتي تليها.

(3) القرطبي 1/ 319 وانظر البحر المحيط 1/ 162. وفيه أبو حياة بدل أبي حيوة.

(4) القرطبي 1/ 304 والتي تليها وانظر البحر المحيط 1/ 158.

اللغة والمدلول الخاص:

العصا ـ واويّة ـ: العُود وعصى ـ من باب رمى ـ عَصْياً وعِصْياناً ومَعْصِيةً: خرج عن الطاعة، فكأنّه يتمنّع بالعصا، وقد يكون من معنى الصلابة في العصا. والوصف من عصى عاصٍ وعَصِيٌّ[1].

والمراد بالمعصية الأصلية هي مخالفة آدم لربه حين أمره أن لا يقرب شجرة أشار إليها في الجنة التي أدخله إياها وترتب على هذه المعصية ـ التي شاء الله أن تكون المقدّمة لمشيئته في جعل آدم وذريته خليفة له في الأرض ـ خروجُ آدم وحواء من الجنة إلى الأرض للعمل فيها، فهي دار اختبار وابتلاء وتكليف، ليعود بعدها إلى الدار والآخرة دار الخلود والاستقرار التي لا زوال لها ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، ففيها إما نعيم مقيم لـ ﴿مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [2] وإما جحيم وعذاب أليم لـ ﴿مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾[3].

التفسير:

قال تعالى مخاطباً آدم عليه السلام بعد أن أنعم عليه بما اختصه من العلوم وما أوجب له من سجود الملائكة سجود تكرمة وتعظيم لشأنه:

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا﴾ أي وقلنا ـ والنون هنا نون الكبرياء والعظمة لا نون الجمع ـ لآدم: اتخذ الجنة مسكناً لك ولزوجك.

---

(1) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم 2/ 206 والتي تليها والمفردات 337 والمصباح المنير (عصى).

(2) النازعات/ 40.

(3) النازعات/ 37و38.

وقد اختلفت آراء العلماء في الجنة المرادة هنا، فمن قائل إنها دار الثواب التي أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة، لسبق ذكرها في هذه السورة وفي ظواهر السنة ما يدل عليه، فهي إذاً في السماء حيث شاء الله منها، ومن قائل إنها جنة أخرى خلقها الله تعالى امتحاناً لآدم عليه السلام وكانت بستاناً في الأرض(*). والأكثرون على الأول. والتوقف في أمر هذه الجنة وتفويض أمرها إلى علم الله تعالى أولى.

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي كلا من الجنة أكلاً واسعاً هنيئاً، لا عناء فيه ولا تعب من أي مكان شئتما منها.

ولا تقربا شجرة معينة من أشجار الجنة بأكلٍ. ولم يبين لنا تعالى هذه الشجرة وليس في شيء من هذا التعيين الذي ذكره أهل التأويل ما يعضده خبرٌ أو دليل قاطع، فالصواب أن يُعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إليها وعصى في الآكل منها. وقطعاً للتأويل بلا دليل سماها والد القشيري رحمه الله شجرة المِحْنة. فالنهي كان لحكمة كأن يكون في أكلها ابتلاء من الله لآدم أو اختبار له ليظهر به ما في استعداد الإنسان من الميل إلى معرفة الأشياء واختبارها. أو يكون في أكلها ضرر.

(*) قال الألوسي: ومما يؤيد هذا الرأي:

1 ـ أن الله خلق آدم في الأرض ليكون خليفة فيها هو وذريته، فالخلافة منهم مقصودة بالذات، فلا يصح أن يكون وجودهم عقوبة عارضة.

2 ـ لم يذكر تعالى أنه بعد أن خلق آدم في الأرض عُرج به إلى السماء، ولو حصل لذكر لأنه أمر عظيم.

3 ـ أن الجنة الموعود بها لا يدخلها إلا المتقون المؤمنون فكيف دخلها الشيطان الكافر للوسوسة.

4 ـ إنها دار للنعيم والراحة، لا دار للتكليف، وقد كلف آدم وزوجه ألا يأكلا من الشجرة.

5 ـ أنه لا يمنع من فيها من التمتع بما يريد منها.

6 ـ أن لا يقع فيها العصيان لأنها دار طهر، لا دار رجس. انظر روح المعاني 1/ 233 وانظر القرطبي 1/302 وما بعدها.

وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لأنفسكما بالوقوع فيما يترتب على الأكل منها من المعصية أو بنقصان حظوظكما بفعل ما يمنع الكرامة والنعيم، أو بتعدي حدود الله. ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي حملهما على الزلة بسبب الشجرة وقد وسوس لهما بقوله كما أخبر تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ و﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ وبقسمه لهما ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي فأخرجهما من الجنة: ومن النعيم الذي كانا فيه(*) فاتصلت العقوبة بالذنب اتصال المسبّب بسببه المباشر(**). وقلنا ـ لآدم وحواء وإبليس ـ اهبطوا إلى الأرض متعادين يبغي بعضكم على بعض بتضليله، فالعداوة بين ذرية آدم وإبليس هي عداوة الإيمان والكفر.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي ولكم في الأرض منازل ومساكن تستقرون عليها، جيلاً بعد جيل، واستمتاع بما فيها من الأرزاق والزينة واللذة إلى حين انقطاع الدنيا. فالاستقرار والتمتع في الأرض

(*) وقيل أخرجهما مما كانا فيه من الطاعة إلى المعصية انظر مجمع البيان 1/191.

(**) أخبرنا تعالى في كتابه أن آدم عليه السلام أكل من الشجرة المنهي عنها ناسياً فقال ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما﴾ ولما كان الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة معارفهم وعُلوّ منازلهم ما لا يلزم غيرهم كان تشاغله عن تذكّر النهي تضييعاً صار به عاصياً. هذا، والأنبياء معصومون من الصغائر والكبائر، إلا ما أخبر تعالى بوقوع ذنوب من بعضهم نسبها إليهم. وعاقبهم عليها، وقد وقعت منهم على جهة الندور وعلى جهة الخطأ والنسيان، وهذا لم يُخِلّ بمناصبهم ولا قدح في رتبهم بل قد تلافاهم واجتباهم وهداهم ومدحهم ربهم وزكاهم واصطفاهم صلوات الله عليهم وسلامه. انظر القرطبي 1/306 و309.

وقوله تعالى ﴿فأزلهما الشيطان﴾ يُظهر خطأ اعتقاد النصرانية في أن الشيطان وسوس لحواء وحواء أغرت آدم، فبيّن القرآن أن الشيطان وسوس لهما وفي آية أخرى وسوس لآدم ﴿فوسوس إليه الشيطان﴾ [طه/120].

ليسا بدائيين كما زعم إبليس حين وسوس لآدم وسمى الشجرة المنهيّ عنها شجرة الخلد(1).

26 ـ المعاد

انظر (يوم القيامة).

27 ـ الموت

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾.

سورة آل عمران: 185 وانظر آل عمران: 145 والنساء: 78 والأنبياء: 34، 35 والمؤمنون: 15 والعنكبوت: 57 والسجدة: 11 والزمر: 30 وقّ: 19 والرحمن: 26 والواقعة: 40 والجمعة: 8 والمنافقون: 11.

القراءات:

قرأ العامة «ذائقةُ الموت» بالإضافة. وقرأ الأعمش ويحيى وابن أبي إسحاق «ذائقةٌ الموتَ» بالتنوين ونصب الموت على أنها لم تذق الموت بعد، وذلك أن اسم الفاعل على ضربين أحدهما أن يكون بمعنى المُضِيّ، وهو المضاف إلى ما بعده مثل هذا ضارب زيدٍ أمسِ لأنه يُجرى مجرى الاسم الجامد وهو العلم نحو غلام زيدٍ وصاحب بكرٍ والثاني بمعنى الاستقبال ويجوز فيه الجر والنصب والتنوين لأنه يُجرى مجرى الفعل المضارع، فإن كان الفعل غير متعدٍ لم يتعد نحو قائمٌ زيدٌ وإن كان متعدياً عدّيته ونصبت به فنقول زيدٌ ضاربٌ عمراً بمعنى يضرب عمراً(2).

---

(1) مجمع البيان 1/186 وما بعدها و191 و193 والقرطبي 1/298 و300 و302 و304 و305 و311 و312 و321 وما بعدها. وم. الطبري 1/20 والتي تليها. والمراغي 1/90 وما بعدها.

(2) القرطبي 4/297 والتي تليها.

وقرأ الأعمش (ذائقةُ الموتَ) بطرح التنوين ونصب الموتَ، والسبب التقاء الساكنين سكون التنوين وسكون اللام كقول الشاعر: ولا ذاكرَ الله إلا قليلاً. اهـ[1].

وقرىء في الشواذ (ذائقُه الموتُ) على جعل الهاء ضمير كل على اللفظ وذائق مبتدأ والموت خبره[2].

اللغــة:

انظر (الاحتضار) في هذا الكتاب.

التفسير:

تقدم في (الغرور) من الأخلاق الذميمة.

(1) الكشاف 1/ 234 وصور الشاهد فألفيتُه غيرَ مُسْتَعتِبٍ والبيت لأبي الأسود الدؤلي كما في الانصاف 659 وابن يعيش 9/ 234 واللسان (عتب).

(2) إملاء ما من به الرحمن 1/ 161.



الفهرس

بـــاب الصـــاد

بـــاب الضـــاد

بـــاب الفـــاء

بـــاب الميـــم

بـــاب الهـــاء

بـــاب الـــواو

بـــاب اليـــاء

ب ـــ الـــدين

بـــاب الهمـــزة

بـــاب البـــاء

بـــاب التـــاء

بـــاب الجيـــم

بـــاب الحـاء

بـــاب الـدال

بـــاب الشيـــن

بـــاب الصـاد

بـــاب الغيـــن

بـــاب الـلام

بـــاب الميـــم

بــاب اليــاء

ج ـ العقائــد

بــاب الهمــزة

بــاب البــاء

بــاب التــاء

بــاب الجيــم

بــاب الخــاء

بــاب الـذال





